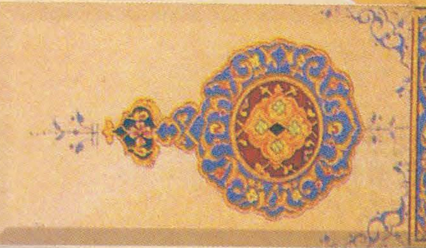


جلال آل أحمد



قضايا إسلامية معاصرة

قشة في الميقات

مشاهدات وانطباعات
وهواجس رحلة مثقف الى الحج

دار الهادي

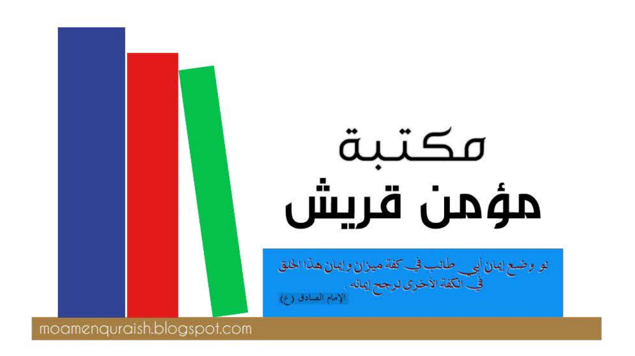
قشة في الميقات

رحلة مثقف الى الحج

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1424هـ - 2003م





هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

قشة في الميقات

مشاهدات وانطباعات وهواجس

رحلة مثقف الى الحج

تأليف: جلال آل أحمد

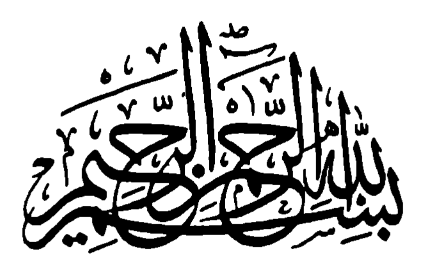
ترجمة: حيدر نجف

مراجعة: عبد الجبار الرفاعي

مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد

بالتعاون مع دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحرر

في ختام يومياته التي دونها في رحلة الحج، يبوح جلال آل أحمد بهدفه، وماكان يفتش عنه في هذه الرحلة، فيقول فيما يشبه الاعتراف الجريء: «قد يعتبر ماسأقوله اعترافا، اواعتراضا، او زندقة، او أي شي آخر، لكنني كنت ابحث في هذه الرحلة عن اخي، وكل اخوتي الآخرين، اكثر من بحثي عن الله، فالله موجود، في كل مكان، لمن يؤمن به».

ربما يبدو مثل هذا الاعتراف مفارقة، تفزع اصحاب التجارب الروحية، والمرتاضين، والمتصوفة من المسلمين، الذين يرتشفون في مناسك الحج اعبق ادعيتهم، واذكارهم، ومواجيدهم، ويتوقون الى بلوغ اقرب منازل السير الى الله تعالى، والاغتراف من مناهل التواصل معه.

غير ان جلال آل احمد يترجم لنا فلسفة الحج، بلغة اخرى، قد يحسبها البعض نوعا من الشطحات، باعتبار جلال اتى الى الحج ليتعرف على اخيه المسلم، بل الانسان، مما يعني انه غير مكترث بما يعرّفه بالله، ويقربه اليه، لكن قراءة متأنية ليومياته في رحلته، تدحض هذا التصور، حيث تتجلى روح آل احمد، ونزعاته المعنوية، واخلاقيته، وعواطفه البريئة، ومشاعره الشفافة، ويغدو اكتشاف الآخر، ووعي آلامه وآماله، والتعايش، والتسامح في كل ما يوجب الخلاف معه، كل ذلك اقرب السبل الى الله تعالى، وان الطريق الى معرفة الله يمر

عبر معرفة الانسان، وتبني قضاياه، والدفاع عن حقوقه المهدورة، وحرياته المغدورة، طبقا لفهم آل احمد للاسلام ومقاصده العامة.

من هو جلال آل احمد؟

قبل مواكبة جلال في رحلته، نشير بايجاز الى محطات حياته، وتكوينه الاجتماعي والثقافي، والمنعطفات الابرز في مواقفه.

ولد محمد حسين حسيني طالقاني، والذى اشتهر بـ(جلال آل احمد)، في ١/ ١٩٢٣/١٢ في طهران، لعائلة محافظة، اذ كان والده رجل دين، ناشطاً في الحقل الاجتماعي، ويتولى ادارة مكاتب شرعية للأحوال الشخصية، ويؤم المصلين في بعض مساجد طهران، الاّ ان الأب سرعان مافقد مواقعه في هذه المكاتب، عندما رفض الرضوخ لقرارات وزارة العدل، بالاشراف على أنشطة مكاتب الاحوال الشخصية، وتوجيه عملها. وفضّل الاقتصار على شيء من نشاطه الديني الاجتماعي في التبليغ والدعوة.

لقد تعذر على جلال ان يواصل دراسته بشكل عادي، بعد ان انهى المرحلة الابتدائية، اثر تدهور الحالة المعاشية لأسرته، وخشية والده من التعليم الحديث، ورغبته في تواصل ابنائه مع التعليم الديني التقليدي للآباء، لذا قرر جلال الانخراط خفية في دراسة مسائية، ليكمل تعليمه الاعدادي في مدرسة «دار الفنون» الشهيرة في طهران، بالرغم من انشغاله نهارا بأعمال حرفية في السوق، بغية تأمين متطلبات العيش.

وعندما بلغ العشرين ارسله ابوه ليدرس في الحوزة العلمية في النجف الاشرف، غير انه ما لبث ان غادر النجف، بعد فترة وجيزة، لاتتجاوز ثلاثة اشهر. ويبدو انه ضاق ذرعا بنمط التعليم التقليدي، وطبيعة الكتب المتعارفة في المدارس الدينية، وأسلوب التدريس، وهو مايومئ اليه وصفه لذلك النمط من التعليم، في

فترة لاحقة، بأنه تحول الى متحف لتخريج «المومياءات المحنطة»[1].

وكان يروم الذهاب من النجف الى لبنان للالتحاق بالجامعة الاميركية في بيروت، لولا ان السبل لم تكن ممهدة لسفره، فأقفل راجعا الى طهران، والتحق بالمعهد العالي لاعداد المعلمين، وتخرج منه سنة ١٩٤٩، ونال درجة الماجستير في الأدب الفارسي من جامعة طهران، على اطروحة تناول فيها قصص «ألف ليلة وليلة».

وفي سنة ١٩٤٤م انخرط في حزب توده «الحزب الشيوعي الايراني»، وسرعان ماتقدم موقعه في السلّم الحزبي، حتى امسى بعد اعوام محدودة عضوا قياديا في توده، ومشرفا على النشاط الاعلامي والثقافي للحزب.

الاّ ان عدم استقلالية حزب توده، وارتباطه العضوي بسياسات ستالين، وخضوعه لارادة موسكو، وافتقاره للديمقراطية الداخلية، افزع جلال، وافضى به الى الانشقاق عن الحزب سنة ١٩٤٧، بصحبة جماعة، تزعمهم خليل ملكي. ومن الطريف ان اذاعة موسكو هاجمتهم، ووصمتهم بالخونة، فسئم جلال العمل السياسي، وانسحب بهدوء، بعيدا عن صخب التجارب الحزبية، وملابسات حياتها الداخلية.

واقترن في عام ١٩٤٩، بالقاصة المعروفة سيمين دانشور، بعد ان تعرف عليها في رحلة بالسيارة الى شيراز.

وفي آيار ١٩٥١ أسس خليل ملكي ومظفر بقائي كرماني «حزب كادحي الشعب الايراني» فالتحق بهما جلال، لكن هذا الحزب انهار بعد مدة قصيرة في عام ١٩٥٢.

---

(١) غسان طعّان. التغرّب. بيروت: بيسان للنشر، ٢٠٠١، ص ١٤٤.

ومرة اخرى اسس خليل ملكي بالتعاون مع جلال حزبا جديدا، سموه «القوة الثالثة». وهو حركة ذات نزعة «عالمثالثية» تهتم بمشكلات التخلف وقضايا التنمية والتحديث في العالم الثالث.

لكن انقلاب ١٩٥٣ الذي اطاح بمحمد مصدق، وقوض عملية تأميم البترول، ثم هيمنة الشركات الغربية على البترول من جديد، قاد آل احمد ومجموعة من المستنيرين لمغادرة مواقعهم السياسية، والانخراط في مشاغل ادبية وثقافية وفكرية، تنأى عن متاعب السياسة وشجونها.

ومن المؤكد ان تلك التجارب الحياتية، والتقلبات السياسية المتنوعة، تظل ترفد حياة آل احمد باستمرار، وتساهم في توجيه حياته وتحديد اختياراته الثقافية والعملية، ويتواصل تأثيرها على مواقفه الفكرية في السنوات التالية.

ويمكن العثور على عناصر اخرى، بجوار تلك التجارب، كانت تمثل مناهل اساسية في تكوين وعي جلال، وبناء تفكيره، والتحكم باتجاهاته فيما بعد.

ومن اهم هذه المناهل الكتّاب والأدباء والمثقفون والمفكرون الاوائل، الذين تعرف عليهم، من خلال كتاباتهم، أو ربطته بهم علاقات شخصية، وفي طليعة ذلك، قراءته لآراء أحمد كسروي، الذي اشتهر بنزوعه القومي، ومؤلفاته المناهضة للتراث، ونقده العنيف للفكر الديني. وعلاقة آل أحمد بالقاص الشهير صادق هدايت، ورائد الشعر الحديث بالفارسية نيما يوشج، والناشط السياسي خليل ملكي.

فقد كانت آراء كسروي باعثا لتمرده على بيئته الدينية المحافظة، وطلاقه مع عوالمها، بينما استلهم من صادق هدايت تكنيك السرد الحديث في الكتابة القصصية، اما خليل ملكي فأوقد في وجدانه روح الكفاح السياسي.

ومما لاشك فيه ان طبيعة شخصية آل أحمد، واستعداداته، ليست بعيدة، عن تنويعات المواقف والافكار التي غرقت في فضائها، ذلك ان جلال اتسم بمزاج

قلق، مضطرب، متطرف، يكتنفه تطلع وطموح متوثب، وجدية، وحيوية، وضراوة، وحساسية مرهفة.

وباء التغرب أو الاصابة بالتغرب أو نزعة التغريب

طبعت وعي آل أحمد هواجس أضرابه في عالمنا، هذه الهواجس التي كان يفجرها على الدوام، انشطار وعيهم حيال رهانات الهوية والماضي من جهة، والعصر وتحدياته من جهة أخرى، مضافا الى الاستفهامات الملتبسة للنهضة والتحديث، وجدل التراث والوافد، وسطوة التكنولوجيا الغربية، وتغلغلها في كافة المجالات، وازاحتها لمكونات الاجتماع التقليدي، وقيمه الموروثه، واستبدالها بالتدريج بقيم، تحكي روح الحضارة الغربية، وتجسّد مفاهيم ومقولات، تخترق بنية هذه المجتمعات، وتسود في حياتها على شكل ظواهر حضارية وثقافية واجتماعية واقتصادية.

لقد شعر آل أحمد بعمق تلك التحولات، ورصد آثارها في الحاضر، وحاول ان يستشرف مآلها ونتائجها، ليدرك ان مجتمعه يجتاحه اعصار، اذا لم تسخر كل الطاقات لمقاومته، فإنه سيعصف بمرتكزات هذا المجتمع، ويطيح بمقومات وجوده، ويمسخه، فيحيله الى كائن مشوه.

واطلق جلال على عملية الاجتياح هذه «غرب زدگي»، وهو مصطلح مشبع بدلالات سلبية، بل دلالات هجائية لكل ما هو غربي، ويوازيه بالعربية «وباء التغرب»، أو«الاصابة بالتغرب»، أو«التسمم بالغرب»، أو«نزعة التغريب»، وغير ذلك.

ويبدو ان الدكتور أحمد فرديد هو أول من نحت مصطلح «غرب زدگي» بالفارسية. ويوصف فرديد، بأنه مفكر عميق، لكنه صامت، واذا تكلم فهو مبهم، ولا يدون أفكاره، ولذلك يعرف بـ«الفيلسوف الشفاهي». وقد كان له دور رائد

في تعليم الفلسفة الألمانية في ايران، واعتناق آراء هايدغر، وتشغيل بعض مقولاته في المجال التداولي الايراني، وعرف عنه تطبيقاته لنظريات هايدغر في دراسة الحضارة الغربية، وآثارها السلبية خارج محيطها الخاص، فمثلما يعتقد هايدغر بأن «كل حقبة من حقب التاريخ تختص بسيادة حقيقة معينة تطغى على بقية الحقائق، فيما تقذف بما سواها إلى الهامش»، يعتقد فرديد أيضا بأن «الغربيين أضاعوا الله، واستبدلوه بإله آخر، هو النفس المادية، أو النفس الأمارة بالسوء». كما يؤكد ان للبشر ثلاثة أبعاد: الأول علمي، والثاني فلسفي، والثالث معنوي، ومع ان «الأول والثاني احتلا مساحة واسعة في السنن الفكرية الغربية، لكن الثالث ظل غائبا وباهتا، بشكل فاضح».

ولذلك يحذر أحمد فرديد من مخاطر شيوع حضارة الغرب في عالمنا، ويدعو الى تجاوز التغريب ومخاطره، باكتشاف ذات الغرب، أي ان نكون غربيين، لا بمعنى الاغتراب عن الذات، وانما بمعنى المعرفة الدقيقة بالغرب، والنفوذ الى كنه الفلسفة والانطولوجيا الغربية، لأن معرفة الآخر شرط لازم لمعرفة الذات.[1]

وقد أخذ جلال آل أحمد هذا المفهوم الفلسفي من فرديد، لكنه صاغه صياغة ايديولوجية، وعبأه بأفكاره، التي استقى شيئا منها في المرحلة الماركسية من حياته، وهي أفكار تمنح آلات الانتاج والماكنة دورا مركزيا في حركة التاريخ، وبناء المجتمعات وفقا لمعاييرها الخاصة.

يعرّف آل أحمد «نزعة التغريب» بأنها «مجموعة الاعراض التي تطرأ على حياتنا، في جوانبها الثقافية والحضارية والفكرية، من دون ان يكون لها أية

---

(١) مهرزاد بروجردي.المثقفون الايرانيون والغرب. ترجمة: جمشيد شيرازي. طهران: فرزان، ١٩٩٨، ص١٠٤ـ ١٠٨.

جذور في التراث، أو أي عمق في التاريخ، وبدون ان يكون دخولها تدريجيا، يسمح بالاستعداد لها، وانما تداهمنا دفعة واحدة، لتقول لنا: أنا هدية الآلة اليكم، أو قل انها الممهد للآلة».

ويعرف آل أحمد بتوجسه الشديد من كل شيء يرمز للغرب وثقافته، وبالأخص معطيات التكنولوجيا الغربية، فهو يرى ان كل شيء في عالمنا تدنسه الماكنة، و«يتمكنن»، وعندما يتمكنن يجري تهشيمه ونسفه.

ولعل مصدر هذا الفزع هو خيبة الأمل المزدوجة، من الغرب بقناعه الامريكي، الذي اسقط حكومة الدكتور مصدق، واطاح باصلاحاته، التي جسدت بعض احلام جلال آل أحمد والنخبة الايرانية، وخيبة الأمل من الاتحاد السوفيتي، الذي يرمز للماكنة والسلع الغربية أيضاً، وما يلاحظه آل أحمد من قيم وثقافة وافدة، يفرضها نمط الماكنة والسلعة الآتية من الغرب، وما تمثله الماكنة من مركزية محورية في خلق اشكالية التغريب الحضاري.

كما ان حظر الشاه رضا خان للحجاب، واكراه رجال الدين على خلع العمامة، واختصار مكاسب الغرب في أزياء النساء، أو قبعة الرجال، اختزن في وجدان آل أحمد وغيره من مواطنيه، عداء كامنا للغرب، مالبث ان انفجر في نزعات نفي واقصاء شمولية، تلفظ كل ما هو غربي.

وعرض آل أحمد آراءه هذه في دراسة كتبها كتقرير الى مجلس اهداف الثقافة الايرانية في وزارة التربيةوالتعليم، سنة ١٩٦٢، تحت عنوان «غرب زدگي» «وباء التغرب» أو «نزعة التغريب».

وكان المجلس الذي يضم في عضويته عشرة اشخاص، بضمنهم أحمد فريد، قد تداول امكانية نشر دراسة آل أحمد، غير انه خلص الى تعذر النشر، بسبب نقده الصريح للنظام، وفضح دوره في تلويث الفضاء الثقافي للمجتمع بوباء التغرب.

من هنا أثار كتاب «نزعة التغريب» عند صدوره ضجة واسعة بين النخبة في ايران، ومالبث هذا الكتاب ان أضحى بعد سنوات من اخطر النصوص لتعبئة الجماهير، وتجييش وتعبئة المجتمع ضد سياسات الشاه المتحالفة مع الغرب.

يكتب الناقد رضا براهني في بيان اثر هذا الكتاب: («نزعة التغريب» لآل أحمد كان له من حيث تحديد واجبات البلدان المستعمرة حيال الاستعمار، نفس الدور والاهمية التي كانت للبيان الشيوعي لماركس وانجلز، في تحديد مهمة البرولتاريا ازاء الرأسمالية والبرجوازية، وكتاب «معذبو الأرض» لفرانتز فانون، في تعيين مايجب على الشعوب الافريقية فعله قبال الاستعمار الأجنبي، ان «نزعة التغريب» أول رسالة شرقية ترسم موقف ووضع الشرق مقابل الغرب المستعمر، وربما كانت الرسالة الايرانية الاولى التي اكتسبت قيمة اجتماعية على مستوى عالمي).[1]

لعل هذا التقييم ينطوي على مبالغة في بيان أهمية كتاب آل أحمد، لكن وبغض النظر عن القيمة العلمية للكتاب، فانه عمل سجالي، مشبوب بالإثارة، والنقد الايديولوجي للغرب، انه خطاب تعبوي، وهو اقرب الى الشعر المنثور، منه الى الدراسة الموضوعية. وفي ذلك تكمن اهميته في تحريض الجماهير، وترسيخ عدائها، لكل ما هو غربي. وهو عداء عمل على تثوير الشعب الايراني، الاّ انه بدأ يضمحل في السنوات الاخيرة، عند النخبة الايرانية، التي راحت تنشد صورة بديلة للغرب، صورة تستبعد الرؤية الخطأ التي تحسب تمام مكاسب الحضارة الغربية ومعارفها، ليست سوى ماكنة، ثم تهاجم بعنف تلك الماكنة، وتكيل لها ألوان التهم، من دون ان تميز بين الأبعاد المتنوعة للغرب الحديث، وكأن الغرب هو ماكنة وحسب، بينما تتجاهل ما أنجزه الغرب، من علوم طبيعية،

---

(١) رضا براهني. كتابة القصة. طهران، اشرفي،ط٢،ص٤٦٥.

وعلوم بحتة، وعلوم انسانية، وآداب، وفنون، ...وغير ذلك.

ولايصح اختزال أية حضارة في بعد واحد. اما الخلط العشوائي بين العلم، والتكنولوجيا الغربية، من جهة، والوجة الاستعماري للغرب، فهو بحاجة الى مراجعة، وتحليل نقدي، يحررنا من الرؤيا الاطلاقية الشمولية غير الموضوعية.

ان خطاب آل أحمد حيال «المكننة»، وأثرها التغريبي في الشرق، ودورها في استئصال صورة الحياة التقليدية، وتدنيسها طهرانية عالمنا، ظل هذا الخطاب محكوما بعقدة «المكننة» في غير واحد من كتاباته الأخرى، لاسيما كتابه الاثير، الذي نقد فيه النخبة، ووسم مواقفهم بالخيانة، حسبما يشي عنوانه «المستنيرون: خدمات وخيانات».

بل تغلغلت هذه العقدة حتى في كتابه «قشة في الميقات» ايضاً. ذلك ان كل شيء يشير الى الغرب، وسلعه، وعوالمه، صار يستفزه، بحيث تبدو المصابيح، وأضواؤها الساطعة في المشاهد المشرفة، شيئا مثيرا لمشاعره، لأن تلك المصابيح، المصنوعة والمصممة على طراز غربي، تدنس الفضاء النقي الطاهر، حسب رأيه.

أدب الرحلة الى الحج

أدب الرحلات من فنون الآداب العالمية العريقة، ويعتبر أدب الرحلات الى الاماكن المقدسة من اروع اشكال هذا الأدب. وقد استأثرت الرحلة الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وزيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمشاهد المشرفة في المدينة المنورة، باهتمام طائفة من المسلمين، الذين حرصوا على تدوين مشاهداتهم، وانطباعاتهم واحوالهم،في هذه الرحلة الكريمة، بل طالما شرع بعض المؤلفين بالبدء بتصنيف آثارهم في هذه الديار، والسعي لختامها هناك، أو الفراغ من الآثار التي كتبوها في مواطنهم هنا، بغية تسجيل تاريخ الفراغ منها في هذه الاماكن الغالية، والاحتفاظ بذكرى عبقة عنها، تقترن ابدا بجهودهم الفكرية.

كما اشتهرت بعض المصنفات الهامة في التراث الاسلامي بنسخة مميزة، اعاد تدوينها المؤلف في البيت الحرام مثلا، بعد فراغه من تأليف كتابه في موطنه، او باشر بالتأليف في مكة المكرمة، وجاور البيت الحرام لسنوات، ريثما ينجز كتابه، ثم كتبه ثانية في بلد آخر.

وظل البيت الحرام على الدوام مصدر الهام للكتّاب والمؤلفين، الذين تشرفوا بالطواف في رحابه الطاهرة.وفي العصر الحديث وفد الى الديار المقدسة بمعية افواج الحجاج والمعتمرين، الكثير من الصحفيين، والادباء، والمفكرين، واهتم جماعة منهم بتدوين رحلته والافصاح عن تجاربه الروحية ووصف المناسك، والمراسم، والاماكن، والاسواق وطبيعة تقاليد وطبائع مواطني البلدان الاسلامية الذين التقاهم. ومن الواضح ان هذا الكم من ادب الرحلة الى الحج، يتفاوت في اهميته الثقافية، وقيمته الادبية، وقدرته على رصد التفاصيل الدقيقة، والوقائع الهامة في هذه الرحلة، لأن ذلك يرتبط بموهبة الكاتب، وامكاناته الابداعية، ونمط خبراته السابقة، ومستوى ثقافته وامتداداتها الافقية والرأسية.

اهمية كتاب «قشة في الميقات»

بالرغم من وفرة الكتابات في هذا الحقل، لكن قلما نعثر على نماذج باهرة منها، ترتقي فيها ادوات السرد الى مستوى رفيع يجعله بدرجة تضاهي روائع الأدب العالمي.

واحسب ان رحلة جلال آل أحمد الى الحج، الموسومة «خسي در ميقات» تعد واحدة من اندر واثمن تلك الأعمال. وتكتسب هذه الرحلة اهميتها، مما يلي:

١- ان كاتبها من أبرز رواد القصة في الأدب الفارسي الحديث، مضافا الى انه ناقد، ومفكر، وسياسي، ورحالة، ومثقف متمرد، اجترح مغامرات فكرية، لم تتوافر لمعظم اترابه، اذ تمثلت هذه المغامرات، بتقلبات وتنقلات بين «محطات اربع» وصفت بأنها «كعبات أربع» هي: موسكو، باريس، القدس، ومكة. وان هذه

المدن ترمز الى مراحل توجهه السياسي، والثقافي، والالهامي، والايماني، وانه غادرها جميعا، باستثناء مكة المكرمة، كما يؤكد شقيقه شمس آل احمد.[1]

فقد بدأ جلال رحلته الفكرية السياسية بموسكو، حين تماهى معها، من خلال التحاقه بحزب توده، في السنوات ١٩٤٤-١٩٤٧.ثم اقلع منها الى باريس، فانخرط في تيارات الأدب والثقافة الفرنسية، وشغف بألبير كامو، وسارتر، وغيرهم، فترجم «الغريب» لألبير كامو بالتعاون مع د. اصغرخبرزاده، سنة ١٩٤٩ و«سوء التفاهم» لألبير كامو ايضا سنة ١٩٥٠، كذلك ترجم «الأيدي القذرة» لسارتر سنة ١٩٥٢.

وتأثر بالعديد من المفكرين الاوروبيين، واغرق في اطراء جان بول سارتر، معتبرا اياه مقياسا للضغط السياسي والأدبي، ومناهضا لكل نزعة تسلطية، واستعار منه فكرة الالتزام الاجتماعي، كجزء اساسي من مهمة الكاتب، وحذا حذو سارتر في تسمية المستنير بـ«الضمير المريض» للمجتمع.[2]

وفيما مضى اشرنا الى انه تأثر بهايدغر، واستلهم افكاره، بشأن طبيعة التكنولوجيا الغربية والمادية الغربية، بواسطة احمد فرديد.

ثم يمم آل أحمد وجهه صوب مكة، وتبلور في وعيه نزوع واضح نحو الدين، والتراث، والماضي، وكان كتابه «نزعة التغريب» أول بيان صريح، يحلل فيه آثار التغريب في ايران، وأردف ذلك بعد سنوات، بكتاب هجائي للمثقفين المنبهرين بالحضارة الغربية،والمروجين لقيمها في المجتمع، صدر بطبعة محدودة سنة ١٩٦٥، بعنوان «المستنيرون ...خدمات وخيانات» ثم صدر نصه الكامل بجزئين سنة ١٩٧٧.

---

(١) غسان طعان. مصدر سابق. ص٢٦٤.

(٢) مهرزاد بروجردي. مصدر سابق، ص٧٧.

وبوسعنا القول ان رحلته الى الحج التي دونها سنة ١٩٦٤،جسدت صورة ناصعة عن الابحار الختامي لسفينته في شاطئ الديار المقدسة. ولا ندري ماذا تخبئ الأيام لهذا الأديب الناقد، في السنوات التالية، من تحولات أومواقف، لو لم يختطفه الموت، في ١٩٦٩/٩/٨.

لقد اوضحت زوجته الدكتورة سيمين دانشور، في مقالها الرثائي لزوجها، اتجاهاته الايمانية، في العقد الختامي من حياته بقولها: «...لم يكن ماديا، بل كان اصيلا، واذا كان قد اتجه للدين، فقد اتجه عن وعي وبصيرة، لأنه اختبر قبل ذلك الماركسية والاشتراكية، والى حد ما الوجودية، وكانت عودته النسبية الى الدين ... طريقا للتحرر من الامبريالية، وصيانة للهوية الوطنية، وسبيلا الى الشرف الانساني، والتراحم، والعدالة، والمنطق، والتقوى ... كان جلال يحمل همّ هذا الدين ... ».(١)

٢- اختار جلال آل احمد الذهاب الى الحج مع القوافل الشعبية الفقيرة، فكان حجه يماثل حج المتسكع، كما تفصح عنه مذكراته، بالنسبة الى نوع الطعام، والمساكن، ووسائط النقل، وطبيعة المرافقين، في الرحلة.

وهو اختيار لم يكن عشوائيا فيما اظن، ذلك انه اراد ان يعيش الصورة الحقيقية لهذه الرحلة، بعيدا عن التشريفات التي تخلعها على منتسبيها بعض القوافل المترفة، او بعض الوفود والبعثات الرسمية.

اخال ان آل أحمد كان بامكانه السفر مع قافلة مرفهة، يتبوأ فيها مكانة تمنحه امتيازات مادية ومعنوية تحافظ على مقامه، لانه كان ينال مكافآت على كتاباته، مضافا إلى مرتبه الشهري، لكنه آثر ان يرافق قافلة شعبية، ذات امتيازات متواضعة، لكي يلامس عن قرب مشاعر الناس، ويتحسس حياتهم عن كثب،

---

(١) سيمين دانشور. غروب جلال. قم: نشر خرم، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٢١،٢٢.

مثلما تكلم عن ذلك فيما كتب في هذه الرحلة مشيرا الى ضرورة اقتراب المفكر من هموم الناس، وقضاياهم، عبر معايشتهم.

وكانت هذه عادته في السفر والتجوال بين المدن الايرانية، اذ يسافر مع الناس، في وسائط النقل العام، فينفتح على خفايا حياتهم عن قرب، ويندمج في آلامهم المختلفة، ويتعرف على طبيعة تفكيرهم، وتطلعاتهم، وأحلامهم، ورؤيتهم للواقع، ومايضج به من متاعب، ومشكلات متنوعة.

ان هذه الرحلة منحت آل أحمد فرصة هامة، لاعادة اكتشاف طبيعة العلاقات السائدة بين عامة الناس، ونمط وعيهم وتفسيراتهم للظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، ورؤيتهم الكونية، وطقوسهم، ولذلك كان يهتم بملاحقة كل صغيرة وكبيرة في أحاديث المرافقين في القافلة، وحالاتهم في ساعات الراحة والسكينة، والاضطراب والتوتر.

وبالتالي تبدو هذه الرحلة مناسبة عزيزة في حياة آل أحمد، للفرار من عوالم النخبة ومشاغلها، والعيش مع عامة الناس، والالتصاق بحياتهم، تلك الحياة الزاخرة بالبساطة، والعفوية، والبراءة، المشابهة للبداوة، أو القريبة من الأشكال البدائية، وهي اشكال مافتئ آل أحمد شغوفا بالعودة اليها، لأنه كان يمقت كل الاساليب الحديثة التي اكتسحتها.

ولم تقتصر مطامح آل أحمد في رحلته على الملاحظات العابرة، والانطباعات العاجلة، وانما كان يسعى للتوغل في الأبعاد الخفية لما يراه من ظواهر، ويعمل على تحليلها، من أجل اكتشاف مضمراتها، وما لاتقوله من نزعات بشرية، وما يدخل في تشكيلها من عناصر ثقافية.

انه يحاول ان يسجل ملاحظاته من منظور باحث انثربولوجي، ولذلك يمكن ان تُصنف هذه المذكرات كوثيقة انثربولوجية، لدارس مهتم بالتعرف على طبائع المجتمعات الاسلامية، وانماط ثقافاتها، من خلال معايشة الجماعات الوافدة

للحج من تلك المجتمعات، والاختلاط بمن يلتقيه منهم، والمبادرة بسؤاله، بما يتقنه من العربية أو الانجليزية.

٣- تشتمل هذه الرحلة على معلومات تاريخية هامة، ذلك ان مؤلفها كان يدوّن ما يشاهده، من عمارة البيت الحرام، والجغرافيا السكانية والعمرانية لمكة المكرمة والمدينة المنورة، والاسواق والمتاجر، والشوارع، وعربات النقل، والمناسك، في عرفات، ومزدلفة، ومنى، واشكال مخيمات الحجاج فيها، بل حرص على تقديم احصائيات رقمية لاعداد الوافدين الى الحج في ذلك العام، وجنسياتهم. وهي ارقام استقاها من الصحافة الصادرة وقتئذ، لأن آل أحمد كان مواظبا على مطالعة الصحف اليومية في الديار المقدسة، وربما استقاها ايضا من اسئلته المتنوعة للأشخاص الذين يلتقيهم، حين يستقل وسائط النقل، أو يتجول في الأسواق، أو اثناء اداء المناسك، وزيارة المشاهد المشرفة.

وقد ظل يواظب على تسجيل ملاحظاته في دفتر يصطحبه حيثما كان؛ في محل الاقامة، وفي السيارة، وفي المناسك، وحتى في مواطن الانتظار، في المطار، وغيره.

ولم يتوان جلال في كتابة مذكراته، الى حين عودته، مثلما فعل غير واحد من الحجاج ممن كتبوا مذكراتهم بعد عودتهم الى مواطنهم، وانما حرص على تسجيل ما يعاينه مباشرة. كانت كتابته آنية، يسترق دائماً لحظات، فيخلو بها، ويعكف على تعزيز يومياته، والاضافة اليها في كل مرة يلفت نظره فيها موقف يستحق الذكر، فمثلا تتمدد كتابته في بعض الايام، بحسب زحمة حركته، ووفرة لقاءاته، أو تتقلص، عندما يضطر للمكوث في المسكن، ولا يلتقي الآخرين.

٤- تصنف رحلة آل أحمد الى البيت الحرام، في النصوص الأدبية الفريدة، المدونة باللغة الفارسية، في العصر الحديث، فإن نصه يوظّف الموروث الحكائي، والفلكلور، والسخرية، ويبدع في صياغة نموذج مميز للسرد.

ويذهب بعض النقاد الى ان اسلوب جلال طوّر الأدب الفارسي، لأنه يصوغ عباراته ببيان يمزج فيه بين اللهجة الدارجة واللغة الفصيحة، وتتشكل نصوصه من جمل قصيرة، واحيانا لا تحتوي الجملة التي يصوغها على فعل في تركيبها، ومع ذلك تعبر عن معناها بوضوح.

وربما كانت جزالة بيانه، وشفافية اسلوبه، وقدرته الفائقة على الكتابة بلغة السهل الممتنع، من العوامل الرئيسة لاشتهار آثاره، وشدة اقبال القراء عليها، ووفرة المطبوع منها.

وقد حاول بعض الادباء تقليده واستعارة تقنياته في السرد، ومحاكاته فيما كتب، بنحو بات اسلوب آل أحمد أحد النماذج الشهيرة في الأدب الفارسي الحديث.

وقد تجلى هذا الأسلوب كأروع مايتجلى في «قشة في الميقات»، باعتباره من النصوص الأخيرة التي كتبها جلال قبل وفاته بسنوات، مضافا الى انه كتبها في ظروف خاصة، مر خلالها بحالات قبض وبسط روحي، ولحظات انفعال، وتوتر، وضراوة، ولحظات استرخاء، وهدوء، وانشراح. وكل حالة ولحظة من تلك الحالات واللحظات تثير لديه شتى الهواجس، وتستدعي في وجدانه مختلف الايحاءات والصور. والى ذلك يعود تميز اسلوبه وفرادته في هذه الرحلة، فهو يتألق في مواضع عديدة، فيرتقي الى الشعر المنثور، أو قصيدة النثر، حسب مصطلح النقد الادبي اليوم.

٥- ليست يوميات آل أحمد تأملات في استجلاء الأبعاد التربوية لعبادة الحج، واستيحاء فلسفة كل واحد من المناسك، كما فعل بعض الذين كتبوا عن الحج، لأن آل أحمد أراد لمذكراته ان تتدفق بعفوية، وتجري بتلقائية، لاتتقيد بترسيمات وحدود مسبقة، بل تواكب حركة الحاج، وأحداث الرحلة اليومية الشديدة الغنى والتنوع، فهي تضم رؤى انثربولوجية، ورصد ظواهر اقتصادية،

وتحليلات سياسية، وطرائف ادبية، ونقداً ساخراً، ومعلومات تاريخية، وجغرافية،...وغير ذلك.

لكن رحلة آل أحمد توهجت فيها ومضات، تحدثت عن فلسفة لبعض المناسك، كشذرات رصعت عباراته، خاصة في المواضع التي كان يكتب فيها مذكراته في الأيام التي امضاها في بقاع المناسك؛ في عرفات، والمشعر الحرام، ومنى، أو اثناء اداء الطواف في البيت الحرام، والسعي بين الصفا والمروة.

ولا أريد ان ابالغ لو قلت: على الرغم من مطالعتي لمجموعة من رحلات الحج المعروفة، وتشرفي بإداء الحج والعمرة عدة مرات، فإني وجدت نفسي مع «قشة في الميقات» انبسط حيث ينبسط جلال، وانقبض حيث ينقبض، واعيش في خيالي حالاته وأحاسيسه، في السعي والطواف، وكأني اواكبه في خطواته، واتماهى مع مشاعره، فأرى مايرى، وارتشف مايرتشف، واتحسس خطواته، واستمع الى ابتهالاته واستغاثاته، واذكاره. وعندما كنت أقرأ حالاته، اتعطش بوجد وشوق الى البيت الحرام، والمناسك المقدسة، واتمنى ان اتمثل تلك الحالات والابتهالات، بل اتمنى ان يطالع الحجاج والمعتمرون رحلة آل أحمد، لينفتحوا على ماتختزنه المناسك من منابع للإلهام الروحي والتربوي، وليغدو الحج مناسبة استثنائية لاعادة بناء الشخصية المسلمة، واعدادها اخلاقيا ومعنويا، لتجسيد رسالة الاسلام في الحياة، وبالتالي تجسيد التسامح، وقبول الآخر، والأمن والسلام.

لقد كان الدكتور علي شريعتي شديد الاعجاب برحلة جلال هذه، وكان يأمل ان يرافقه مرة أخرى إلى الحج سنة ١٩٦٩، لكن آل أحمد التحق بالرفيق الاعلى قبل ان تتحقق أُمنية صديقه شريعتي، وعندما ذهب الأخير للحج في ذلك العام، كان يقول: «ان اطياف آل أحمد مالبثت ترافقني في كل مكان كنا نؤدي المناسك معا، لكن لا أدري لماذا وجدته في السعي اكثر حضورا من أي مكان

آخر. ان اشعة حضوره ظلت ساطعة. كنت أسمع صوت أقدامه، كان يهرول مسرعا. كنت اتحسس زفير انفاسه كزفير انفاس عاشق. كنت أهرول مع جموع الناس، غير اني كنت اعانقه حيثما اذهب. ما انفك يهرول معي. أراه كالصخرة المتدحرجة من جبل الصفا. هكذا اندمج مع البشر، كنت اسمعه وأراه كالحلاج، حينما كان يضرب رأسه بعمود الاسمنت، وهو يصرخ بالناس: انما اضربه لصلابته وعصيانه. لماذا رأيته في السعي اكثر من أي مشعر آخر؟ لأنه تفاعل في حجه بالسعي أشد من أي منسك سواه. هكذا قرأته في رحلته الى الحج. أظن ان عمره يشبه السعي. كان كالعطشان الذي يلهث وراء الماء لاسماعيل الظامئ في الصحراء. كان عدوه في الصحراء بمثابة السعي...».[١]

كتب آل أحمد يوم السبت الموافق ١٩٦٤/٤/١٨، في يومياته، وصفا للسعي بين الصفا والمروة، وهو يؤدي هذا النسك، قائلاً: ان «ذوبان الفرد في الجماعة، أتراه أقصى غايات هذا التجمع الغفير، وهذه الرحلة؟ عشرة آلاف انسان، وربما عشرون ألفاً يمارسون شعيرة واحدة، في آن واحد. هل يمكنك ان تفكر بنفسك وسط هذا الانعتاق الجماعي الهائل، فتعمل شيئا بمفردك؟ التيار يجتاحك ويأخذك أخذا وبيلا، هل حدث ان كنت وسط جماعة من الناس مذعورة، وهي تهرب من شيء ما؟ ضع كلمة «منعتقة» مكان كلمة «مذعورة» في الجملة السابقة، وضع «حائرة» بدل «تهرب»، أو ضع مكانها كلمة «لائذ». انت مسلوب الارادة مئة بالمئة، وسط هذا البحر العاصف من البشر. تنسلخ كلمة «الفرد» هناك عن كل معانيها ومدلولاتها، ولايبقى فارق بين الألفين والعشرة آلاف... ووجدتني لا استطيع المواصلة. أجهشت بالبكاء، وهربت. وعنّ لي ان البسطامي أخطأ؟ فاحشا،

---

(١) على شريعتي. مجموعة الآثار. ج٦:ص٨٦-٨٧.

اذ لم يلق نفسه تحت أرجل هؤلاء السعاة، أو على الأقل من أن يلقي أنانيته تحت اقدامهم. حتى الطواف، لايثير مثل هذه المشاعر، والهياج الروحي».[1]

ثم يقارن جلال بين تجليات الروح حالة السعي والطواف، وما يمكن ان يستلهمه الانسان من ممارسة كل واحدة من هاتين الشعيرتين، فيكتب: «في الطواف حول البيت تسير مع الناس بأكتاف متلاصقة باتجاه ما، تدور معهم حول شيء معين، أي ان ثمة هدفا فيه ونظاما. وانت نقطة في دائرة عظيمة تجول حول مركزها، فأنت اذن متصل بمنظومة معينة، ولست منعتقا متروكا لحالك، والأهم من ذلك انك لاتواجه احدا هناك. تلاصق عواتق الآخرين، ولاتنظر في وجوههم، فلا تبصر الانعتاق والهيام إلاّ في التدافع والتلاحم، أو تسمعه مما تلهج به الألسنة. لكنك في السعي تذهب وتجيء، حائرا كحيرة هاجر، ليس ثمة هدف او وجهة... الحاج عند السعي يختزل الى قدمين، وعينين، ذاهلة، ساهمة، تهرب من نفسها، وتهيم هنا وهناك. العيون يومئذ ليست عيونا، إنها ضمائر عارية، أو هي ضمائر جلست على اعتاب العيون، تنظر أوامر الفرار، وهل يتسنى النظر في هذه العيون لأكثر من ثانية؟! كنت أظن ـ الى اليوم ـ انه لا يمكن التحديق في الشمس فقط، لكنني اكتشفت الآن تعذر ذلك مع بحر العيون الساعية ايضا، ولذت بالفرار. بعد شوطين فقط من الذهاب والاياب، يتجلى لك بكل وضوح أية لانهاية صنعتها من هذا الصفر، وذلك حينما تكون متفائلا، وقد شرعت لتوك، وإلا سترى نفسك أقل حتى من الصفر، حيال هذه اللانهاية، كقشة في البحر، بحر من البشر، بل ذرة هباء في الفضاء». ويردف آل أحمد موضحا ما استولى عليه من ذهول، وتوتر، وانفعال، في المسعى، «أقول بصراحة: شعرت كأني

(١) جلال آل أحمد. قشة في الميقات.ص١٥٠.

اقترب من الجنون، لفني شوق عارم أن أرطم رأسي بأول عمود اسمنتي، وافجره. لا اطيق السعي إلاّ اذا كنت مكفوف البصر».[1]

انتخبنا هذا النموذج من كتاب جلال، ليطلع القارئ على اسلوبه في تحليل مناسك الحج، واستجلاء فلسفة هذه العبادة، التي تؤديها أفواج غفيرة من المسلمين كل عام، باختلاف اعراقهم، ولغاتهم، وبلدانهم، لكنهم يتوحدون في اداء المناسك.

ومع ان آل أحمد لم يتوسع في الحديث عن الآثار المعنوية والاخلاقية للحج، غير انه بث مجموعة افكار هامة في سياق حديثه عن الايام التي امضاها في عرفات، والمشعر الحرام، ومنى، كذلك اهتم بوصف حالته، وحالات من صحبهم من الحجاج، والذين التقهم حال أداء المناسك، واطلع على اشواقهم الروحية، ومواجيدهم، وابتهالاتهم.

ولا يبدو آل أحمد متفائلا، بسبب عدم استيعاب الكثير من الحجاج للأبعاد العميقة لهذه التجربة الروحية، ذلك ان الأمية والجهل وقتئذ، لدى أعداد كثيرة من الحجاج، وعدم توفرهم على ثقافة شرعية مناسبة، واستغراقهم في الاطار الشكلي للطقوس، حجبهم عن وعي اهداف المناسك، وادراك مقاصد الحج، واستلهام الآثار التربوية الهامة للمشاعر المشرفة.

اشكالية العنوان

تبرز براعة آل أحمد، وموهبته البيانية، في قدرته الفائقة على ابتكار عناوين فريدة لكتبه، بحيث تغدو هذه العناوين، بعد ذيوع الكتب التي تحملها، في مرحلة لاحقة، وكأنها لافتات فكرية، وايديولوجية، وهو ما نلاحظه بجلاء

---

(١) المصدر السابق.ص ١٥١.

في كتابه «غرب زدگي» «نزعة التغريب» فإنه مابرح هذا العنوان ان تحول إلى مصطلح واسع التداول، في الادبيات المدونة بالفارسية، بعد صدور كتاب جلال.

وكعادته انتخب عنوانا أثيرا ليومياته التي دونها في رحلته الى الحج، فوسمها بـ«خسي در ميقات». و«خس» كما في معاجم اللغة الفارسية تعني: (تبن، أوعلف جاف، أو شوكة، أو نتفة تافهة من الخشب، أو حشائس جافة مضمحلة، وتستخدم مجازا بمعنى حقير، ووضيع). ويقابلها بالانجليزية Small chip of wood.[1]

اما الياء في «خسي» فهي للتنكير، تنكير الاسم واخراجه من كونه معرفة إلى معنى شائع في جنس، كما في «رجل».

وبعد مطالعة الكتاب وجدنا آل أحمد يشير بكلمة «خسي» في عنوان كتابه الى حالة اضمحلال، وتلاشي «الأنا» وذوبانها، حال أداء المناسك، كما صرّح بذلك في مواضع متعددة من مذكراته. فوقع اختيارنا على كلمة «قشة» العربية، وهي كلمة تتضمن المعنى الموازي لكلمة «خسي» الفارسية، مضافا الى انها تتضمن المداليل التي تفصح عنها يوميات جلال.

ولانعلم لو كان المؤلف حيّا هل يوافقنا على هذا العنوان بالعربية، لكننا نحسب ان «قشة في الميقات» عنوان غير مستهلك، لأنه يستخدم للمرة الأولى في تسمية كتاب في أدب الرحلة الى الحج، وربما في عناوين الكتب العربية، ولعل ذلك يرضي آل أحمد، وهو الأديب المعروف بالنفور من العناوين المكرورة المبتذلة.

---

(١) لاحظ مادة «خس» في: دهخدا. لغتنامه. وعميد «فرهنگ». ومعين فرهنگ. ومحمد التونجي. فرهنگ فارسي عربي.

موقع رحلة آل أحمد في ادب الرحلة الى الحج المدون بالفارسية

ان رحلة جلال الى الحج تظل في ذروة الآثار المدونة باللغة الفارسية في هذا الحقل، وهي تتوافر علىالكثير مما يتسم به نص آل أحمد، حسب وصف زوجته الدكتورة سيمين دانشور، من انه نص «مشبوب، دقيق، ثاقب، ناقم، متطرف، عنيف، صريح، حميم، تنزيهي، مثير، مكثف بصورة برقيات». ومقارب لذلك وصف الدكتور علي شريعتي، بأنه نص «حاد، موجز، ساخر، صريح، انساني، عفوي، جريء، عميق، فاضح، متين، جزمي، أُحادي، تقريري»[1]

وهي خصائص ربما تبدو متنافرة، لكن نجد معظمها في كتاب «قشة في الميقات». ولذلك فان عباراته التي صاغها على شكل برقيات، وجملاته الموجزة المكثفة، قد تبدو مفككة، عند نقلها إلى اللغة العربية، لكن حرصت الترجمة على اشباعها بأدوات الربط ، ليظهر النص منسجماً متماسكاً.

ومن الآثار الهامة في ادب الرحلة الى الحج باللغة الفارسية كتاب «موعد مع ابراهيم» للدكتور علي شريعتي، وهو كتاب يقع في ستمائة صفحة، ويضم ما كتبه شريعتي في سفرته الأولى الى الحج ، سنة ١٩٧٠، وسفرته الثانية والأخيرة، سنة ١٩٧١. القسم الأول يتضمن محاضراته في الرحلة الأولى، وهو عبارة عن أربع محاضرات متوالية ألقاها في حسينية الارشاد في طهران بعد عودته من الحج تحت عنوان (موعد مع ابراهيم).

اما الرحلة الثانية فهي تتألف من إحدى عشرة محاضرة ألقاها شريعتي في المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والمشاعر المشرفة، وهي تتمحور حول: (المدينة المنورة كمحطة للهجرة، والحضارة كنتيجة منطقية للهجرة، ورؤية

---

(١) حسن ذو الفقاري وصاحباه. اللغة والآداب الفارسية. طهران: نشر جشمه، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٦.

تحليلية لفلسفة مناسك الحج، ودراسة في السيرة النبوية من الولادة إلى البعثة...وغير ذلك).

كذلك القى المهندس مهدي بازرگان محاضرة، في عيد الأضحى، سنة ١٩٥٩، بعنوان «بيت الناس». تكلم فيها عن الآثار الاجتماعية للحج، ودور المناسك في توطيد أواصر الوحدة بين المسلمين، وبناء اسس الامن والسلام. وهي افكار استلهمها من الآيات القرآنية الكريمة، في ضوء رحلته الى الحج قبل هذا التاريخ بثماني سنوات، أي في عام ١٩٥١.

هذه اهم الكتابات الحديثة المدونة بالفارسية في أدب الرحلة الى الحج، وتظل رحلة آل أحمد متميزة، لأنها الوحيدة التي تتكون من يوميات، سجل فيها مؤلفها مشاهداته، وانطباعاته، وهواجسه، وتطلعاته، وآماله، وانفعالاته، وهو يتنقل بين البقاع المقدسة، ويتعاطى مع رفاق السفر، ومع مختلف الناس القادمين من شتى المواطن الى الحج.

يشكر محرر سلسلة كتاب قضايا اسلامية معاصرة الأخ الاستاذ حيدر نجف مترجم هذا الكتاب على جهوده في نقله الى العربية ببيان أدبي حافظ على شفافية نصوص المؤلف.

كما يشكر الأخ المهندس عامر الحلفي على ما يبذله من متاعب في تنضيد حروف كتب السلسلة والمجلة واخراجهما الفني.

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب.

عبدالجبار الرفاعي

وعنه «رضي الله عنه» انه قال: قصدت مكة ذات مرة. ولم ار هناك الا البيت. فخالجني أن حجي غير مقبول، لأني شاهدت الكثير من هذه الاحجار. حججت مرة اخرى فرأيت البيت وربّ البيت. مع ذلك قلت اني لم ابلغ حقيقة التوحيد بعد. وقصدت الديار تارةٍ ثالثة. رأيت رب البيت ولم أر البيت. وكأن احداً ينادي؛ يا ابا يزيد إذا رأيت العالم كله ولم تر نفسك، فلست بمشرك. وإن رأيت نفسك كنت مشركا حتى لو لم تر من العالم شيئا. عندها انبت الى الله وتبت... من رؤية نفسي.

علي بن عثمان الهجويري
«كشف المحجوب» ص ١٣٤

الجمعة ١٠ نيسان ١٩٦٤

جدّة

طرنا في الخامسة والنصف صباحاً.. من مطار «مهرآباد».. وكنا هناك في الثامنة والنصف.. السابعة والنصف بالوقت المحلي.. والضيافة في الطائرة. الافطار خبز وقطعة دجاج وبيضة في علبة عليها علامة شركة الطيران بلا شاي أو قهوة. لكن الحجاج «أو الحجاج لاحقا» ظلوا في شك من امرهم مريب؛ هل بامكانهم ان يأكلوا أم لا؟ هل كان الذبح شرعيا أم لا؟ ولا ادري ما الذي بدد شكوكهم. ربما كان رئيس قافلتنا الذي شارك مضيفي الطائرة توزيع الطعام وكأن التكاليف فرت من جيبه. وبعد الطعام برتقالة، بمساهمة الرئيس ايضا. بعدها طلب أحد المسافرين ماء. فجاءته المضيفة اللبنانية الشابة بالماء. وسمعت زميلها الشاب يقول لها «Commence pas sitôt»[1] هكذا بالفرنسية تماما مما دعاني للضحك. وشاهدوا ضحكتي. فتكلموا بالارمنية بعد ذلك. عرب ارمنيون لبنانيون يضيفون في طائرة تقل الحجاج من طهران الى جدة! ثمن من انت وما تكون؟ أتذكر اني صلّيت الفجر في جناح الحجاج بمطار طهران. لا ادري بعد كم سنة من ترك

---

(١) أي «لا تبدأي الآن».

الصلاة. ربما بعد ان تركتها في الصف الاول من الجامعة. يا له من زمان! كنت اتوضأ واصلي. واحيانا صلاة الليل. وفي اخريات ايامي، لم اكن اسجد على «تربة»، فكانت هذه مقدمة تكفيري. لم أعد مندفعا للصلاة. أشعر اني أرائي. أي اني لا اؤديها كما ينبغي. وحتى لو لم تكن رياء، فهي خلو من الايمان. لمجرد الذوبان في الجموع... أفتسافر الى الحج ولا تصلي؟

كان المقرر أن نطير أمس صباحا، ولكن تعذر الأمر. تحركنا في الرابعة صباحا الى المطار، وعدنا في السابعة ملومين مدحورين. في حين كان جناح الحجاج غاصا بالبشر. الاطفال نيام كأنهم وسائد بعضها ممدود، وبعضها منكمش. وفي جانب، وقفت جماعة من الاكراد يعتمرون «الجراويات»[1] واكفهم على صدورهم يصلّون. وإمامم ذو جراوية بيضاء. واحدهم في الصف طويل القامة كأنه الملك بجانب الجنود في رقعة الشطرنج. والامام بجراويته البيضاء لا يعادل نصف قامة جندي. هذا هو الحج الاكبر بعجائبه. وما احسن ما صنعنا! إذ نمنا أمس بعد الظهر، وفي المساء الباكر ايضا. وفي الثانية من بعد منتصف الليل أو يزيد ايقظنا جرس الهاتف. عجّل حتى لا يفوتك القطار.. عفواً، الطائرة! والوداعيات، والقبلات، وافراح المشيعين! يظنون أن الحمل الضائع (أو ربما الضال) عاد الى القطيع. واثنان من الاصدقاء بضحكات خبيثة على الشفاه. مغزاها «أية حيلة هذه من هذا الرجل...» وهم لا يدرون ان ليس في الأمر حيلة ولا قطيع. انما هو مهرب آخر. وذلك الحمل الوديع هو الآن نعجة مجذومة تترك الآخرين لكيلا تعديهم.

انتظرنا الطائرة في جناح الحجاج. المفتشون الشباب يرمقوننا بمزيد من

---

(١) الجراوية: عمامة الرأس.

الاعجاب والامتهان. يرمقون الجميع، وانا خصوصا (ربما توهمت ذلك، لأني كنت دخيلا على هؤلاء القوم) ولابد أن الذي جال في قلوبهم عنا أن «يا لهم من حمقى». ومن هم؟! خيرة مستهلكي شفرات الحلاقة، وربطات العنق، ومعجون الاسنان! أما الحجاج فهم: قرويون، وكسبة سوق، وعجائز، ومتحجرون، وعدد قليل جدا من امثالي. ويا للعجب! يتركون كل شفرات الحلاقة هذه، وانواع الاصباغ والألوان، ليسافروا الى كشف روحي. كل واحد منهم على شاكلة. واحد لاكتشاف السفر، وآخر لاكتشاف الكعبة، وآخر لاكتشاف الكشف. أحد الكسبة اخرج بوصلة القبلة وراح يكتشف القبلة عند صنبور مياه الوضوء. اول تجارب السفر! كأننا تائهون في صحاري افريقيا. (ارتفع الآن أذان العصر من مكبرات مسجد بجوار «مدينة الحاج»، الساعة الخامسة الا ثلثا) ولا أحد يدري أن في جانب من مطار مهرآباد [1] بنو قسما خاصا للحجاج، فيه مسجد، وبالامكان معرفة القبلة من محرابه. ثم ماذا يعني «جناح الحجاج» هذا يعني فصل مرعى الحملان عن مرعى النعاج. فالذي يقصد باريس أو لندن أو نيويورك يجب ان لا تقع عينه على حجاج بؤساء، يحمل كل واحد منهم ابريقا بيده، وصندوقا على كتفه، وكيس خبز يابس، ولبن، وباقي التوافه.. لابد من فرق بين الصنفين! ذلك السيد أو السيدة المتزوقة، ممن يقصدون العالم المتحضر، لابد أن يصانوا طبعا من رؤية جهلاء، لبّوا دعوة البداوة.

حلقت بنا الطائرة فوق الغيوم لمدة من الزمن، فكأن وسائد قطنية تحت ارجلنا. وحفرا عجيبة احيانا. ثم انقشعت السحب أو انقشعنا عنها لندخل في الغبار، كل ما تحت اقدامنا احمر احمر. ثم كنا فوق صحراء تطل فيها الجبال

---

(١)مطار طهران الدولي.

برؤوسها من بساط الرمال الممدودة. كأنها جزر ناتئة وسط البحار. وفي اماكن اخرى هوّات بلون بُنّي فاقع، وتصدعات الارض بعد المطر. ومرتفعات حجرية سوداء. لا اثر للعمران البته... انها الرمال.. والرمال.. والرمال.. الى ان تعبت.

كان بجواري رجل متوسط العمر، شديد السمرة، يبدو منطويا على هواجسه، وربما خائفا بعض الشيء. هذه اول مرة يسافر فيها بالطائرة. يصرخ حين يتكلم. ساعدته في نصب مائدته الصغيرة امامه، ووضع الطعام عليها. فقال «نعم، شكرا، كنت اعرف هذا».. ثم دردشة قصيرة.. ضابط شرطة متقاعد. في درجة رائد. اولاده متزوجون، ويعيش وحده مع زوجته. والآن، يقصد حضرة الخالق لاداء الواجب. لكنه خائف. «يقولون ان عرفات عصيبة!» اخبرته انني ايضا اقصد الحج للمرة الاولى. بعدها وقف نوّاحنا، وبيده مكبرة صوت تعمل بالبطاريات، وراح يرتل:

«تعال يا صاح وانظر زينب المضطرة..

تلطم رأسها والصدر... والخ»

تألفت مجموعتنا من ٨٥ نفرا. عشرون او ثلاثون من الكسبة. وخمسة عشر من اهالي مازندران، خمسة او ستة من المعممين والنوّاحين والمداحين. وعشرة قرويين من ضواحي اراك وهمدان، لا يتكلمون الا التركية. وعشرون امرأة. ومن عائلتنا: شقيقتي وزوجها «جواد» وهو لي بمثابة الاخ. وزوج شقيقتي الثانية «محدث» الذي تعد صحبته في مثل هذه الاسفار غنيمة. وخال والدي. لقد كنا مجموعة داخل المجموعة. رئيس قافلتنا كان من اهالي المحلة. أحد مريدي والدي. انا الذي اقنعت الآخرين بالسفر معه. كان صانع سقوف في السابق. نويتها ردّ جميل لاحد انصار والدي ومحبيه. وعمال السفرة، هو نفسه، وابنه، وطباخ، ومساعده. وهكذا لا اظن ان شيئا سينقصنا.

نفس اليوم مساء، المكان نفسه

إذا اردت أن اجهد نفسي كل يوم على هذا المنوال، فلن استطيع المقاومة. علي أن احترز. خصوصا مع هذا الماء الذي نشربه. جلبت معي علبة اقراص ملحية. لكني لم اتناول منها ولا حبة. فأنا لم أهرب الا من هذه الأمور. أما الماء فشربت منه منذالصباح الى الآن ما يزيد على عشرة ليترات.. ينبغي ان اكون منظما.

حينما نزلنا من الطائرة صباحا، توجهنا مباشرة الى هذه البناية «مدينة الحاج» المجاورة للمطار. بناية ضخمة غير منتظمة من ثلاثة أو اربعة طوابق. مصابيحها متوهجة، وشبابيكها تنفتح على كل الجهات، والتهوية فيها جيدة. تشرب الماء وتتعرق، وتهب الى الغرفة رياح كأنك في اعلى مرتفعات توجال.[1] بمجرد ان وصلنا في الصباح، دسست ثياب طهران في الحقيبة، واشتريت «دشداشة» بثمانية ريالات سعودية. (الريال ثمانية عشر قراناً ايرانيا» ونعلين مطاطيين من صناعة جاوة (اندونيسيا) بريالين. وما اطرف القميص! كأنه قالب سكّر! ومع ذلك خرقت جانبي اذياله بالسكين، ليمكن القعود به والقيام. لكن اعلاه ضيق الى درجة تشعر معها انك تعانق شخصا على الدوام!!

يجب ان اكون منظما. كنت اتحدث عن «مدينة الحاج». اربعة طوابق بالضبط. ونحن في الطابق الثالث. كل ضلع من كل طابق (لكل طابق ستة أو سبعة اضلاع. مضلع غير منتظم) لجماعة من القافلة. يستريحون فيه بعض الوقت ليحين اوان انطلاقهم من جدة الى المدينة أو مكة، تبعا لتبكيرهم في المجيء أو تأخيرهم. يقال حدث أن تأخر الحجاج هنا ثلاثة ايام احيانا. ولكن اظن اننا

---

(١) منطقة جبلية باردة شمال طهران.

سنسير هذه الليلة. وانا اقتل الوقت بهذا الدفتر في انتظار المسير.

نظافة البناية كارثة بكل معنى الكلمة. مجاري كل المراحيض مسدودة (فحصت عشرة منها) والمغاسل بلا ماء، وكذلك انابيب الحمام. حينما وصلنا صباحا كان فيها ماء. لكن الماء نفد بعد الظهر. فكان هجوم الناس. والقذارات وقشور الفاكهة موزعة في كل مكان. وفي كل زاوية طباخ نفطي. «سماور» أو مشعل طبخ، أو مطبخ بكل مستلزماته. والكل على الطارمة المحيطة بالبناية. الرصيف الخارجي هو في الوقت ذاته ايوان البناية. وعلب الببسي والكوكا ونفايات المسافرين في كل مكان. والماء يجري على الارض في كل بقعة. وشكوك دائمة هل هذا ماء أم مياه آسنة لم تتسع لها المجاري. وهذه الدولة العلية يبدو أنها منهمكة بمعالف النفط. حتى لو مات كل هؤلاء الحجاج من المرض، فالمهم سلامة آبار النفط. اتذكر اني اضطجعت قليلا وقت العصر، وعندها جاء شابان اشقران اجنبيان بسراويل قصيرة يتفرجان. نوع من الكشف. برفقة اثنين من الكشافة السعوديين على لباسهما نياشين ورتب وقلائد وما الى ذلك من خزعبلات. سألت الكشافين السعوديين بعربية عاثرة؛ هل هؤلاء مسلمون حتى اذنتم لهم بالدخول هنا؟ إما انهما لم يفهما ما قلت أو لم يرغبا في الرد. لكن كلمة «مسلم» يستطيع سماعها كل اصم ابكم. على كل حال، كان الوقت ضيقا، وغادروا بسرعة. ألقوا نظرة خاطفة على كل غرفة واسرعوا بالذهاب. في كل غرفة يتقلب خمسون حاجا على الاقل. وما من مكان للضيوف.

في الصباح، حينما جئنا من الطائرة الى مدينة الحاج (واستغرقت هذه الخمسون خطوة ساعتين من الوقت) خرجت من فوري الى الشارع، واستأجرت اول سيارة تاكسي رأيتها (شوفرليت حديثة) واتفقت معه على ١٥ ريالا سعوديا مقابل ان يتجول بي في المدينة. تجول بي السائق واضطر أن يكون دليلي. شاب لا يعرف غير العربية. واستطعت مع ذلك أن انتزع منه الاسعار. الليتر الواحد من

البنزين باربعة قرانات ايرانية (كل عبوة ذات ١٨ ليترا باربعة ريالات سعودية) اجرة التاكسي ريالان، الباص اربعة قروش، وهكذا. ثم معلومات طازجة: سكان جدة ٢٥٠ الى ٣٠٠ ألف نسمة. السعودية كلها ٧ ـ ٨ ملايين نسمة.[١] في كل المملكة هناك ثلاث صحف فقط «البلاد» و«الندوة» وصحيفة اسبوعية اسمها «ام القرى». وكلها صحف حكومية. العرب الشرقيون يشربون القهوة اعتزازا بشرفهم الارستقراطي «البدوي». والغربيون (أي الحجازيون) يشربون الشاي.. ومررنا بجوار قبر حواء. جدار سميك طويل الامتداد قصير القامة. وفي جانب منه باب ضيقة واطئة اكل الدهر عليها وشرب. اسوأ من أنأى اضرحة الاولياء الايرانية، في ابرقو مثلا. وهذه أم البشرية! ثم مررنا بجوار وزارة الخارجية، ويا لها من فخامة! ثم على سوق البدو الذي ما كان ضجيجه قد سكت بعد. ثم بجوار «قصر الملك المعظم» بجدرانه الشامخة وبوابة يحرسها جنود ملثمون ببنادق على اكتافهم. ثم مررنا على جدار قصير جدا يحيط مساحة واسعة «المصلى» يصلون فيها الجمعة. وصلنا متأخرين للأسف. ارضه مملوءة بمساند تشبه المنابر اعدت بلاشك للخطباء أو المكبرين. مساحته بحجم ساحة «توب خانه»[٢]. ومدينة قديمة تخلع جلدها وتتحدث. ومد شوارع جديدة كما في يزد وطهران وكرمان. والتراب والحصى وادوات البناء والوحل والطين. تبللت بعض البقع في الشوارع بسواد النفط تلقائيا. ثم سرنا الى البحر حيث تملأ رائحة الملح كل مكان. والسفن الراسية. ثم مدينة الحاج البحرية (والتي نسكنها مدينة الحاج الجوية) وسفينة

---

(١) في حين انها لا تتجاوز الاربعة ملايين في اعلى التقديرات. مما يضطرني الى الشك في غيرها من افادات هذا الدليل غير المأجور. من حقه هو ايضا كمواطن شريف ان يتبجح امام زائر غريب بمفاخر قومه، كانت ام لم تكن.

(٢) الساحة المركزية في طهران مساحتها قرابة ٣٠٠٠ متر مربع.

هندية راسية ينزل منها الحجاج.. باقل ما يمكن من المتاع. شال على الاكتاف، ووزرة على الخصر، ووعاء ماء في اليد لشرب الماء أو الشاي أو التطهير. الايرانيون يستعملون الاباريق. والاتراك انبوبا فلزيا طويلا يشبه مصابيح قديمة. واللبنانيون والسوريون لهم اباريقهم المطاطية ـ اصغر من اباريقنا ـ والهنود والافارقة اوعية فلزية صغيرة (كتلي). وكل واحدة من هذه علامة وطنية راسخة لا تحمل على الاعلام، بل في ايدي ابناء الشعب. ولها استعمالاتها وفوائدها!

كأن حجاج قافلتنا يكرهون الراحة. لم يفتأوا من الصباح الى الآن يفتحون امتعتهم ويشدونها. ربما يردون بهذا على بطالة الحضر. وفي هذا تتحمل نساؤهم العبء الاكبر. وبكل دقة. كل الحقائب مغلفة الظاهر. مصنوعة من الجنفاص والتربولين وبحمائل واقفال وحبال تطوقها. ثم يلفّون كل حقيبة بسجادة و«لا، ليس بهذه الصورة، يبدو أن الشدة غير متقنة». وهذا يعني البدء من الصفر. ليست القضية لهوا أو لعبا. انه سفر الحج والبادية! وهؤلاء جاء كل واحد منهم بالأمس من جنب بقراته وسياقاته أو من خلف درج نقوده في السوق. أو من خلف طاولة الدائرة. أيا كان، فهم يجربون شيئا جديدا. إذا كانت الطائرة تنقلك في ظرف ثلاث ساعات من طهران الى جدة، ولا تتيح لك فرصة الركوب سنة كاملة على البغال والجمال من مزلقان الى سولقان لتصل الى هنا، فانك ستفتح الامتعة في جدة وتشدها بمقدار ما يستلزم السفر على البغال والجمال. والطريف هم هؤلاء الاتراك الاراكيون. احدهم لم يخلع سترته الجلدية لحد الآن (في هذا الحر القائظ اوائل الليل.. أي في ذروة الرياح الشرجية!) ومع ذلك ذهب عصرا واشترى دشداشة لبسها على السترة. كتفاه محصورتان تحت الثياب بشدة. ومع انه لا يفهم الفارسية الا لماما، مازحته عصر اليوم وقلت له حاذر ان تصاب بالزكام. وقال رجل من اصفهان «يا حاج.. لقد خاط فلوسه داخل المعطف» نتدرب من الآن على مخاطبة بعضنا «يا حاج». والاغرب امواله التي ذهب الى

السوق لتصريفها.. في باحة بنايتنا «مدينة الحاج». ورأيته يسأل اربعة اشخاص الى الآن عن فارق عملتنا عن الريال السعودي. مخافة أن ينصب أحد عليه. يصيح باعلى صوته انه لم يذهب الى الآن حتى لزيارة قم. والآن؟ اعطى في سوق جدة تومانات، واخذ ريالات. والصرافون يتكلمون الفارسية، والتركية، والاردية، والاندونيسية.. بمقدار ما يحتاجونه في التعامل.

الهواء شرجي للغاية (مشبع بالرطوبة). والاجساد مغسولة دوما. وربما كان وجع العظام بانتظارنا الليلة. إن كان بوسعنا ان ننام بهذه الارجل العارية، والرقاب والاكتاف المهتوكة. أيا كان يجب ترويض النفس استعدادا لايام الاحرام. ومروحات الغرف هذه تعمل ليل نهار. وإن لم تعمل؟ عند الغروب فما بعد هبت رياح وفتحنا مع ذلك المروحات. يقال اننا سنسير هذه الليلة.

مررت عصرا على الطوابق والاضلاع الاخرى. كثرت اعلام الامم على ناصية اضواء المصباح حول البناية. وعلى كل واحد منها اسم ورسم رئيس من رؤساء المجاميع. التركي والفارسي والعراقي والسوري والمغربي. الشرطة تتجول دوما على الارصفة اطراف البناية. كلهم شباب. بلباس خاكي، وقبعات، ومسدسات في الاحزمة، وهراوات في الايدي. يتفرجون. امرأة تحمل على كتفها حقيبة صغيرة اقفلت بابها بقفل رمزي، وقفت جانبا تصلي بايدي شدتها على صدرها. بلا قنوت، ولا قصر. ومن تحت ارجلها يجري خيط رفيع من الماء. من تلك المياه المجهولة الهوية. والطريف وجهها الذي تشق ثلاثة شقوق متوازية مائلة. ثلاثة اخاديد على كل خد.

رأيت العديد مثلها من الصباح الى الآن. الشقوق على خد كل واحدة بشكل معين. بعضها علامات جمع وبعضها علامات ضرب، وبعضها خط عمودي، وبعضها خطان افقيان، ... وهكذا. وما اشد ما تألمت لاحداهن! كانت في العشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها. في غاية الجمال وبدينة بعض

الشيء. ملامح وجهها ليست زنجية. وعلى كل واحد من خديها اخدودان عموديان. ولون اللحم في قعر الاخاديد افتح من قير الجلد البراق. جلست في زاوية تبيع بعض اطوال الاقمشة الافريقية. دردشت معها. بالفرنسية. كانت من الكاميرون. وطلبت أن اشتري شيئا. لكنها كانت اجمل بكثير من اقمشتها. ولم يكن هذا شيئا تبيعه هي أو اشتريه انا.

ومررت بمركز الصحة في قافلتنا. في الطابق الثاني من مدينة الحاج. في غرفة كبيرة ونظيفة ومرتبة. بصيدلية جيدة منظمة. وفيها موظفان. نظموا الخفارات من اول الاسبوع. مجموع العاملين في الهيئة الصحية الايرانية ٧٢ شخصا. اثنان وعشرون منهم اطباء، وفيهم طبيبات. سجلوا الى ذلك الوقت من النهار ٤٤٩ مراجعة. والامراض: داء الطائرات، ضربة الشمس، الاسهال (بسبب اكل اللبن الحامض على حد قول الطبيب) ومن هؤلاء ثلاثون نيجيريا، وثلاثة افغانيين، وعدة سودانيين، واتراك، ويمنيين، وواحد مصري. باب المركز الصحي مفتوح للجميع. بعض اعضاء الهيئة الصحية في المدينة الآن، وبعضهم في مكة. والكل في مكة يوم عيد الاضحى. ادلى الطبيب بهذه المعلومات وهو يمارس مهامه.

وهؤلاء الصرافون لا يخلون من طرافة. عندما اردت التصريف صباحا، ذهبت الى البنك. في الطابق الارضي من مدينة الحاج التي نحن فيها. كان مفتوحا رغم أن اليوم جمعة. لكن الموظف لم يصرف نقودي. وقال «اذهب للصرافين». وهم في الباحة قرابة العشرين رجلا. جلس كل واحد منهم على سجادة في زاوية ومعه صندوق صغيرة مفتوح بابها. وداخل جفنة برونزية بعض نقود سعودية، وعلى قطعة ورق مقوا عملات مختلف الدول. صورة نابليون ورأس اتاتورك وتمثال اليزابيث وغيرهم من العظماء. السعر واحد في كل مكان. والجماعات جالسون من الآن في كل مكان من الباحة يتعاملون ويتساومون. بيع وشراء. ودكاكين الاطراف ملأى بمصابيح البطاريات اليابانية والبطانيات

الايطالـية، واوعـية الشـاي المريخـية، والبسـط والسـجاد والزمزمـيات والـنعال والمظـلات المظـلات المظـلات. والزنجيات ديكولتيات الـى حدمـا. والتر كيات يلبسـن الابـيض ولـيس سـوى الأبـيض. بوجـوه مفـتوحة. وثـلاث أو اربـع نسـاء سوريات، سافرات. والويل من هؤلاء الاندونيسيين لا يتخلون عن قبعة رئيس جمهوريتهم حتى هنا.

السبت ١١ نيسان ١٩٦٤

المدينة

دخلناها في الثامنة والنصف صباحا. سلام موظفي البوابة، وازهار الساحة الكبيرة... افضل استقبال ممكن. لاننا كنا في الباص من الحادية عشرة مساء. والاقدام تئن انين الثكالى من طول الجلوس على المقاعد. ولا تزال متورمة. لم يداهمني مثل هذا الوجع من قبل. اظن السبب ان اقدامنا وارجلنا كانت عارية. فلم ارتد تحت هذه الدشداشة سوى سروال قصير. احمد الله اني تعقلت في جدة واشتريت بطانية. والا كنت هلكت من البرد من أول خطوة. وحتى الآن اشعر بوجع شديد بين اكتافي، كأنه القولنج. لم يداهمني السعال بعد. رغم ان معي قطرة Ipesandrine «آه. يا للعجب! تأتي للحج وتفكر بنفسك كل هذا التفكير؟ إن كنت صادقا فانس صيدليتك الجوالة هذه. بل انس نفسك».

ليلة أمس، انتظرنا الباص من الثامنة حتى العاشرة. وجلسنا فيها من العاشرة الى الحادية عشرة بانتظار ان ننطلق. ورحت اخط كلماتي على ضوء مصباح خافت في سقفها، والناس يتجادلون على المقاعد. وسارت بنا أخيرا. اظن ان الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة. وكم غمرتنا الفرحة، وإذا بنا نرى انفسنا مرة اخرى وسط مدينة جدة. لأجل رسوم البوابة والاحصاء (على الاغلب) وامثال هذه الحيل والألاعيب. ثم عدنا وعرجنا بالقرب من مدينة الحاج التي كنا

فيها على الطريق الى المدينة. ومتى كان ذلك؟ في الثانية عشرة والربع تماما. ولم استطع الصبر لاكثر من الساعة الواحدة. تلفعت بالبطانية بقوة وانخرطت في النوم. وفجأة استيقظت في الثالثة. بسبب عطل الباص. ومرة اخرى في الثالثة والنصف. بسبب عطل الباص ايضا. وبقيت مستيقظا الى منطقة «بدر». في الساعة الخامسة. وكان الباص يتوقف كل عشر دقائق. ثم يسير تحت وقع السياط. وفي كل مرة ينزل السائق ويعبث بالمحرّك. ثم يصعد تارة اخرى ويضغط برجله على البنزين كأنه يطرق مسامير في الحائط. باستمرار وفي دفعات متتالية. كان في مجموعتنا بعض السواق. حاولوا مساعدته بالحاح لكنه لم يرضخ. العناد العربي. الكابريتر لا يسحب البنزين. كان يأخذ خرطوما ويمص البنزين بفمه من الخزان ليلقي به في الكابريتر. ويسير خمس دقائق ثم يتوقف من جديد. كان تحفة من التحف، وعلا امتعاض الناس واستنكارهم. ولعنات النسوة وانينهن. وكيل السباب لكل العرب على وجه البسيطة. الى حد اني تدخلت مرة أو مرتين وصرخت بهذا وذاك أن «مالكم تزلزلتم وارتعبتم هكذا...».

السيارات الاخرى التي تمر بنا، تتوقف بعض الوقت للمواساة أو المعاونة. لكن السائق الارعن كان قد ركب رأسه. أما انه غير مسموح له بالاستمداد من الآخرين، أو قد يضيع له بذلك حق. أي ربما اخبر الذي يساعده ان فلانا تعرقل سيره وسط الطريق وتوقفت معه لمساعدته و... الخ. وفي السادسة والنصف تحركنا من «بدر». غسلنا وجوهنا وايدينا وصلينا، واكلنا خبز ذرة امريكي، واحتسينا شايا «براد». والسيارة صلح حالها ولم نتوقف الى ان وصلنا المدينة. لكن خالنا، هذا الشيخ الكبير، طفح به الكيل من عنت سفر لا نصبر له نحن الشباب.

في فترة جلوسنا في الباص بانتظار السير من جدة لاحظت كثرة الحمالين. وفي الاحياء على طول الطريق، استرعى انتباهي كثرة الفقراء الشحاذين. وكلهم

عميان ومشلولون! ولكن، لله جدة وحمّالوها! وكأن العبء الاكبر في مراسم الحج تحمله كواهل هؤلاء. حمالون بلا سروج ظهور ولا احزمة، بل بأيد خالية تماما. ويا لها من حال. حزمة الحبال الواصلة توا من المعمل، والتي اعطاهم السائق اياها ليشدوا بها الامتعة، فتحوا عقدتها باسنانهم. وحينما ارادوا تقطيع الحبل وضعوه على الاسفلت وطرقوا عليه بالحجر حتى انقطع. لعشر دقائق بالضبط. لم يكن معهم حتى سكين صغير. والسائق واقف يتفرج عليهم. أما آلة يساعدهم بها على قطع الحبال.. فأبداً. كان ثلاثة أو اربعة من الحمالين يكابدون الحبل بأيد خالية. والحبل غليظ جدا ومصنوع من القنب، ومتخشب بحيث لا ينطوي. ارقى نماذج العلاقة بين الصانع والمستهلك! كلما كانت الآلة ادق واعقد، كان المستهلك ابسط واجهل. صحيح أن نقل ٥٠٠ ألف حاج خلال اقل من شهر ليس بالمهمة اليسيرة، على دولة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة أو ستة اضعاف هذا العدد. ولكن يلاحظ على كل حال، عدم توفير أي مؤسسة للحج. تركوا امر الحج لأكثر شرائح المجتمع بؤسا وبداوة وفقرا، واقلهم تعليما. المؤشر الوحيد لوجود مؤسسات هو أن الباصات كلها من طراز ولون واحد، وتابعة لشركتين «التوفيق» وشركة اخرى. ولابد أن صاحب الاسهم في كلتيهما هو الملك المعظم. المسافة بين جدة والمدينة اكثر من ٤٠٠ كيلومتر. ولا يوجد في الطريق حتى خطوط هاتف. مدوا قنوات على جانبي الطريق، وعمّروا كوابح السيول توا. لكن طريق الاسفلت ضيق الى درجة أن الباصين إذا تسابقا عليه، فلابد ان يحيد أحدهما الى التراب. ولمّا كان مقعدي فوق العجلة، فقد كنت اشعر كيف يمرون بجوار بعضهم. الانتظار ثلاث ساعات أو اربع لكل شيء، ظاهرة جد عادية. الحجاج موزعون في كل مكان. في مجاميع تتألف من عشرين الى خمسين شخصا. كان هذا في جدة. ومن حسن حظنا أن رئيس قافلتنا كان من ذوي الخبرة، وقال انه اعطى رشاوي (واغرقنا بالمنة) لنسير قبل موعد مسيرنا

باربعة عشر دورا... دعنا من هذا.

في «رابغ» حيث نزلنا، سأل أحد المازندرانيين «محدث»:

- هنا هنا بلاد العرب؟

اجابه محدث: نعم. فقال الرجل «هكذا اذن!» وراح يحدق في السماء بحثا عن توثيق لهذه القضية، يستمده من ارتفاعها الشاهق. والنجوم تتلألأ ساطعة. لكن رائد الشرطة المتقاعد متهالك يمسك كأس الشاي الصغير بيده، وقد اذهلته كلاب سوداء صغيرة تلاحق كلبة بين التراب والحصى. كأنها القطيع. وقد تصاعد عويل واحد منها. كان شديد الحمرة. في ذلك الوقت من الليل! و«رابغ» هذه منتصف الطريق. لكنها بلا كهرباء. أو ربما كان تيار الكهرباء مقطوعا آنذاك. والمصابيح «زنبورية» قديمة بوسوسات خاصة. والشاي حلو المذاق ومغلي اكثر من اللازم. منطقة «بدر» هي الأخرى كانت بلا كهرباء. ولكن على بعد فرسخين من المدينة بدأت اعمدة كهرباء الضغط العالي كأنها تمشي في استعراض عسكري.

تجاوزنا وقت الظهيرة الآن. ولكن لا اثر لباقي المسافرين من مجموعتنا. وفيهم شقيقتي وزوجها جواد اللذان كانا في باص آخر. يقول رئيس قافلتنا: المسؤولون السعوديون لا يسمحون بحركة أي باص تحت الشمس من بعد التاسعة صباحا. يجب أن ينتظروا الى غروب الشمس. وهذا خبر آخر عن النظام. لكنه لسلامة الباصات اكثر منه لشيء آخر، حتى لا تنصهر تحت الشمس وتخسر الشركة شيئا.

والبيت الذي سكناه حديث البناء. خارج المدينة. بالقرب من حقول النخيل. في محلة اسمها «درب الجنائز». تستطيع ان ترى من شباكه الشمالي مقبرة البقيع. يأتوننا بالماء بالصهاريج. كل نصف متر مكعب بريال سعودي.

اليوم نفسه، في نفس المكان

كان في سيارتنا سيد شديد السمنة والبياض والحمرة. بلحية من عدة ألوان. أقربها الى الجلد أبيض، واواسطها حمراء، واطرافها سوداء (يبدو أن صبغه لها قد تأخر). في خضم معاناة السفر، راح يسوق رفاق سفره بعصا المواعظ والنهي عن المنكر «لا تأخذوا معكم تربة في المشاهد المشرفة، ولا تتظاهروا بالفرقة، ولا تتمسحوا بالجدران أو تقبلوها و... الخ).

في جدة رأيت كلمة Peugeot «بيجو» مكتوبة على لوحة احد المحلات التجارية «بيجو». في مكان آخر وقعت عيني على لوحة (وزارة الحج والاوقاف). فماذا لو كان هذا المحشر بلا وزارة؟! والاحياء والشوارع هنا مرتع اوسع جدا لاستهلاك المصابيح.

عندما كنا قادمين في الليل، كانت تبدو مقاهي الطريق من بعيد كأنها مصافي النفط. من كثرة ما نصبوا عليها من مصابيح الفلورسنت (يبدو أن الكهرباء انقطعت بعد الثانية عشرة. عليّ التدقيق في هذه المسألة عند العودة) وكذا في مدينة الحاج بجدة والمطار. وهنا ايضا تلاحظ احيانا اعلانات جدارية تقول «اشربوا قدح ماء كبير كل ساعة، واستعملوا المظلات» وقد شربت من الماء الكثير لحد الآن حتى بدون هذا الاعلان. لكنني لا اطيق المتاع الفائض. تكفيني حقيبتي هذه المعلقة على كتفي، والتي اضع فيها سجائري،، وبعض النقود، ودفتري. وعليّ أن اشتري قلنسوة، لكن رفيق سفرنا الاراكي، الذي يرتدي الجلد، اشترى واحدة منها ذات كركوشة، اعني المظلات. ولها وجهان باطنها اخضر وظاهرها اسود. وقد شدّها اليه باعتزاز، كأنها عصا موسى. وانا اشتريت في الصباح بالقرب من «باب جبرئيل» شيئا تربولينياً يشبه القربة اخزن فيه الماء. يعيد الانسان الى البداوة. ثم ان معدتي لا تستسيغ الماء المثلج. في هذه الاثناء جاء بائع قهوة جوال. بقهوة مغلية في يديه. وسلطة على كاهله ملأى بادوات الكسب

الحلال. شربت منه فنجاني قهوة. سائغة جدا، ومعطرة جدا، وقليلة التركيز جدا، بعطور شعبية. والفنجانان باربعة قروش. وكم ابدى البائع امتنانا وشكرا.. اقرب الى الشحاذة منه الى بيع القهوة. جاء من «غزة» فهو ابن سبيل و... الخ. وللانصاف فإن عرب غزة الذين هربوا من فلسطين لازالوا معضلة اسلامية كبيرة. وكم سنة مضت على تلك الواقعة؟ عشر سنوات. وهؤلاء الناس يعيشون تحت الخيام شحاذين بلا مصير. وغدوا ذريعة للسجال بين مصر واسرائيل. بلا مشاغل، ولا سكن، ولا امكانية عودة الى اسرائيل، ولا ترخيص دخول الى مصر. امس صادفت شخصا آخر منهم وقت الغروب. في المسجد المحاذي لمدينة الحاج بجدة. جلس يستجدي الناس. بلا ذريعة بيع قهوة أو شيء آخر. ولكن بعد «السلام عليكم» تشرذمت صفوف الصلاة بسرعة الى درجة انه لم يجد فرصة للمساءلة. هناك ايضا كانت الصلاة بلا قنوت والايدي مكتفة على الصدور. ولكن في الصف الذي وقفت فيه كان هناك اربعة أو خمسة بايد مسبلة. وحصير المسجد بارد. طويل جدا وبنقوش جميلة. لكل صف حصير. دقيق النسج جدا. ومعظم الحجاج يضعون نعالهم تحت آباطهم ويدخلونها للمسجد. والطريف حينما يجلسون للتشهد. اقدامهم اليمنى تحت المقعد غالبا، بينما يبدأون الركض بها. أي ان باطن الاصابع على الارض، وباطن القدم عمود على الاصابع بادي «المحيا» من الخلف. بكعوب مفطرة، وكأنهم جلسوا لسباق الساحة والميدان. لكن الزنوج أطرف وألطف. يتهالكون اثناء التشهد على الارض، وكأن جلوس «التعقل» العادي محرم عليهم، أو ربما لا يستطيعون الصاق الساق والفخذ على بعضهما. بدا لي اثناء الصلاة أن جلوس التعقل والتربع، عرف آسيوي قديم جدا، شاع في الاسلام وبلاد الهند، وعند البوذيين، وفي اليابان والصين، وباقي اقاليم الشرق. أما الاوروبيون والافارقة فيبدو انهم غرباء عليه. على كل حال، يحتل كل واحد من الزنوج مكان رجلين يجلسان «التعقل» في صف الصلاة.

عندما خرجت من المسجد دلفت الى احد المقاهي. بجوار مدينة الحاج ايضا. بنيّة التمرس في العربية. طلبت احد قناني الكولا، فطرقت شامتي رائحة الكباب الشامي. من الحانوت المجاور، سألت عن اسمه قيل لي «چوگورتمه». طلبت أن يأتوني به. قطع اللحم مكبوسة على بعضها ومطعونة بالسيخ عموديا. امام قضيب لولبي محمر بالكهرباء. ويالها من رائحة! لم أحن الى طعام منذ عدة سنين. وقبل ان يحضر الطعام دردشت مع مجاوري. «البدو» يشدون عقالا احمر، والحضر عقالا ابيض. في موسم الحج يتضاعف سكان جدة. يبدأ اصحاب القطعان والرعاة بتجهيز الاضحية قبل خمسة أشهر أو ستة، ويسوقونها على الاقدام الى «منى»... القسم الاكبر من هذه اللحوم يأتي من افريقيا. لذلك يرتاب فيه الحجاج الايرانيون. مجاوري في المقهى كان شابا بقميص وخمار ناصع البياض بلا عقال. القى الخمار على رأسه كالفوطة. ذكر لي شغله، لكني لم افهم. استحيت أن اعيد السؤال. القضية التي ساقها اهم طبعا من هويته. فرح جدا عندما علم اني اعرف شيئا من الانجليزية. وحان دوره هذه المرة في تمرين اللغة. اقحمته الى السياسة. كان ساخطا على الوضع بشدة. بل ومعارضا للحج. يقول «ان هذا علينا، وسبب في تخلف البلد. لا يترك لنا فرصة عمل آخر. عوّدنا على الارتهان لشيء دون كل الاشياء، و... الخ» وبدا لي وانا اتذوق (الچوگورتمه) أن الداء من الشجرة دائما. وحاولت ان الفت نظره الى نفطهم، والعلاقة بين المواد الخام والمنتوجات المصنعة، وما الى ذلك من ترهات.. لكني وجدت اني سأتأخر .. «مع السلامة» وتركنا جدة بهذه الخاطرة.

ليلة ذلك اليوم

المدينة

اول المساء في مسجد النبي. اتجول بعد صلاة المغرب. الناس حلق حلق يدردشون. او انفار متفرقة يذكرون الرب، ويرتلون القرآن. تبرع رجال اثناء صلاة الجماعة، راحوا يهفون للناس عن الحر. واحدهم لم تكن لديه مهفّة، ففتح خماره وراح يهفي به على الناس. بحركات تشبه الجلد تقريبا. وبعد الصلاة بدأ موزعو ماء السبيل عملهم. كل واحد بكوز وقدح. وأية اقداح. شربت من كل واحد جرعة. ابيض أو اصفر. ومن صنع الهند وباكستان غالبا. حبذا هو من ماء بارد. يكثر الوعاظ تحت رواق المسجد. احدهم باكستاني يحاضر بالاردو، لم افهم منه شيئا. ثلاثة بالعربية، وقفت عند اثنين منهما. احدهما يخطب بجزالة وبلاغة عن مناقب الرسول. و«طه، ما انزلنا عليك القرآن لتشقى...» واستيقاظ عائشة في جنح الليل لترى زوجها هاويا الى السجود، فظنت انه ميت... وانصرفت عنه. والآخر بملامح هندية يتكلم بعربية (فصيحة تقريبا) عمّا يشبه خزعبلات «نزعة التغريب» فتعجبت! كانت القضية شعبية الى درجة أن واعظا يثيرها في المدينة. وربما في كل يوم! وبلهجة حماسية! ثناياه العليا اشرأبت وشفتاه لا تنطبقان.لكنه يتحدث عن الايمان والاسلام وخطره على العالم الغربي إذا ما اتحد ابناؤه. (انقطعت الكهرباء الآن، وواصلت الكتابة على ضوء مصباح بطاريات استعرته من جواد. فراشة تشبه دودة قز مستحيلة، وقفت على المصباح وتحوم الآن على رأسه المضيء. ويا لفروتها! قصيرة منفوشة تتفتت بنفخة واحدة. وجاءت الآن على الدفتر. لألق بها من الشباك وأعُد) الرجل ممن استوعبوا طبيعة العلاقة بين الصانع والمستهلك، وطفق يشرحها للناس. ولكن لا ادري لماذا كسف ذوقي. تذكرت السيد جمال

الدين[1].. ومررت. الناس تطوف حول الضريح وسيول القبل. والشرطة السعودية تمنع وتشتت. ولكن ليس ثمة اهانات وضرب. في طريقي كان احدهم يضع تربته على الارض اذا اراد السجود، وعند القيام كانت التربة في قبضته المسدودة.

توجهت عصرا لمكتب البريد. اخذ الموظف احد عشر قرشا للطابع واثني عشر قرشا للبطاقة (لم ادر الى الآن هل يعادل الريال السعودي عشرين قرشا أم واحداً وعشرين)؟ وارتفع اذان العصر، حينما كنت خارجا لتوي من طابور البريد، وما أن اردت الحركة حتى غصت الشوارع والازقة بالمصلين. في طرفة عين. الكل تلتحق بالصفوف. لكن اصحاب الدكاكين يواصلون شغلهم ومعاملاتهم... وقفت بجوار امرأة، باقدام حافية على الشارع، وحقيبتي الصغيرة معلقة على صدري. كان للمرأة طفلة اجلستها امامها تلعب. وارتدت هي عباءة بيضاء لا يبدو انها عربية. وبعدما قضيت الصلاة (لم يصل أحد قصرا. أي اني لم اشاهد احدا يقصرها) اردت ابتياع خارطة. ومن هذا الحانوت الى ذاك. مررت على خمس مكتبات قرطاسية وكتب الى ان حصلت على خارطة، لمدينة السلام. والله اعلم بتاريخ طباعتها. مرسومة عن خرائط العهد العثماني. عرضها بمقدار كفين. و«نخلة الزهراء» ما تزال مغروسة في زاوية من مسجد النبي. منذ ذلك الحين والى هذا اليوم اعادوا بناء مسجد النبي عدة مرات ووسّعوه. وقطعوا النخلة ومحو الكثير من الاشياء، لكن خارطتنا ما تنفك تشير الى ما كان عليه الحال قبل خمسين عاما أو ستين.

وهذه منطقة «بدر» وسط الطريق. عندما وصلنا المدينة علمت انها بدر التي

---

(١) السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني.

شهدت تلك المعركة وذاك الفتح. حي زاخر بالنخيل والحقول. وعلى الطريق عدة مقاهي. وساحتها الكبيرة مكتظة بدكاكين تبيع زيوت السيارات والبنزين، ويصلحون فيها السيارات. أي ان ساحة «بدر» بكل ما لها من فتوحات في صدر الاسلام، مفتوحة الآن عنوة من قبل جيوش الآلة! كباقي الاحياء والنواحي الواقعة بين مدينتين كبيرتين في أي مكان آخر من العالم. رافعة اثقال صغيرة محلية الصنع (قطع الحديد الصدئة ملتحمة ببعضها على أسوإ نحو) بجوار المقهى وعليها عصفور صغير. راح العصفور يذرّق! بينما تنحدر الشمس الى المغيب. يدفع نفسه الى الامام في كل ذرقة كمدافع (برتا) حينما كانت تقصف لندن. وعربي اسود من اهل البلاد ـ عامل في القهوة ـ على خديه اخدودان بعلامة زائد (+) علامة افريقية في الحجاز. كان شابا بدينا بخدود ممتلئة. ولون علامات الجمع اعمق من لون خديه. ولها عمقها الاخدودي طبعا. بالضبط كالاخدود الذي تحدثه السكين على عجينة الخبز، ثم تنضج في التنور.

وعلمت في هذه السفرة ما هو الحسك (القتاد). بل رأيته. نوع من اشجار المنطقة الحارة وارف الظلال يكثر عند التلاع في وادي الروابي اواخر طريق المدينة. وقد تكاثف كالغابة. ربما في اشارة الى حظر قطعها مؤخرا.. هم على كل حال يملكون نفطا يحرقونه بدل الخشب. قبل المدينة بنحو مئة كيلومتر نطّ عن الارض شيء أشبه بسفح جبل. يناظر الى حد ما سفوح منجيل.[1] ثم صار يشبه سفوح باجگاه، شمال شيراز. ثم لاح سواد المدينة ونحن نخبّ بالباص خبا. الارض مفروشة باحجار سوداء متصدعة من الداخل. تشبه احجار القدم (بقايا

---

(١) منطقة جبلية غابية شمال ايران.

البراكين...)[1]، تحسبها من بعيد خضرة تميل الى سواد النخيل. لكنها احجار. وقد شيدوا منها العديد من البنايات في المدينة وضواحيها. بلا اي طلاء من جص أو اسمنت أو كلس، في الضواحي. أما في مركز المدينة فالبنايات مطلية. ولولا ذلك لأمكن القول انها مدينة سوداء، مثلما بيت المقدس مدينة حليبية، وروما مدينة بنيّة، و... الخ.

النقطة الاخيرة لهذه الليلة هي ازدهار سوق المعاملة والبيع والشراء، واطراف مسجد النبي. السوق، السوق، السوق.. دكاكين محلية، ثابتة وجوالة ومفردة وجماعية. وتهاتر وازدحام المحليين، والزوار، و... يالها من قيامة! هل كان سوق عكاظ هنا في الجاهلية؟ أم انتقل بعد ذلك الى هنا؟ ثم هل العبادة والتجارة توأمان؟ أم أن احداهما زائدة دودية للاخرى؟ أم تعقيباتها المسلية؟ وايهما تبع للاخرى؟ الكل يبيع شيئا أو يشتري شيئا، قبل وبعد مراسم الصلوات الخمس. يفرش رجل سجادته وسط الشارع استعدادا للصلاة. وما ان يفرغ من صلاته حتى تنقلب سجادته بساط تجارة يصف عليها بعض العقيق والشذر،، أو المسبحات، أو العطور، أو المناديل، او اعواد السواك. وبسط التجارة متراصة على الشارع. فمرور السيارات ممنوع في الشوارع المحيطة بمسجد النبي. ربما في ايام الحج فقط.

---

(١) احجار بازلتية على حد تعبير المهندس مهدي بازرگان (ص ٦٩ من كتاب «بيت الناس» رقم ٦٦، طبعة طهران) تلطف وبعثه لي شخصيا من سجنه بعد صدور الطبعة الاولى من مذكراتي هذه، فطالعته. الصفحات الثمانون الاولى منه عن الحج. تطابقت رؤانا عن تلك الديار احيانا.

الاحد، ١٢ نيسان ١٩٦٤

المدينة

الليلة يتبين متى سيكون يوم العيد. يعلنون للناس هل شوهد الهلال أم لا. اعلنوا في «الندوة» على من شاهد الهلال اخبار رئيس المحكمة الشرعية. خبر يقول ان الاختلاف سيكون يوما واحدا، وآخر يحكي انه سيكون يومين. بين ما يعلنه السادة السعوديون، وبين روية الهلال في التقويم الشيعي. لكن من الواضح أن العيد يؤخذ على افق هذه البلاد. فلاشك أن تقويم القادم من اندونيسيا يختلف عن تقويم القادم من تركيا. في حين ينبغي اداء الاعمال هنا. ثم لماذا لا يمكن تثبيت فصل الحج في وقت محدد من السنة؟ اعني السنة الشمسية؟ ألم يكن الامر على هذا المنوال في الأصل؟ من أجل أن لا يؤجل الناس في البلدان الشمالية اداء الحج الى سنوات يصادف فيها موسم الحج الشتاء. وقد لاحظت أن الحج بهذا التقويم القمري، قوّض الاسلام في النواحي الاستوائية.

لم اخرج من البيت اليوم. نمت من الثامنة صباحا الى الحادية عشرة. تعويضا لقلة النوم في الايام التي خلت. ومساءً، كانت حالي بحيث لا اسمع ما يقوله الناس. اضطرب تركيز السمع لدي. وقبلها بيوم تركيز الذاكرة. أي ان المفردات لم تكن طوع ذاكرتي. أحاول التقليل من شرب الماء.لكن الحر من الشدة بحيث يستنزف التعرق كل ما تشربه من الماء. وماألذ التعرق بعد الارتواء. والكليتان في أمثل الاحوال! (عدت الى هموم الذات مرة اخرى). ليلة البارحة تركت رأسي على الوسادة فامتد بي النوم الى الرابعة صباحا، عندما أثار دخول مجموعة جديدة من الحجاج ضجيجا في البيت، وانيرت المصابيح واستيقظ الجميع يغتسلون ويتطهرون ثم الى مسجد النبي. اعظم خسارة منينا بها طيلة اعوام ترك الصلاة، تفريطنا بساعات الفجر، باريجها، ونسيم بردها، بحركة الناس المتوثبة في غضونها. عندما تستيقظ قبل شروق الشمس، كأنك تستيقظ قبل الخلقة.

وتشهد كل يوم هذا التحول العظيم من الظلمة الى النور، من النوم الى الصحوة، ومن السكون الى الحركة. وكان مزاجي صباح هذا اليوم من التفتح حتى انني كنت اسلم على الجميع. ولا اشعر بالرياء اثناء الصلاة اطلاقا. أو عند الوضوء. أمس وأول أمس لم اصدق انني أنا الذي أمارس شعيرة دينية كالآخرين. ما زلت اتذكر كل الادعية، وكل السور القصيرة والطويلة التي حفظتها في طفولتي. بيد أن الكلمات العربية تثقل على ذهني، وعلى لساني. تثقل بشدة. لا يمكن المرور عليها بسرعة. كنت يومئذ أقرؤها كالاوراد بسلاسة. أما صبح اليوم فأحسست أي عبء ثقيل تضعها هذه الكلمات على كاهل الضمير. اصبت بصدمة في الصباح حينما قلت «السلام عليك ايها النبي». كان الضريح أمامي والناس يطوفون حوله، يتسلقون اكتاف بعضهم للوصول اليه وتقبيله، والشرطة تميز من الغيظ، وتنهى الناس عن هذا الفعل الحرام... انفجرت بالبكاء وخرجت مسرعا من المسجد.

والبيت الذي نحن فيه حديث البناء بطابوق من الاسمنت. اكبر قليلا من الطابوق «الافشاري». اواسط اركانه المسلحة مملوءة بهذا الطابوق. ولم ينته البناء الآ في الطابق الارضي. أما الباقي، أي الطابق الثاني ونصف الطابق الثالث، فلايزال الطابوق فيه عاريا، واسلاك الكهرباء خارج الجدران، وبلا إسالة مياه. والماء في الانابيب شحيح عند الصباح والغروب. امس حينما كنت في الحمام تعالى صراخ الناس واعتراضاتهم، لأن الماء تسرب من جوانب الحمام الى اثاثهم. لا مفر من الغاء الاستحمام. كل طابق عبارة عن ممر في الوسط وغرف على جانبيه. والحمام على هذا الجانب وسط الممر، والمرافق في نهاية الجانب الثاني. على أن مجاري المرافق ماتزال مفتوحة. نعمة تذكر فتشكر. ثلاثة بيوت مثل بعضها تماما. لرجل يسمى «سيد عمر الحبشي». ليس اسود طبعا. استأجر اثنين منها اثنان من رؤساء القوافل الايرانيين بـ ٧٠٠ ريال للبيت الواحد في ايام الحج. والثالث لا يزال خاليا. اما الباحة المشتركة، ففي يد جماعة من البهريين

استمتعوا بجوها الطلق. وقد تكاتف افراد كل عائلة حول بعضهم. يستحمون بجفنة ماء الى جوار الحديقة، ويبقون في البيت دائما. وكأنه لا زيارة هناك ولا مشاهد مشرفة، ولا مراسم ولا سياحة. يخيمون على المكان الذي يعيشون فيه، يخبزون على المقلاة، أو ينظفون الرز والبرغل. للغداء ثم بعد ذلك للعشاء.. ويا له من خبز وتمر يأكلونه في هذا الحر! بل يا لها من حلويات تلك التي في اسواق المدينة! كذلك العطور التي تباع وتشترى. شاهدت قطع العود امس في السوق. لاول مرة. وما اكثر الزنوج. ألطف الوجوه في الحج واطرفها. خصوصا عندما يرتدون الاحرام. بياض الاحرام على سواد اجسامهم لوحة فنية حقا.

في «بدر» رأيت اثنين منهم يرتديان الاحرام وهما يعودان من المدينة، هربا من حر باصهم التي كانت بحاجة للتعمير ليجلسا في ظلال احدى الزوايا. وكم قلقت ان يجلسا على الارض فيتسخ احرامهما. لكنهما اضطجعا. يبدو انهم لا يجيدون الجلوس. اما ان يقفوا أو يضطجعوا أو يتهالكوا على الارض مستندين الى مرافقهم. كالعجائز والشيوخ تماما حين يستندون الى عصيهم وهم يمشون.

ثم ان رئيس قافلتنا هذا شديد الامساك، لله ابوه. خصوصا بالنسبة للمياه التي يجب أن تشترى يمد لنا عدة موائد. واحدة للنساء في غرفة. ولكل مجموعة متجانسة مائدة في غرفة. وعائلتنا المكونة من خمسة انفار فقط خصصت لها اصغر الغرف. مع انه اضيف لنا اليوم نفر سادس. عجوز عقدت حفيدتها لجواد مؤقتا في طهران، لتكون محرما عليه في السفر، ويكون لها من يرعاها. والآن تظن انها محرم علينا جميعا، بل انها اختنا بالتبني. لها سلوك الفئران! امرأة صغيرة الجثة. لا تترك الغيبة والنميمة من هذه الغرفة الى تلك. عدنا الى حياة الحضر باسرع ما يمكن. وما اسرع ما تطرق الاعياء الى رائد الشرطة المتقاعد. يتخبط رفاق غرفته بشأنه ويستشيرون الجميع. ذهبت هذا اليوم وقت الغداء للقائه. اندهش. يبدو كأنه ذاهل. انطوى على نفسه بشدة. قضى عمره مسؤولا عن

النظام، يمشي مشية الطاووس برتبه ونياشينه، والآن واحد كالآخرين. بل اتعس حالا. لا اظنه يبقى الى آخر المطاف.

اليوم نفسه، في نفس المكان

ذهبت عصرا وتجولت حول البقيع. جانبها الغربي على المدينة والجانب الشرقي على مزارع النخيل. وجدرانها عالية وسميكة. كجدران السجون تماما. استدرت دورة وإذا بي امام الباب. لكن الدخول غير مسموح. الشرطة كانوا يخرجون الحجاج. وبفظاظة وشدة. انتهى وقت اللقاءات. تمشيت بعدها اتجول في المدينة. نحو الشمال اولا. ثم نحو الغرب. ثم صوب المركز. عند البوابة الشمالية كان ثمة مسجد اسمه «ابوذر» دخلته. فارغ تماما من بني البشر. صليت على سجادة المسجد الكاشانية الممتازة، وغير النظيفة. ثم فتحت القرآن. واذا بآية ﴿ان الارض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] ربما كان جواب خطاب اليوم صباحاً في مسجد النبي. وامام المسجد تقاطع فيه برج صغير لشرطة المرور مبني من الاسمنت. وشرطي ينفخ في صفارته، وابواق السيارات، وحديقتان. مقابل المسجد، مساحة زرعوا فيها شتلات تشبه القلقاش، أو قل انها تشبه الـ«ليل» في جزيرة خارك. اوراق مطاطية عريضة. ثم زرت مسجد ابي بكر، وركعتا صلاة ايضا، واستفتاح بالقرآن. جاءت سورة التوبة، بلا بسملة. «ما معنى هذا؟» وخرجت من المسجد. مسجد آخر عن العهد العثماني. وربما اقدم. بقبة كبيرة ومنارة واحدة. ونخلة بجوار المنارة تنافسها. منفوشة منتعشة. ثم مررت على مسجد «الغمامة». بقبابها القابعة بجوار بعضها كأنها عائلة. صغيرة وكبيرة. جلست

---

(١) الانبياء/ ١٠٥.

بجانب المنبر. صلاة العصر انفضت لتوّها وانخرط الامام في مواعظه قائما في المحراب. وانخرطت أنا في هواجسي. في خاطر زارني وانا في مسجد ابي بكر: «ايا كان، فهو شيخ اصلح ايام الشباب وجموحها. ومن يدري ما الذي حصل في ذلك الغار وقبله وبعده حتى لقبوه بالصديق. والمماحكات. والنصائح. وبدا لي انه هو الذي اقنع الاسلام بأخذ شعائر الحج هذه مما اعتادت عليه قريش. كان رجلا على كل حال كابنته عائشة بالضبط. يبدو انها كانت امرأة جذابة. ذهبت لبيت النبي في كهولته. وهي في ريعان الشباب. بل حينما كانت طفلة صغيرة. أفلا يكون ابو بكر قد ضحّى بابنته؟... ماذا تقول...؟» على كل حال، تراءى لي أن تحمل مسؤولية «امومة المؤمنين» في ريعان الشباب ادت الى كثير من الاحداث، منها واقعة «الجمل»، ولا اعلم الباقي. ولماذا لم أدرس حياة هذه المرأة الى الآن؟ والطريف انه حتى الشيعة لا يكثرون التحامل عليها. سوى انهم ينادون باسمها على نمط خاص من النساء، يمتزن بالشطارة والفضول.. ودعنا من هذا.

عند البوابة الشمالية للمدينة، وسط ارض واسعة، ووسخة، ضربوا خياما كصحراء كربلاء، مخيمات الحجاج الاتراك. ويا للغبار والاتربة التي يثيرها مرور السيارات! ووسط ذاك التراب والغبار تربع رجل في حانوته يرش حواليه بالماء ولا يبالي بشيء. يمسك بيده رأس خرطوم مطاطي. من دون أن يتحرك من مكانه. ووقفت على بعد خطوات منه لأسجل في دفتري بعض الملاحظات. ارتطم احدهم بي من الخلف. واعتذرنا من بعضنا وابتسمنا وانتهى كل شيء الى سلام. واردت ان اسير واذا بي ارى صاحب الدكان قد تعرى وامسك الخرطوم على رأسه وراح يستحم. ما اسرع ما خلع دشداشته وصب الماء على رأسه وجسمه!

على كل واحد من الباصات التي حملت الحجاج الاتراك علامة احدى الشركات. سجلت هذه الاسماء: سلجوق، توريسم، سياحت، جت كبنك،

اولوسوي، و... وكلها باللاتيني. وابواب كل المحركات مفتوحة، والسواق غارقون في التصليح والتعمير. واضح ان الشركات المحلية تأخذ الحجاج الاتراك من ابواب بيوتهم وتأتي بهم الى هنا. عن طريق سورية أو العراق. وبسياراتها. اما الحاج الايراني فلا وسيلة له غير الطائرة تأتي به الى جدة، ثم تلك الفوضى. ثم كل ذلك الانتظار، ثم هذا الشعور بالسجن، سجن الاحتكارات.

بلغت ساحة بائعي الحطب عند البوابة الغربية. حزم كبيرة من خشب «أم غيلان»[1] (ومحدث يسميها باسمها العربي ام غيلان أو أم غولان! وهو كثيرا ما يستنكر هذه الايام مجيئنا مع رئيس قافلتنا هذا، وعدم مجيئنا مع غيره. ليس طيب الصحبة في السفر. أو انه شديد التعود على بيته) ومكتبته مشدودة للبيع غدا صباحا. ورائحة العاقول تملأ الفضاء. تنتشر في الجو من كسر هذه الاشواك. ربما كان العاقول وام غيلان (الحسك) من عائلة واحدة. الرائحة واحدة على كل حال. مخلوطة ببعض الاصماغ تسبب حكّة في آخر الفم.

بعد الساحة ينتصب جبل «السلع» ووراءه «الخندق» المعروف. وعلى كل مكان من الجبل بقايا مسجد أو برج. وبعض عرادات مدفعية. وعلى ذلك الجانب، الى اليمين من الطريق الموصل للمدينة، آثار قلعة عثمانية مهدمة. ويا لها من هيبة حتى بعد الهدم! ولد شاب جلس جانبا. تسالمنا وتساءلنا الاحوال والصحة. واستدرجته للسؤال. بقصد التدريب على العربية ايضا. كان في الصف الرابع الثانوي، ولا يفهم عربيتي الا بصعوبة. فوهات المدافع موجهة خارج المدينة. اخبرني الشاب انها ما تزال تطلق القنابل في المراسم والاعياد. تجولت في بقايا القلعة العثمانية وانا افكر هل هم هنا من نفس الطينة التي نحن منها، أم

---

(١) چوب مغيلان بالفارسية.

لا؟ ثم لماذا يجب ان تهدم مثل هذه القلعة؟ نهدم اينما كنا من العالم الاسلامي تركات الماضين، ونمحو آثارهم من الارض؛ لنقول اننا عظماء. ثم لا نعشق من الآخرين الا ما كان تحت التراب.. وما بوسعنا غير هذا؟! فانت بكل مالك من شعور بالحقارة لا تكون عظيما الا اذا نسفت الآخرين. وهي حقارة لا ينقع غليلها الا إذا ذرف صاحبها الدموع على قبور المنسوفين.

حقول النخيل شرقي البقيع لم تكن عامرة كما ينبغي. بعض محاصيل الصيف مزروعة على جانب منها. وسواقي النخيل لا تشبه الانهار كما في الكارون ودجلة والفرات. فهي غير منتظمة والغبار يعلو كل شيء. واصوات مضخات المياه كأنين الحمائم المزمن. ولكن بايقاع اسرع. حق، حق، حق، حق. هكذا بالضبط. والعرب راديواتهم بايديهم، يحملونها وهم يتمشون هنا وهناك. يصطحبون الموسيقى العربية اينما ذهبوا. بعض منهم ألقوا مساحيهم على عواتقهم، وشدوا اذيال ثيابهم على خصورهم و«بالخير حاجي» و«عليك السلام» وعدت صوب المدينة.

شتلات الموز (أو شيء بين القز والموز من عائلة ظلاليات المناطق الحارة) مزروعة بجوار الجدول. وحول كل واحدة منها سياج من حديد. كقضبان السجون تماما. والقضبان عريضة وسميكة جدا. حيث لا تسمح لك برؤية الشتلة إذا كانت صغيرة. ربما كانت مظلة تقي من الشمس اللافحة. ورغم كل هذه الجهود، تضرر معظمها وجف، لكن الناميات منها منتعشات مزدهرات. أي انهم يهتمون لجمال المدينة ورونقها. وفي مكان ما تهالكت على مصطبة في مقهى (المصطبات في معظم هذه الصفحات عالية ومظلّلة، تشبه بالضبط مصطبات الاحواض عندنا. ومقاعدها المنبعجة محاكة من الحصير) طلبت قهوة فلم يكن لديهم. ورضيت بالشاي. فصرخ «برّاد نصراني!» لم افهم الاولى، لكن الثانية احبطتني.. كل هذه الفنون للذوبان في الجماعة، واذا بك «نصراني»؟! ولكن

حينما جاء بالشاي شككت في فهمي للعربية. لأنه لا يصح الشك في ان الشاي شاي وانه عادي. كان من نوع الشاي الشديد الحلاوة المألوف لديهم. ولكن في «القوري» هذه المرة. اضاف السكر على القوري. وبجانبه استكانان ذوا مقبضين. ويااله من ساخن! وقنينة ماء مثلج بجواره. صار الحساب اثني عشر قرشا. واشتريت من بائع السجائر المجاور علبتي ثقاب بقرشين ونهضت. كنت قد جئت بسجائر «اشنو»[1] معي. وما احسن ما صنعت! ليس لديهم هنا سجائر من صناعتهم. ولكن لديهم كل ما يطيب لك من Camel و King Size و Stuyvesant و PallMall وغيرها من الماركات الامريكية. وبارخص الاثمان. وراح القرويون الذين معنا يجربون نوعا في كل يوم. وسعالهم مساء كسعال الحمارة العجوز. «كوح، كوح، كوح» ولا يمكن النوم. تصلنا من الغرفة الاخيرة أصوات حنجرة احدهم جافة، تنبّئ عن التهاب. يجب ان أتذكر الليلة إذا لم يكن سعاله من تغير السجائر، اعطيته Ipasandrine.

صباح اليوم جاء شاب اسود للقاء رئيس قافلتنا. من النخاولة (الذين يزرعون النخيل على رواية محدث) وكان يعرف اخي الذي مات قبل ١٣ عاماً في هذه المدينة. كان مندوب المرحوم البروجردي هنا.. جاء الشاب يريد حجاً «ميقاتيا». فلم ادر ما هو. سألته عنه: قال رئيس القافلة انه الحج الذي تدفع اجرته هاهنا بنية الاب أو الام أو الاقارب. من المدينة الى مكة وباقي المراسم واسعارها. يقول: «يعطون الى خمسمئة، ولكن لابأس إذا رضي بـ ٢٥٠» بالريال السعودي. تذكرت أن واعظ مجموعتنا تطرق لهذه القضية ليلة البارحة في اواخر محاضرته «... إذا كان والداكم مدينين، والخ.. فيوجد هنا من يقوم نيابة عنهما وبكلفة قليلة...»

---

(١) نوع رديء وزهيد الثمن من السجائر الايرانية.

ظننته يروّج لبضاعته. واذا هي بضاعة النخاولة. الاقلية الشيعية في المدينة. وقد كان اخي سفيرا دينيا فيهم. ولم يستطع صبرا لاكثر من عامين. دفنوه هنا في البقيع. غدا سأذهب لقبره. واما واعظ مجموعتنا هذا فمن اهالي همدان اصلا. وقد سلبوه حق الخطابة في ايران لاسباب سياسية. اعرفه من تعازي الثلاثاء التي كان يقيمها والدي.

الاثنين، ١٣ نيسان

المدينة

ذهبت صباحا الى البقيع. الشمس تسفر، وانا اتحرى آثار التراث في التراب. وآثار اخي قبل كل شيء. ما من اثر، ولا أي علامة. حينما لا تكون لقبور ائمة الشيعة، ولا لقبر عثمان، أو نساء الرسول وابنائه من علامة، فمن يكون اخي؟ هو الآن ذرة تراب، لا يعرفها أحد على مائدة التراث هذه... المقبرة كلها مرتفع ترابي. التراب فيها جد ناعم. في كل شبر حجر اسود مغروس في الارض. وجثة حجر رخامي نقش عليها خط كوفي، القيت على جانب ما. علامة قبر كسروا حجارته وسووه بالارض. الوهابيون، قبل اربعين سنة، حينما استلموا زمام الحكم في الحجاز. هل فعلو ذلك لمجرد عصبيتهم؟ كان لكل قبر قبة وضريح. والآن عدالة للاموات، ومساواة فيما بينهم، لم ار مثلها قط! أو ربما كان اجتماع قبور رجال المذاهب الاسلامية المختلفة في مكان واحد، بمثابة ملوك لا يجمعهم جامع على بساط هذا الاقليم الترابي[١]...؟ أو ربما ارادوا أن لا تشمخ بقعة من

---

(١) اشارة الى مقولة سعدي الشيرازي الحكمية المعروفة «ينام عشرة دراويش على بساط واحد. ولا يجتمع ملكان حتى في اقليم».

الارض بجوار قبر النبي؟ فالبقيع لا يبعد عن مسجد النبي حتى بمقدار ٢٠٠ متر. كلا... هؤلاء وفي هذا الزمان، لا يتحلون بمثل هذه الفطنة. فالذي تخطر بباله مثل هذه التفاسير والتأويلات، يهديه عقله ايضا الى نصب بناء تذكاري لكل هؤلاء العظماء وسط مقبرة البقيع، ينقش عليه اسماءهم جميعا حسب تواريخ ولاداتهم ووفياتهم. لا مندوحة امامنا من القول ان هؤلاء غير جديرين بادارة هذه المشاهد. ينبغي انتزاع المدينة ومكة من قبضة هؤلاء الاشاوس، واعلانهما مدينتين اسلاميتين دوليتين...

تمشيت بهذه الافكار، وتذكرت اخي الذي استطاع بعد كل ما تجرعه من مرارات أن يرصف اطراف قبور الائمة الاربعة بالاحجار. هذا فقط. وكم من الصور التقطها لهذه العملية، وكم تلطخت يداه بالطين فيها، وكم كان نبأ وفاته مفاجئا لنا في طهران، وكم تحاملت يومها بالسباب على والدي، وكفرت بكل شيء... خلعت نعلي كالآخرين، ورحت اشق التراب الناعم في هذه المقبرة العتيقة. وارى أن اربعة عشر قرنا من التراث الاسلامي في مثل هذا التراب، لا تهدينا اليوم الى بر الامان. مع أن الناس موجودون ومؤمنون، بل ويعبدون الموتى. ولكن أي حق اتمتع به انا السخيف، أو انت الحصيف، حتى نسوي مقدساتهم بالتراب؟.. مقدساتهم التي هي حياتهم اليومية؟ الهارب من تفاهة الحياة اليومية الى هنا، يريد ان يبصر جلال الابد متجسدا في جمال الاضرحة. يريد ان يراه بعينيه. واذا اعتبرت هذه وثنية، فما انت صانع بالاساطير؟ ألم تقرأ أن موسى هو الآخر سار الى الميقات ليلمس الله؟ ويراه جهرة بعينيه... وما الى ذلك.. بينما تريد انت ابتزازه؟! ابتزاز هذا الوثني الشيعي،، أو الحنفي،، أو الزيدي، أو البهري القادم للزيارة؟ وهل تراك بمثابة منكر الناس ونكيرهم؟ أم جئت بدعوة جديدة؟ قريش كانوا حجّاب ذلك البيت، قد آمنوا بعد أن فوضوا شعائر الحج للدين الجديد، وأنت اليوم تقتات على فتات موائدهم. واذا نفدت آبار النفط

هذه، والتي كانت سلمك الوحيد للصعود من عربية الخيام الجاهلية الى حكومة عصبية، ألا تعود بحاجة لهذه الأمة من الحجيج؟ ولنر هل ينفد النفط اولا، أم مراسم الحج السنوية هذه؟ انت تعلم هذه الاشياء ولاشك. ولكن ألا ترى أي نطفة لـ «نزعة دنيوية» تنطوي عليها هذه القيامة السنوية. نطفة نسيان الهوان. ونسيان الاجزاء في الكل... اوه، يبدو أني عدت الى «نزعة التغريب».

اليوم نفسه، عصرا

ذهبنا اليوم، وكنت أحد خمسة اشخاص. بسيارة صغيرة، اجرتها عشرة ريالات. للذهاب والاياب. الطريق قصير جدا. يجب أن نأتي مشيا في المرة القادمة. المقبرة كلها مغطاة بالرمال. والجدران بيضاء. وسلّم منظم شامل عند المدخل. وشبابيك الاضرحة السابقة كالاسيجة على الجدران. وقبرا حمزة ومصعب محاصران بجدران من البشر. في وسط المقبرة. على شيء يشبه المصطبة، ومغطيان بالتراب. والغطاء الترابي مغطىً بمسكوكات نقدية. ونساء البدو والبربر يدسسن انفسهن بين الزوار. واذا ابتعد الشرطة، خطفن قبضات من تراب القبور وهربن. وتهجم الشرطة بالسباب وحبال العقال. كأنها السياط في ايديهم. حتى أن جوادا، رغم كل لينه وبشاشته، ضاق ذرعا بهم، وامسك بتلابيب احدهم، يسمعه «انت الكلب، انت اليهودي» لم اكن اتوقع هذا منه.

في آخر المقبرة، حفرة كبيرة لا علامة فيها لقبر. كمستنقع كبير حفروه ليكون خزان مياه. قبر جماعي لسائر شهداء أحد. مغطى كذلك بالنقود المسكوكة والورقية. وجماعتان من الحجاج الايرانيين على جانبي الحفرة. ونوّاحوهم في ذروة الهياج، يندبون ويرثون على طور يذيب الصخور. والحجاج يبكون ويلطمون الرؤوس والصدور. كل هذا عند جبل أحد. شمال المدينة. وناحية احد المسكونة على سفحه. وكوكبة من الحجاج الايرانيين يصلون في

زاوية من المقبرة. مصطفين خلف بعضهم تحت ظل جدار. ربما يتحاشون شعاع الشمس، لكن غيرهم وقف يصلي وسط المقبرة. وجاء بضعة شباب عرب ينهون عن المنكر «حرام، حرام... لا تجعلوا قبور آبائكم مسجدا...» يكررون القول في هياج وعصبية. لكن احدا لا يصغي لقولهم. والشرطي الذي شتمه جواد لم يفعل شيئا. يبدو أن تشدد السعوديين أقل في هذا العام. والخال بصحبتنا؛ وهو في أعتى الاحوال. ومحدث يجهش بالبكاء والعويل. لم اره قبل في هذه الحالة. ثم قررنا ان نشرب الشاي سوية في مقهى الحي، ونتصفح الناس بانتظار سائق السيارة. الحجاج الاتراك كثار. وباصاتهم خاصة. وما اكثر الشحاذين. والسواق جد منهكين. وصاحب المقهى يسلق البيض للزبائن على وعاء نحاسي يشبه الخمرة وضعه على النار.

عند العودة ذهبت مع جواد لحديقة الصفا التي اكثر الحجاج ذكرها. تصورتها من طول ما اطروها كحديقة «ارم» في شيراز، أو انها الجنة بعينها. لكنها كانت حقل نخيل مهمل، وفي اعلاها ماء يتدفق من مضخة الى مسبح يغسل فيه الناس اجسامهم وثيابهم. والماء كأنه اللبن. والانابيب تأخذه من هذا المسبح الى اطراف الحقل. وفي كل جانب صنبور مياه.. والناس فرشوا موائدهم على المروج المزدانة بالزروع. وصنعوا من كل ما وقعت ايديهم عليه سقوفا تظلهم. حبال السقوف شدوها الى جذوع النخيل. وانكمش الرجال والنساء والشيوخ والشباب الى بعضهم تحتها. تحلقوا حول الموائد، والپريمز، والسماور، والبسط، وجفان السلاط، ومناقل الكباب. والجداول مجاري مياه آسنة. وكل جماعة من منطقة معينة على مائدة واحدة. مررت بمن يتكلمون بلهجة اصفهانية، وآخرين بلهجة يزدية. وبخراسانيين في مكان آخر. هؤلاء حجاج ينفقون هم على انفسهم ولم يعطوا سوى مبلغ بسيط لدليل يشرف على شؤونهم الدينية والعبادية. ويدفعون اجرة الحديقة ريالا سعوديا واحدا في الليلة. ولا يدفعون شيئا

للاستحمام. مررت على دورات المياه العامة، وترحمت على دورة مياه مسجد «شاه» قبل عشرين سنة. ويالها من متربة وحر ووساخة! تماما كالثالث عشر من فروردين[1] (سيزده بدر) في مرقد السيد داود، تضعه تحت حقل نخيل في شوش. ومع هذا فهم في ذروة السرور والغبطة لأنهم يسكنون في الحديقة. وصاحب الحديقة نفسه رجل من يزد أو اصفهان، جاور المشاهد المشرفة. شديد السمنة والنشاط والبشاشة. ك «شمشيري» امام باب مطعمه. وله فضلا عن الحديقة معمل لانتاج الثلج. وسعر المتر المكعب الواحد من الثلج ريالان سعوديان. بطاقات التهنئة الواحدة بريال. والقرطاسية غالية جدا. لم احصل على قلم رصاص أو قلم جاف. لكنني اشتريت دفترا صغيرا بريال ونصف.

رغبت ان امشي اليوم باقدام حافية. لم تكن النعال المطاطية مريحة. تقفعت قدماي منها. لكن الاسفلت شديد السخونة. وأشد منه حرارة الرمال على اطراف الشوارع. يبدو انه لا مفر من تغطية باطن الاقدام وظاهر الرأس في البداوة.

عصر اليوم نفسه

لا مناص من تدويل هذه المشاهد. مكة، والمدينة، وعرفات، ومنى. وتسليم ادارتها لهيئة مشتركة من ممثلي الشعوب المسلمة، وتأمين النفقات من ايرادات الحج. وتوظيف ادلاء من كل الشعوب بدل الشرطة المحلية. والسماح لاتباع كل مذهب ان يقيموا مراسيمهم الخاصة. والغاء اتاوات الطريق، وبناء مساكن وحدائق لكل الحجاج والمجاميع. خصوصا وان معظم الكسبة والتجار في

---

(١) الاول من نيسان، ويسمى يوم الطبيعة، يخرج فيه معظم الايرانيين الى المروج الخضراء، والحدائق، ويتنزهون، ويتناولون الطعام هناك.

المدينة اجانب. عراقيون، وايرانيون، وباكستانيون، واندونيسيون ايضا. هاجروا واستوطنوا هنا.

وأما الحر، فهو من الشدة بحيث جعل أقداح الماء الثلاثة التي صببتها اليوم على رأسي، بكل حيطة وحذر، لئلا يتسرب الماء من جوانب الحمام الى اثاث الجيران ومتاعهم، جعلها افضل من حمام الماء البارد ألف مرة. وإذن، كيف يكون الحال في الصيف هنا؟ لم يكن اخي المسكين في هذه المدينة بحاجة لأي سبب آخر كي يموت. الابنية الجديدة فيها كوى تهوية. لكن الحمقى جعلوا الشبابيك هنا كبيرة، وكأننا على ضفاف بحر في النرويج. ويا للذباب! لم ار مثله في عمري. حتى في خرمشهر. وحتى في سقزآباد، قبل الـ D.D.T، وحتى في شوش دانيال. أي المناطق اذكر ايضا؟ اجل، لا سبيل سوى اشراف دولي اسلامي على هذا الموسم.

اليوم نفسه مساء

تعرفت اليوم على ثلاثة طلاب شباب. في دكان لبيع المرطبات، بشارع «العينية» مقابل «باب السلام». في الصف الثالث والرابع الاعدادي. من اهالي «عرعر» في الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية. المكان الذي تمر منه انابيب نفط العراق الى سورية ولبنان. مدرستهم هي الثانوية الوحيدة في مدينة يقطنها ١٢ ألف انسان. اغلقوا صفها الثاني ونقلوه الى المدينة. ونقل الصف الثالث الى «الدمام» (عشرون كيلومترا جنوب الظهران). لقد غادر الاساتذة المصريون، ولم يستطع سد فراغهم حتى السوريون أو اللبنانيون القادمون حديثا. يبدو انه ما من مصريين في موسم الحج هذه السنة. يقولون انهم لم يقبلوا من مصر هذا العام حتى رداء الكعبة. واعدوه بانفسهم. وهم مغتبطون لهذا. لكنهم لا يدرون أن مشكلة السعودية ومصر ترتبط بقضية اليمن. كان الشباب يتناولون

مرطباتهم. وانا كذلك. وسيد ايراني بعمامة مبعثرة يدعو اصحابه ومريديه للتبرع من اجل بناء مسجد، اسمه «بهار». لا ادري في أي مدينة. بيد أن اللهجات كانت اصفهانية. وامتد الحوار الى المزاح والمساومات السوقية، والشباب السعوديون ينادون عليهم بين الجد والهزل، ان حان وقت صلاة المغرب، فلماذا لا تنصرفون... والخ. فافهمتهم أن مغربنا الشرعي يحين بعد الغروب الطبيعي للشمس، وانه ما يزال امامهم متسع للصلاة. وباللغة الانجليزية. لانني سمعتهم يتبادلون بضع كلمات، بانجليزية واهنة، استهزاء بأولئك النفر الايرانيين. وانفتح باب النقاش. يقولون: ان الشعب يريد نظاما جمهوريا، ويعبد عبدالناصر. كانوا شبابا طغى بهم الشوق الى القومية العربية وشموخها القادم. يتباهون بما تحت آباطهم من مجلات مصرية تغريبية، عليها، صور الفاتنات،، وآخر الموضات، وشرب الانخاب على سلامة البعض في مجالس القاهرة وبيروت، والدبابات المصرية، ونساء يحملن البنادق... وعندما ارادوا اعطاء عناوينهم راحوا يبدلون الاسماء بصعوبة الى اللاتينية. فقلت لهم لم لا تكتبون بالعربية؟ فتعجبوا، واعطوني المجلات ليختبروا قراءتي العربية. والتهب حماسي، ورحت اشمخ بانفي، كما لو كنت في صف دراسي، وعرفوا اني ملم بالفرنسية ايضا. واصروا اصراراً على أن يسمعوا جملة فرنسية. فكتبت لهم بجانب دبابة مصرية:

Comme vous êtes innocents, mes chers enfants perdus sous lareigne d-un gouvernement primitif…!

ثم طالبوني بمعناها. ولم يفهموا المعنى بالانجليزية، ولم استطع نقله لهم بالعربية. لذلك لا اذكره بالفارسية. خرجنا من محل المرطبات، و«مع السلامة .. مع السلامة».

منذ ان تحركنا من طهران، لم ار سوى عدد قليل جدا من النساء غير محجبات. واقل من هذا جميلات. وكان الشباب الثلاثة جد نظيفين، ومتأنقين،

ويتضاحكون بمرح، وفي كلام احدهم غنج نسوي. واحد منهم فقط له صوت رجولي خشن. كلهم من الهائمين بعبدالناصر. هل جميع الناس في السعودية هكذا؟ أم المتعلمون فقط؟ وفي صفوف كان اساتذتها مصريين الى ما قبل عام؟ لكن الطريف ان ايا منهم لم يكن يعلم ما مذهبه! حينما سألتهم هل هم حنفيون، أم مالكيون، أم شيء آخر؟ توجسوا في البداية. ثم فكروا قليلا حتى قال قائلهم «حنابلة». لكن بدا جليا انه قالها اعتباطا. وهذا معناه شيوع اللاابالية في كل مكان. وكم كانوا آسفين لمغادرة الاساتذة المصريين! وكم ابدوا شوقهم لاساتذة امريكيين، وعدت شركة «ارامكو» أن تبعثهم لمدارسهم كي يعلموا الانجليزية. وكانوا واثقين أن عبدالناصر سيبتلع اسرائيل في غضون ثلاث سنوات. وسيلقي الاسرائيليين في البحر.

الثلاثاء، ١٤ نيسان ١٩٦٤

المدينة

الايرانيون فقط يسافرون الى الحجاز جوا. المشكلة انهم لا يستطيعون المرور حتى بالعراق عند العودة. واذا اراد احدهم زيارة النجف أو كربلاء أو الشام، فعليه ان ينسى تذكرة عودته، ويبتاع تذكرة جديدة لبغداد أو دمشق. وبألف محاولة في جدة. لأن الاولوية في هذا الموسم لمن معهم تذاكر مسبقة. أما باقي الحجاج في العالم فمخيرون بأن يسافروا بأية وسيلة ارادوا. وهذا الاحتكار الجوي يتممه احتكار آخر. نور على نور. احتكار «المطوّفين» أو «ارباب الطوافة»، «الصحرة»، «الشجرة» و... الى آخر مالهم من اسماء. شركات تزود الحجاج بالباصات، وتضرب الخيام في عرفات ومنى، وتقدم خدمات اخرى للحجاج في الموسم. واسماؤها مدرجة رسمياً في كل ادلة الحج. والسؤال الاول الذي واجهونا به في مطار جدة «من هو مطوفكم؟» مطوفنا «الصحرة». وقد

لقنوننا اسمه مرارا قبل ان تهبط الطائرة. هذا الاحتكار الثاني يفضي تلقائيا الى احتكار ثالث يرتبط برؤساء قوافلنا. رئيس القافلة هو المسؤول عن سفر مئة الى مئتين أو ثلاثمئة شخص الى الحج. وينتفع من كل واحد منهم الى حدود ألف تومان. ومهمة هؤلاء الرؤساء بالدرجة الاولى دخول حلبة الاحتكارات المومأ اليها والتمتع بها. وتوفير القوت والماء والسكن للحجاج، بحسب مقدار المال الذي يأخذونه منهم. وماذا يستطيع الحاج بمفرده أن يفعل قبال هذه الاحتكارات؟ التقيت في المدينة اربعة من زملاء ايام الدراسة جاءوا الى الحج بسيارة ومتاع جيد ـ من خيام واسرّة ومطبخ وثلاجة ـ بعد أن تساهموا في نفقات السفر. لكنهم حينما نزلوا من السفينة في جدة علموا ان عليهم الانضمام الى احد رؤساء القوافل، أو يكونوا على الاقل تبعا لاحد المطوفين. لانهم ايرانيون. وليسوا اتراكا او مصريين او سوريين. لذلك تأخروا اسبوعا، ودفعوا ما تيسر من الاتاوات والضرائب، والصقوا اسم «الصحرة» على سيارتهم، وعندها فقط حصلوا على ترخيص بالدخول. لا ادري لحد الآن ما هو الحال في عرفات ومنى، وكيف سيكون السكن ليومين أو ثلاثة تحت الخيام. ولكن يمكن على كل حال فعل شيء، لكيلا يتقيد الحاج كل هذا التقيد بهذه الاحتكارات، التي تمتصه كل واحدة منها بشكل من الاشكال، وتشده اليها وتسلبه حريته. وهكذا تحول الحج مصنعا ينتج اصحاب الملايين، «الطيران الوطني» ومساهموه هاهنا. و«الملك المعظم» بـ«صحرته» و«شجرته» في الحجاز.

الرائد المتقاعد كان معنا. ذهوله تحول الى فزع. انسان متشائم لا عهد له بالانفتاح والمرح. يكاد عقله يصاب من كثرة ما لهث تحت الشمس بلا جدوى. وكلما حاولت ان يخلع لباس المدينة ويفتح ضغطة الكراوات، ويرتدي دشداشة أو عباءة أو قلنسوة، ويتصرف عموما كأهل المدينة، لم ينفع الكلام معه. بقي منضبطا رسميا، كما في ساعات العمل في المخفر. ويتذكر دوما منى وعرفات.

ويرتعد من خوف الحياة تحت الخيام. رجل قضى عمره يحمي جدران البيوت والسجون العالية، يعيش الآن تحت الخيام؟! بلا حيطان ولا سقوف؟! خصصت له البارحة ساعة من الوقت اسلّيه بها.. يروي أحد رفاق غرفته نقلا عن امرأة من اقربائه كانت في مجموعتنا، أن زوجته في طهران قالت: إذا اعتلّ أو عطب هناك، فاتركوه وحده وعودوا. يبدو أننا امام احداث مثيرة...

ومن بين اربعة أو خمسة معممين ووعاظ ونواحين في مجموعتنا، هناك سيد من اهل بروجرد، إمام مسجد جديد في طهران، يخفق قلبه بشدة لحاشية ومريدين. جمع حوله بضعة كسبة، يصلي بهم جماعة كل يوم في الغرفة التي يسكنها. واومأ مرات بلسان الصمت أن نلتحق بصلاتهم. أما محدث فلا يأتمّ بأحد، كائنا من كان. والخال لا طاقة له على الجماعة. وجواد باله مشغول بألف حسبة وحسبة. فلا يبقى من عائلتنا الا انا. من اولئك الذين يطول سجودهم خمس دقائق. ظننا انه اقترب الى العرش خمسة كيلومترات. والاسوأ من ذلك اصراره ان استمع لخطاباته التي يلقيها بعد صلاة المغرب على القرويين. واخيرا قصدته البارحة. على السطح. افسد طيبة الهواء بترهات حول «الشكوك» و«الغسل» و«التطهير» و«النجاسة». حتى اصابني الغثيان. كلام لا ينفع حتى جهلة مازندران. والى متى يعلّقون الدين بمقبض ابريق يتشطّفون به؟ ويحبسونه في «رحاب» النجاسة والطهارة؟ أو يطبلون لوداعته التي لا تمس الا شوارب احمق مثلي؟! هل هذه اقصى حدود الدين ووظائفه؟ والصعلوك لا يعرف مقتضى الادب، حتى بمقدار عدم التطرق الفوري لحرمة شاربك، وانت تجلس اول مرة لاستماع كلمته.(١) والانكى منه نوّاح مجموعتنا. كأنه رجل مريض. يصرخ بصفة

---

(١) كان جلال آل احمد يحلق لحيته ويترك شاربه كثا. وقد اطلق لحيته في اخريات ايامه وله صور بها.

رسمية: لماذا لا تلطمون رؤوسكم ووجوهكم؟ كما لو يقول لماذا لا تلقون انفسكم من فوق السطح، حينما ارتل التعازي! حبذا واعظ مجموعتنا. يتكلم شيئا عن التاريخ، ويروي حديثا، ويتكلم كلاما نافعا. شرع باستعراض تاريخ بناء الكعبة، وآداب الحج للقرويين. كلام مفيد على كل حال. ويعرّج في الختام طبعا على صحراء كربلاء، يستذرف بها دموع الناس. ولكن لا على ايقاع «بحقي عليك وبحقك عليّ»[1] كلامه دافئ. ويبدو عليه الاخلاص. ذكرت السبب.

الثلاثاء، ١٤ نيسان ١٩٦٤

المدينة

انطلقت صباحا بلا افطار الى أُحد. مشيا على الأقدام. ليس الطريق ببعيد. ثلاثة كيلومترات أو اربعة. قبالة منزل «السنغاليين». وهو بناية حديثة من ثلاثة أو اربعة ادوار، رجل اسود طويل القامة، راح يمارس حركات فنية، لم افهم معناها في البداية. لأنه كان يرتدي الاحرام. لكنني تنبهت في لحظة انها الرقصة الافريقية. تركته وانصرفت. الشمس اشرقت لتوها. كأنها طست برونزي خلف ستار من غبار. كانت الساعة بحدود السادسة. ويمكن النظر الى وجهها. ما اكبرها من برتقالة، لونها يسر الناظرين. وإمرأة شابة جميلة تستجدي. عربية ملثّمة. تقدمت فرأيت في عينيها ابتسامة يجب ان تُرى في غير موسم الحج. ويا لله من عيونها! كعيون الغزلان التي طالما قرأناها في الاشعار. لكنها ككل حكايات الآخرين واخبارهم لا تستشعر مالم يذقها الانسان بنفسه. عباءتها السوداء رقيقة جدا، وتحتها قميص طويل ممزق. لابد انهما يشعران بالبرد. اقصد نهديها

---

(١) من بميرم و تو بميري، يريد انه لا يستخدم اساليب مغلوطة لاستقطاب الناس.

الصغيرين. مشرئبان، ولكن لا ينبضان بحركة تحت القميص. كنت اشعر بالبرد انا الآخر. ليس عليّ سوى قميص طويل. ظنا مني انه الحجاز بحره وشمسه. ولكن لا في مثل هذا الصباح الباكر، وليس امام مثل هذه الفتاة.. اسرعت في المشي. قبل ليلة وعلى السطح (كنا ننام على السطح لأننا من عائلة واحدة. وتنام هناك ايضا مجموعة اخرى من الاصفهانيين. وينام البقية داخل الغرف، عند متاعهم. خوفا من اللصوص، وما الى ذلك) شعرت بالبرد رغم تدثري بالبطانية. والمشكلة ان ثمة مجلسا كل ليلة على السطح، لا ينفض قبل العاشرة. ما أن تتعشى وتتهيأ للنوم حتى ينتصف الليل. وصباحا نستيقظ في الرابعة والنصف، بل قبل هذا. اضطرب نظام النوم والطعام بشدة. ليس الطعام بالأمر المهم. لكنني بحاجة الى كثير من النوم. ربما اعطبتني قلة النوم. ينبغي الاحتراس.

مررت بمدرسة وانا في الطريق. عند البوابة الشمالية للمدينة «المعهد العلمي للمعلمين» التأسيس عام ١٣٧٢ هـ ـ وزارة المعارف. والطلاب الذين شاهدتهم في طريق العودة متكالبون عند الباب. شباب من سنخ الثلاثة الذين التقيتهم في دكان المرطبات. طاب لي أن ادخل واتحرى عن دروسهم ومناهجهم واساتذتهم. ولكن في طريق العودة،، وانا متعب، وقد تفجرت اورام قدميّ، وراحت تحرقني. وعندما اقتربت من المدينة تفاقم الوجع الى درجة اعجزني عن مواصلة المسير. جلست في جانب اشغل نفسي بالكتابة ورسم التخطيطات.. لكل شيء ولكل مكان. مداراة للبطالة. مر باص في تلك اللحظات، ملؤه فتيات بالغات، يرتدين العباءات. كتب عليه «مدرسة البنات». عاودت المسير بعد ارتفاع التعب. مررت أمام «مستشفى للولادة وامراض النساء» ثم توجهت صوب مسجد علي وابي بكر واماكن اخرى. وكل ذهاب في طريق الاياب. لاتحدث عن الذهاب اولا.

على مشارف احد، كانت هناك مدرسة بيضاء على جانب الشارع. تبدو

نظيفة نموذجية. يحوم الاطفال حولها. باب المدرسة كانت مقفلة. ظاهرها انيق فقط. أما الداخل فخراب كمدارسنا. ألقيت نظرة عبر النوافذ. باب ابيض (بدل الاخضر) طالعني قبل الوصول الى حديقة احد. التأسيس عام ١٣٧٢ هـ ايضا. يبدو ان أمرا حدث في العربية السعودية تلك السنة. أو تولى الأمور محبّ للعلم والثقافة و... الخ. من البيت حتى بوابة أحد خمسون دقيقة من المشي. بخطوات واسعة وبلا توقف. مررت في الطريق بنباتات الصيف وبحقول ومنازل انتجاعية. وغبار ـ كطلع النخيل ـ يغطي هامات المزارع. والشمس لا تزال غير حامية الوطيس ومرور السيارات قليل. ولا يسمحون اليوم بدخول النساء الى المشهد. رجال الشرطة واقفون بالباب يمنعونهن من الدخول. ربما بسبب اختطافهن التراب من المقابر بالامس. اضطررن على كل حال ان يقفن خلف الاسيجة. اكواما اكواما. والنواحون يرتلون بهن تهجّيا «ايها الاصدقاء، ايها الشهداء، ايها السعداء». المشهد في الداخل كان مرتبا وقليل الرواد. والشرطة ابقت الناس بعيدا عن القبور حول دائرة كبيرة. ولا عملات أو نقود على تراب القبور.

في العودة، طلبت في نفس مقهى الامس شايا وبيضا مقليا، «براد وخبز مع بيضتين»، فهم عربيتي. بيض مقلي يستخرجه من مقلاة نحاسية على النار، كما رأيته اول مرة. طلبت خضرة ايضا. ذهب وجاءني بخمسة اغصان من النعناع. صفار البيض مخلوط ببياضه، مع شاي عسلي اللون، وبياض الخبز المشوي، وخضرة النعناع الزمردية. اجمل مائدة رأيتها حتى اليوم. ولكن في صينية من التنك، عليها علامة «ارامكو»! كنت متربعا في جلوسي على مصطبات حصيرية. وحرارة احد القدمين تخفف من وجع اورام القدم الاخرى. ولله درها من جلسة! واذا بشيخ عربي مكفوف يمر. في يده عصا بقطر الاصبع. لابد انها من الخيزران. وشيخ آخر اراد صعود سيارة فارتطم بالسائق. ودفعه السائق في صدره دفعة تحجّرت لها اللقمة في فمي.. الله ما أعنفهم. وقد رأيت اسوأ من هذا في مرقد

النبي. رجل وزوجته يمشيان متلاصقين، فصلت جموع الناس بينهما للحظة. التفت الرجل الى الوراء، ودفع بكل قوته ظهر امرأة بيضاء (سورية أو لبنانية) حالت بينه وبين زوجته. وامسك بكفه الاخرى رسغ امرأته وجرها جرة ظننت أن يدها انخلعت لها. عنيفون للغاية. ونبرة اصوات جد عالية. وما اكثر ما يضغط سواقهم على ابواق سياراتهم! من دون أية حاجة لذلك. أما السائق الذي جاء بنا من جدة الى المدينة، فالعياذ بالله!

أُحد اشبه بمصيف للمدينة. منطقة مليئة بالمياه والاحياء. النخيل القديم والحديث يحافظ في كل مكان على دوام التحول النباتي. والمعمورة السكانية وسط وادي تقع مقابر الشهداء في مصبها، وترتفع الى سفح الجبل. وفيها العديد من الآبار الواسعة الجافة والعامرة بالمياه. واصوات مضخات المياه تأتيك من كل صوب وحدب. ممتدة وبايقاع بطيء. تفقدت واحدا منها. يشبه في سعته وقلة عمقه آبار سهل جرجان. حمّار راح يصيح على حماره «ايش، ش، ش». وبعد ذلك «هوش، ش، ش». كحمّارينا بالضبط. وفي طريق العودة، حينما وصلت الى المدرسة البيضاء، كان ثمة اسود قزم متهالك بجانب الجدار، يبيع ما تيسير لاطفال المدرسة. كان شيئا مطبوخا. لم اعرف ما هو. وباب المدرسة ما تزال مقفلة. ما يزال ثمة وقت حتى الثامنة صباحا. والاطفال كثار. والبنات والبنون مختلطون. ويالها من سيارات! باصات وسيارات شحن وقلابات. ومعظمهما مزوّق ومرسوم عليه، والمتاع يتدلّى عليها من هنا وهناك. شاحنة كبيرة تزدحم بالبدو. النساء محشورات على ارض الشاحنة، وفوقهن سقف خشبي يجلس عليه الرجال مضغوطين لبعضهم. وعلى جدران الشاحنة تعلقت القِرب والزقاق والخيام واعمدتها. اطرف شاحنة يمكن رؤيتها في هذه السفرة.

اما الاشجار المزروعة على جانبي الطريق الى أُحد، فنوع من النخل يسمى كاتالبا. وهناك التين الهندي. والحسك. والموز. واشجار من نوع آخر لم اعرف

ما هي. واشجار التين الهندي منتعشة، تحمل اغصانها اوراقا جديدة، كأنها جنبذات تفتحت توا. لونها احمر غامق. والاوراق الاسبق دهنية عريضة وباللون الوردي. اشجار شابة تنتمي للمناطق الحارة. وكل واحدة منها نعمة جليلة القدر في صحاري الحجاز القاحلة. حتى السعوديون عرفوا قدر الاشجار.

حينما وصلت الى المدينة، عرجت على السوق. غرب مسجد النبي. نساء بدويات معهن دجاج أو فراخ ملونة (ويبدو انها من انتاج آلات مفقسة) في اقفاص ظريفة من خشب النخيل، جلسن ينتظرن الزبائن. أو تحمل الواحدة منهن بضع بيضات في كف تمدها من تحت العباءة. وعلى وجه معظمهن حجاب كأنه القناع. يشبه ما شاهدته في جزيرة خارك. وزيوت في زقاق صغيرة وكبيرة. بعض الزقاق مصنوعة من جلد الحملان. وايراني فرش وسط السوق سجادتين قمّيتين، وراح يتعامل بتركية ركيكة مع امرأة حسناء ترتدي البياض. سمعته يسعّر كل واحدة منها باربعمئة ريال سعودي، ثم سوق الباجچية. بمواقدهم المستعرة. ورؤوس البقر والاغنام في قدر واحد. ثم طلبت اللجوء الى دكان المرطبات في شارع «العينية».

كان هناك رجل احمر الوجه، يتعامل بالمال مع عدة اشخاص. دردشنا. بشيء من الفارسية، وشيء من العربية. كان رئيس قافلة عراقية. خياط في الأصل. ومن احفاد الايرانيين الذين جاوروا العتبات في كربلاء. علمت منه أن صاحب دكان المرطبات اندونيسي. والعطار المحاذي له هندي. وصاحب المكتبة المجاورة عراقي... وهكذا. كان يعرف الكسبة واحدا واحدا. ثم جرنا الحديث الى عبدالسلام عارف. لم يكن صاحبي يرتاح له. ثم الى عبدالكريم قاسم والدكتور مصدق اللذين كانا وجهين لعملة واحدة (باعتقاده). وسأل «اين هو مصدق؟» فأجبته «في مكان افضل من مكان قاسم» والحسرات والاسف الشديد. ثم قال ان الاساتذة العراقيين وقعوا مع السفارة السعودية في بغداد عقدا يخولهم

ان يحجوا هذا العام بلا رسوم ولا تراخيص سفر (فيزا). هل بسبب شدة احتياج السعوديين للاساتذة؟

توجهت بعدها لمسجد النبي. ادخله عادة من باب السلام. هي اكبر، والمرور بها ايسر. تمشيت حول الرواق. وتسكعت وسط الحمائم. وقطعت خطوات على رمال في اطراف الصحن. الرمال ممتزجة بحبات القمح، الى درجة تحار معها الحمائم في اختيار هذه او تلك. قرأت على ناصية الرواق حول الصحن بطوله اسماء الشخصيات البارزة في عصور الاسلام الاولى. حتى ائمة الشيعة الاثني عشر. والصحابة والقادة. وعجوز منكمشة الجثة تبيع ماء السبيل. أخذت كأسا من يدها. يداها موشومتان الى الاظافر. وكذلك وجهها. من تحت العيون الى تحت الحنك. حتى على الحلقوم. والوشم كله ناعم يصور ما يشبه الورود والنباتات. اتذكر اني رأيت قبل ايام امرأة اخرى وشمت على رقبتها ثعبان رأسه في انبعاج الحنك، وذنبه نازل الى صدرها مستتر فيه. ربما كانت بربرية.

عند كل عمود من اعمدة المسجد صينية مستطيلة من الحديد الابيض. مكدسة باكواز صغيرة لشربة واحدة. وكلها فارغة. وعلى اناء حديدي كتبوا بكل فخر واعتزاز «وقف وزارة الحج والاوقاف». بدل عشر أو عشرين برّادة ماء كهربائية يوجد منها في كل دائرة حكومية. أيا كان، هذا خبر آخر عن ادارة شؤون الحج. واشراف الحكومة السعودية وحرصها على اوضاع الحجاج! وتعال انظر الاهمال حتى في بناء المسجد. بناء نصف اندلسي، ونصف عثماني. بغطاء مقطع من الاسمنت. وبعدة ألوان. قطع اسمنتية كبيرة سوداء وحليبية وبنية وضعوها في طيات بعضها وارتفعت الى الاعلى. والسقف مكون من قطع اكبر بلون واحد. تستند الى حديد مخفي داخل طبقات من الاسمنت ولاشك. بدل كل هذه الاحجار السوداء الجميلة في ضواحي المدينة، والتي كان بمستطاعهم

نحتها وترصيع البناء بها. ربما لم يستسيغوا ان يكون مسجد النبي اسود... وماعدا اعمدة المسجد، الرخامية في داخلها والغرانيتية في خارجها، فإن ظاهر بناء بهذه العظمة والاهمية كله من القطع الاسمنتية. وحتى المآذن بكل ما لها من شموخ وارتفاع. وارض الممرات والاروقة من الرخام. اسود وابيض. ما كان اشد رغبتي في أن اعرف المهندس المسؤول لاقبض عليه من تلابيبه، واقول له «يا استاذ، يجب التعبير عن العظمة الماورائية لمثل هذا البناء بابسط رموز الطبيعة. بالاحجار. لا بهذه القطع الاسمنتية المصبوبة. واذا كان العثمانيون فيما مضى يبنون واجهات الاطواق بهذه الطريقة المكسرة، أو يزين الاندلسيون ارض الابنية وجدرانها بالموزائيك الملون، فانهم كانوا يعيشون في اقليم آخر من العالم، وفي عصر غير هذا العصر. وانت بوصفك مسؤولا عن مثل هذا البناء العظيم في المدينة، ألم يرشدك عقلك ان تستعين بمهندسين ومعماريين من كل البلدان الاسلامية؟ هلا خطر ببالك أن تستشير الذي نقل الأطواق واشكال الضرب والمقرنصات من الهند الى الاندلس...؟». دعنا من هذا.[1]

طفت حول الضريح، المكان خال نسبيا. ويستطيع المرء القيام بما يحلو له بسهولة. ورجال الشرطة كانوا مهذبين. موزعون في اماكن شتى من الحرم. والناس مصطفون في اماكنهم بانتظار الصلاة. وحذرون جدا من خائنة الاعين

---

(١) بعد صدور الطبعة الاولى من هذه المذكرات. قرأت في السيرة الذاتية لـ «ملكم اكس» (Malcolm X) زعيم الزنوج المسلمين الراحل في امريكا الذي حج سنة ١٣٨٢ هـ قرأت اشارة لاسم مهندس هذا البناء «الدكتور عمر عزام، مهندس خدمات عامة، ومن خريجي سويسرا. استأجرته حكومة العربية السعودية من منظمة الامم المتحدة ليشرف على عمليات بناء المشاهد المقدسة. شقيقته زوجة نجل الامير فيصل...» عن ص ٢٧٥ من الترجمة الفرنسية للسيرة الذاتية لملكم ايكس ـ طبعة «برنارغراسي» ـ باريس ١٩٦٦.

التي قد ترمق ما استولوا عليه من اماكن الصلاة. يا لحب بني آدم لملكه. حتى في مثل هذه السفرة. لامست قدمي سجادة احدهم، وطوت، طرفا منها، ضرب كعبي ضربة اذهلتني عما يجب ان افعل. كان شيخا كبيرا لا يبدو انه عربي. اصابعه تطقطق بمسبحته، ولسانه يلهج بذكر الله. لكن عينيه يسكن فيهما عفريت. انتابتني نوبة خجل...

كثيرون اضطجعوا تحت سقف المقصورة العالي. وغطوا في النوم. مكان بارد له نوافذ تهوية. ربما كان ابرد مكان في المدينة. واجمل مكان ايضا. واقل الاماكن ضجيجا. رجل راح يهزّ السلم الفضي تحت محراب السلطان سليم (محراب الامام المشرف على الجماعة) هزة ظننت انها ستقتلعه من مكانه. كان طالب حاجة. اذن، الحق مع الشرطة احيانا (دخلت الآن رفيقة غرفتنا العجوز ـ سادس اعضاء عائلتنا بالقرابة السببية ـ مزهوة جذلة، لأنها اشترت «صوغات»[1]. والنساء لا ينسين السوق اينما كن. اشترت «ململا»[2] رقيقا لفوطات الرأس. عليه نقوش اوراق البوكر، ونباتات الكزبرة والريحان، و... لابد انه من صناعة اليابان أو جابلق. وهو مع ذلك «صوغة» المدينة المنورة! لم اقل لها شيئا. لكنني اوصيت اختي أن تفهمها الأمر).

عصر نفس اليوم

حضرة رائد الشرطة المتقاعد ليس حاله على ما يرام. وضعنا كيس ثلج على رأسه واجبرناه على النوم. اخاله من اولئك المدمنين على التوحد، لذلك راح

---

(١) الصوغات هي الهدايا.

(٢) الململ نوع من القماش القطني الشفاف.

يتخبط خبط عشواء وهو بين الناس. طبيعة هذه الرحلة رعاية الادب فيها مشقة كبيرة. وهذا الرجل الذي لم يرض بخلع سترته الشتوية السميكة، لا اظنه يتحمل الرحلة الى آخرها. وهناك ايضا خالنا الذي تصاعد ضغط الدم عنده الى درجة عشرين. انا لا افهم هذه الارقام الى الآن. لكن ابن اخيه وهو شقيق جواد، عضو في الوحدة الطبية لقافلتنا. جاء اليوم واخذه لمركز الصحة، فقالوا له هناك «ولماذا جئت الى هنا؟» هو الآن مضطرب الحال جدا. الطعام لا يناسبه. ولا يستطيع المشي. ونحن لا نستطيع مرافقته اينما ذهب..

والآن معركة عنيفة في غرفة النساء. سباب وشتائم تترى. كأن اختي افهمت تلك العجوز ان مثل هذا القماش لا يناسب حجاج بيت الله. فصارت شاطرة وعرضت شراءه على امرأة اخرى. وأشكلوا عليها هناك نفس الاشكال، وسخروا منها، وتعال واسمع الضجيج بين الحجيج! طلبت من اختي ان تذهب وتخرج العجوز من الغرفة، وتهدّئ الاخريات. وجاء رئيس القافلة ينادي «ألا تخجلن يا حاجات؟!» وبصراخ عال ظننت معه ان حضرة الرائد سيفقد صوابه الآن.

جواد باع اليوم اثنتين من سجاداته بـ ٣٧٠ ريالا سعوديا. وجاء فرحا مسرورا. يقول انه ربح ١٥٠ تومانا. سجادات عادية جدا. عندما اعيد حساباتي اجدني من افقر هؤلاء الطيبين. وفرت راتبي لشهر كامل، مع بقشيش[١] السخافات التي اكتبها، وسرت الى الحج. بأربعة أو خمسة آلاف تومان. متاع جد متواضع.

حالنا في هذا البيت لا يشبه ابدا حال اصحاب السفر والترحال. لاسيما مثل هذا السفر. في هذا البيت الذي يشبه ابسط بانسيونات شارع ناصرية ـ في بوشهر طبعا ـ لنا غرفة صارت هيئة حسينية للصلاة، واستماع التعازي والنواح، وما الى

---

(١) مكافآت ما يكتبه.

ذلك... وغرفة نساء للعراك والقيل والقال. وعلى مدار الساعة. ولنا ايضا مصح. ذهبت اتفقد احوال الرائد المتقاعد. رأيت اثنين آخرين راقدين في جانب آخر من الغرفة. احدهما اصيب بالاسهال، والثاني بالزكام. لفحة برد على حد تعبير شقيقتي.

وجدت في متاعي فيتامين (C) واخذته اليه. ابتلعه وقال «اظن ان عندي مثله». وقد كان عنده. تقرر ان يبتلع الى المساء حبتين اخريين لتتحسن حاله. وانا الآخر لم يكن حالي على ما يرام. لم يفارقني الصداع من الظهر الى الآن. أو يمكن ان يبقى المرء وحيدا وسط الجماعة الى آخر السفر؟ كنا الى الآن هانئين بارستقراطيتنا العائلية. ولكن ماذا بعد ذلك...؟ (واضح ان حالي سيئة) يمكن بسهولة أن تكون مع الناس ولا تكون. ولم اصنع الى اليوم سوى أن رافقت الجماعة حذو النعل بالنعل. الكل طبعا اغنياء ومستطيعون! لكنهم فقراء الى درجة مفزعة. عاشوا اعمارهم في فقر تركهم لا يطيقون الهناء. احاول رفع معنوياتهم. ولكن بلا جدوى. تشعر بالتوحد، وانت بين مثل هذه الجماعة. حتى جواد لا يصدق اني انفقت الى الآن ٧٣ ريالا سعوديا. اعطيته اموالي، وكان له «هميان» في حزامه كالآخرين. وغير ذلك من المتاع واللوازم. وقد أخذ معه كل ما يحتاجه، سفر الى الصين. لذلك آخذ منه بعض الحاجيات احيانا. ومصاريفي؟ قميص بثمانية ريالات، وقلنسوة بريال. ونعال بريالين أو ثلاثة (لا اتذكر) قرطاسية وظروف بخمسة عشر. بطاقة وطوابع بعشرة. اجرة السيارة الى احد عشر. وماذا بعد...؟ آها.. اشتريت بطانية باثنين وعشرين. وهذا مجموعه ٦٩ أو ٦٨ ريالا. والباقي عصير فواكه أو مصاريف مقاهي، وما الى ذلك.. دعنا من حسابات البقالين يا حاج!

من الزنوج الافارقة نساء لا أُباليات جدا. «ديكولتيات» رسميا. بجيوب صدر تبدأ بعد اربعة اصابع اسفل الكتف، اما اعلى ذلك فللهواء الطلق. بعضهن

متشبهات بالغربيات، يرتدين ثيابا تصلح للتميع فقط، وبتلابيب مقرنصة. ربما كنّ فتات متاع الاجانب القاطنين في بلدانهم، أو الهاربين منها. ولكن قلما يرى في رجالهم اثر لثقافة اجنبية. باستثناء بعض كلمات فرنسية أو انجليزية، تسمعها في حواراتهم احيانا، وتعلم منها انتماءهم لمناطق الانتداب، أو البلدان الحديثة الاستقلال. عملاتهم لا تزال تحمل صور نابليون،، وملكة بريطانيا، أو ملك بلجيكا. والطريف ما حصل بالأمس. امام «باب النساء» وقفت امرأة افريقية فرشت على الارض بقچة كبيرة، ملأى بثياب عجيبة غريبة، مما مضغه الاجانب ولفظوه. لكنها بلا زبائن. كالثياب القديمة التي يتبرع بها اثرياء امريكيون للصليب الاحمر في سبيل الله. وهي الآن في المدينة ليشتريها الحجاج. اغنياء العالم الاسلامي يشترونها، ويأخذونها «صوغات» الديار المقدسة. كنت اتفحص هذه البسطة إذ رأيت زوج اختي. بعد مدة طويلة. زوج الاخت التي ماتت بالسرطان. كانت زوجته الثانية معه. وقفت بعد ذلك، وأومأت رؤوسنا بالسلام، تساءلنا الاحوال، وقال «اذا كانت معك نقود فاشتر ليرات... انها زهيدة الثمن هنا» قلت له يا رجل، ألا تعلم ان هذه البلاد بستان لدولارات «ارامكو»؟ لم يكن يعلم ما هي آرامكو. شرحت له القصة. قال: ليتنا التقينا في طهران. ولماذا؟ «لأنني اشتريت من طهران ليرات، وجئت بها الى هنا، ظنا اني سأربح بها، والآن ارى ان سعرها هنا اقل».

الاربعاء، ١٥ نيسان

المدينة

لم يعد ثمة شك في أن السعوديين اعتبروا يوم الاثنين اول ذي الحجة. وبذا سيصادف الاربعاء القادم عيد الاضحى. بفارق يوم واحد عن الشيعة. وهذا ما أثار نقاشات لاحد لها، ولا حصر. الكل مذعنون انه لا مهرب من مجاراة اهل البلاد،

ولا معنى للتفرد في مراسم الحج. ولكن هل تكون شيعياً وتتنازل لاهل السنة بلا تأفف ولا تململ؟!

سمرنا البارحة أُنفق كله في هذا القضية. معممونا صعدوا المنبر، واحداً تلو الآخر، وعالجوا القضية من كافة جوانبها. ثم جاء الدور للمداح، صوته جميل، إذا لم يكثر العربدة. انشد اشعاراً لطيفة، واوضح واعظنا «رمزية» مناسك الحج (واستعمل للاشارة الى كلمة «الرمزية» مفردة «سمبليك» الاجنبية. يجب أن انبهه ان ليس من حقه تغيير لغته من اجل بضعة متعلمين) وأن السعي بين الصفا والمروة وهو سعي هاجر لارواء ظمأ اسماعيل. والاحرام يعني ثوب التسليم الخالي من كل زينة، أو هو لباس الآخرة. لكنه لم يفطن ـ حسب ما يبدو ـ الى ان بناء الكعبة ونسبته لابراهيم الخليل يعني إسكان البدو الرحل في المدن والقرى، فهو رمز للتحضر والمدنية، وهذا ما سألفت اليه انتباهه ايضا. رجل طيب.. وحقاً.. إذا كان الخليل معمارا، ومشيد الكعبة. ونوح نجارا، ومصمم سفن، وداود صاحب مزمار، وشاعراً، ونبينا تاجرا، أي سفيراً بين المدن (وهل هذا مغزى تطبيق تجارة عكاظ على ايام الحج؟) أفلا يعني هذا ان كلاً منهم كانت له مهنة من مهن المدينة والحضر؟ إذن، لماذا كان موسى وعيسى من الرعاة؟ ربما امكن تبرير ذلك، بأن سلطة فرعون مصر وقيصر الروم اجبرت المعارضة على ترك المدينة، والهيام في الصحراء، والاقتراب اكثر الى التربة والطبيعة... أما ذوو الصلة ببواكير الحضارات السامية فيتعلم كل منهم صنعة ومهنة. وفي اساطيرنا الايرانية أن كيومرث «آسر العفاريت» كان يتعلم الطبخ، والخياطة و... الخ.

صباح اليوم مررت بحديقة مرجان، نسخة عن حديقة الصفا. بمسبحها، وانابيبها القريبة من السواقي، وظلالها، وغبطة الحجاج فيها. يكثر الآبادانيون هنا. جالسون وسط المنخفضات وتحت ظلال النخيل. عند الباب جلست ثلاث بنات من النخاولة (النخاولة جميعهم سود. من نسل بلال الحبشي. حسب ما يروجون

له باعتزاز) ينشدن نشيدا لم افهمه. تكرر فيه كلمة «الحاج... حاجي...». يجب أن اصغي اليه بدقة في المستقبل، والناس يتصدقون عليهن بما تيسر.

في طريق العودة، قرأت على باص لحجاج اتراك (Hacikurup) أي (مجموعة الحجاج) ثم مرت امرأة سوداء جميلة، لم يكن في احدى عينيها غير البياض. بياض ضاعفه وضاعف مرارته سواد وجهها. بدا واضحاً انها بلا زوج. وما ألهف المرأة حينما تكون شديدة الرغبة في الرجل، ولا تنظر الى الدنيا الا من عين واحدة!

ثم قصدت مكتب البريد. سألت عن سعر التلغراف. كل عشر كلمات باحد عشر ريالا سعوديا. لماذا؟ لأنه لا يوجد تلغراف مباشر بين العربية السعودية وباقي البلدان الاسلامية. لابد انهم مازالوا يستخدمون الخط البحري بين الخليج الفارسي وقناة السويس! يا للمهزلة! تلغرافات حجاج العالم الاسلامي لابد ان تذهب من جدة الى باريس ولندن وجنيف اولاً، ثم توزع من هناك الى مقاصدها. هذا هو أعلى نماذج الادارة.[1] اما الامريكيون في أرامكو في (الظهران والرياض) فلاشك ان دجاجهم الرومي ليلة الكريسمس، يصل ساخناً من لوس انجلس!

يمكن الصبر على جو البناية التي نحن فيها الى العاشرة صباحا. مع انني اكتب الآن، والعرق يتصبب مني. اكتب بقلم (Bic) الذي يستهلك جهداً اضافيا، وبعد ذلك الى الثالثة بعد الظهر رياح تصافح النوافذ الشمالية والجنوبية ببرودتها.

---

(١) وحال البريد اتعس من هذا. الرسائل الجوية تستغرق ١٥ يوماً، لتصل من المدينة الى طهران، بلا مبالغة. بعض الرسائل التي بعثتها لسيمين (زوجة جلال آل احمد) وصلت بيدي بعد ان وصلت طهران.

والمؤسف ان الرياح تحمل غبار واتربة البناية غير المكتملة. فلا تسلم الأعين والأوجه حتى داخل البيت. وفي اوقات العصر، حينما نخرج الى الشارع، أو نصعد فوق السطح، تتصاعد حرارة الجو، الى درجة تخنق الانفاس، لكن الجو لا بأس به هذه الليلة.

أورام الاقدام اقعدتني اليوم عن التسكع (يا لها من خزعبلات اثقل بها هذه الاوراق! يجب ان اختصر، فالدفتر يكاد يأتي على آخره). تصفحت الصحف التي اشتريتها. وهذه بعض احصائيات «البلاد» في عدد السابع من ذي الحجة ١٣٨٣ هـ: «عدد الاطباء في كل المملكة العربية السعودية ٥١٠ أطباء. المستوصفات والوحدات الصحية ٢٦٣، سيلحق بها ١٣٥ هذا العام. وستصل الى ٨٠٠ حتى آخر الخطة الخمسية. عدد المستشفيات ٤٨. والاسرّة عددها ٤٨٢٣. يضاف اليها ٨٠٠ سرير في المستشفيات الجوالة، في منى وعرفات، والتي تختفي طبعا بعد الموسم». وعدد النفوس هذه المرة اربعة ملايين. والمهم سلامة رأس من يحكم هذه البقعة من العالم باسم الاسلام، وبفضل ايرادات الحج، ومئة مليون طن من النفط سنويا.

الاربعاء مساء

يظهر اننا سنغادر يوم الجمعة الى مكة. جاء احمد بن وائل اليوم للقائنا. كان مساعد اخي، او دليله المحلي، ورافقه الى ساعة الدفن. رجل اسود طويل القامة، في نحو الخمسين من عمره. يبدو عليه المرح، والعافية، والاريحية. هو ايضا لا يعلم كيف توفي اخي. كان مدعواً في المساء الى مكان ما، وصباحاً بعثت زوجة اخي خلف بن وائل ان اسرع الى صديقك، ولكن الأمر انقضى. يقول: ان نفوس النخاولة خمسة آلاف، يعملون مزارعين، وقصابين، ودلالين، وما شاكل. هو ايضا من النخاولة. بعث اليه ابن أخي رسالة بيد جواد، أخذها اليه صباح اليوم،

وعاد به الى هنا وقت الظهيرة، ليتغدى معنا. حينما شرعنا في الأكل رأيته لا يأكل، سألته عن السبب؟ فقال ما لم تعطوني عهداً بالمجيء غداً الى بيتي للغداء، لن تمتد يدي الى طعامكم، بحسب العرف العربي، واعطيناه عهداً، لكنه جاء يريد حجاً ميقاتياً اكثر من قصده الاصدقاء القدامى. تصور اننا سنحرك ألسنتنا، ونوصي رئيس القافلة أو رفاق السفر. يقول جواد: انه يرضى بـ ٣٠٠ تومان. بلاش على اموات رفاقنا الحجاج... قال ان نفوس المدينة ستون ألف نسمة، وفيها ثلاثة معامل لانتاج الثلج. اثنان منها في الحديقتين المومأ اليهما (الآن على السطح المجاور يصحح الاخوة قراءتهم فاتحة الكتاب والسورة التي تليها في الصلوات، يقوّمون قراءاتهم لصلاة طواف النساء. ادخل المعممون في ادمغتهم انهم اذا لم يجرّوا «ولا الضالين» جرة عزيز مقتدر، حرمت عليهم نساؤهم طيلة اعمارهم.. قضية في منتهى الجد!!).

اثناء الغداء حدثنا جواد عن رجل وضع قدماً على درجة المحراب وقدمه الثانية على الارض، وكبّر تكبيرة الاحرام، ودخل في صلاة الجماعة. واذا بشفيق يجد له مكاناً انسب، فناداه اليه فاستجاب... وغيّر مكانه ثلاث مرات، وتكبيرته سارية المفعول. لم تكن قريحتي مفتوحة لأسأل جواداً واين كان بالك انت اثناء الصلاة؟ ثم حدثنا احمد بن وائل عن سوداني «ضرط» بصوت جهوري قبل الصلاة، ثم وقف يصلي.. والى آخر شريط تندرات الشيعة بالسنة.

ذهبت عصراً الى احد الحقول اطراف المدينة، الى الشرق من محل اقامتنا، للاستحمام، عند مضخات المياه، وبيدي عملة من ريال واحد. طرقت الباب. فتحها شاب قصير، بيده ابريق. «السلام عليكم، جئتُ للاستحمام». تبسم، ثم «تفضل». ومددت اليه العملة، فلم يأخذها، سألت العلة، تبين انه شيعي. سألته: هل انت من النخاولة؟ قال نعم، لكنه لم يكن اسود. يعرف بعض كلمات فارسية، كباقي القاطنين في مدينة تزار. يعرفون كلمات من لغات الزوار عادة، ثم تبين انه

كان يعرف اخي، فسألني عن حال ولده. كان في سن تجعلهما اصدقاء صبا. اسمه عباس، ثمّ ارشدني الى حنفية تستمد ماءها من بئر. قطرها اربع بوصات. شيدوا تحت خرير مائها حوضاً صغيرا من اسمنت. استأذنته، وطلبت صابوناً، وغسلت جسمي شر غسلة. نخيل الحقل كانت يافعة، زرعوا عند منابتها الفجل والريحان، وسار ماء الصابون في الساقية الى خلف جدار يفصل الحقل نصفين. تمتعت بالماء البارد، ورق قلبي للنخيل التي عليها أن تبتلع ماء الصابون، وكذلك اشجار الرمان. تفتحت ازهارها، فتضاعف رونها. اوراقها كثيفة وقاماتها القصيرة، منتشرات في كل مكان بجوار النخيل أو منفردات. ألوانها تقتل رتابة الخضرة والنخيل، وتسبغ على الحقل ألقاً وبهاء. المضخة تعمل باستمرار، والماء يرتفع، وانا جلست القرفصاء، كأنني غارق في بحر تحت ماء البوصات الاربع. وبعد ان انتهى الحمام، بقيت اتسكع في الحقول والازقة، الى ارتفاع أذان المغرب من مآذن مسجد النبي.

محدث جلب معه من طهران كتابين أو ثلاثة. احدها «هداية السبيل». رحلة حج فرهاد ميرزا القاجاري. اظنه هو الذي طبعت رحلته الى بلوشستان وكرمان مؤخراً. قرأت فيه بعض الوقت. لابأس به، نثره غير مقرف، على العكس من تظاهره بالفضل والمعرفة. يفهم في كل شيء ويخرج عن السياق شرقاً وغربا (وهذه الرياح تصفع وجوهنا بالاتربة بلا هوادة. لا طاولة هنا، ولابد من الاستلقاء على الارض لاجل الكتابة). وقد نظم قصيدة، وكتب رسالة الى الحاكم العثماني الفلاني، وروى شيئا من التاريخ... وهكذا، باقة من كل بستان. وشرح آداب الحج ومناسكه من الالف الى الياء، ككتاب فقهي تماما، مع ذلك فهو كتاب قيم، سأنهي قراءته في الطريق.

الخميس، ١٦ نيسان

المدينة

خرجت في السادسة والنصف، لقد تحسنت اورام قدمي. لقمة خبز مع شاي في مطبخ الطابق السفلي، واذا برئيس قافلتنا جالس بجواري يشتكي الحال، فلان اصابه الجنون تماما، يقصد الرائد المتقاعد، وحبسوه امس في احدى الغرف السفلية التي تستخدم كمخزن، لكنه خرج ليلاً الى ادارة الحجاج، وطلب إعادته من حيث جاء. ظننت انه يريد رأيي في الموضوع، لكنه لم ينتظر، وتابع يقول: حينما عاد كسر الصحون، ونثر اكياس الرز، وبال على جدران الغرفة، و.. الى آخره. هرع اليه الرجال، وكبلوا يديه ورجليه، وعفروه بالتراب، واخبروا الشرطة ليلاً، فجاءوا واخذوه للسجن المؤقت (حينما كنا على السطح سمعنا اصواتاً، لكننا لم نعلم ما هي). وذهب هو واخرجه من السجن، وبعثه في نفس الليل الى جدة، ليعيدوه الى طهران. يتفاخر انه استأجر لهذه المهمة سيارة صغيرة الى جدة بـ ٢٥٠ ريالاً سعودياً، وبعث معه أحد عمال القافلة. قلت: ربما تعجلتم، وعاملتموه بشدة وعنف، وقبل هذا ربما تدخلتم في شؤونه. ولكن ما الحيلة؟ يقول: «رحلة الحج كصحراء المحشر، لا احد يفكر في الآخر، وانا لا استطيع مراقبة هذا المجنون من الصباح الى المساء، وهو بين اعراض الناس» ... الخ. قلت له: حدث ما حدث على كل حال، واعطيته سيجارة وتوجهت نحو «الخندق».

في وسط الطريق بشارع العينية طرح رجل اسود (ربما كان افريقياً) كوماً من ملابس اجنبية قديمة، وراح ينادي ويصرخ. سرعان ما اجتمع الناس حوله، كان احد الثياب في يد زبون يتفحصه، كأنه ثياب العرائس، بتنورة طويلة من الخلف. مررت، في فناء «باب المصري» قامت سوق أعلاف الحيوانات، وتصاعدت عطور ورودها في الهواء. صفت رزم العلف الكبيرة على بعضها، وربطت بحبال طويلة. الناس تشتري كميات كبيرة، وتغادر، للماعز ولاشك، أو

للخراف التي سيضحى بها. تذكرت فرهاد ميرزا، الذي اشفق على الماعز، ونذر لها رزمة علف. الماعز المجترة، التي تأكل التراب والأوراق، وتلهث وراء المزابل، المتدلية الاثداء، القليلة الشعر، تبدو كالكلاب من بعيد.

في سوق الاطعمة والمأكولات يجمعون الجماجم والاكباد والقلوب والكلى، في قدر واحد، على واجهة الدكاكين، ومشاعل النار النفطية على الارض، والزبائن تتدفق افواجاً مختلطة، سوداً وبيضاً، وعرباً، واتراكاً، وفرساً، واكثرهم زنوج. يقفون طوابير تقريباً.

مررت بجبل السلع غربي المدينة كأنه يسدها سداً، لكنه في الحقيقة مجرد حاجز بين الحي القديم والجديد. حينما اردت اجتيازه من اسهل نقطة تملؤها البيوت والازقة، كنت امشي على بساط من الانابيب الابلاستيكية. كل واحد بلون. اخضر، واحمر، واصفر، وازرق. تأخذ الماء من جانب الشارع الى جانبه الآخر، ومن بيت الى بيت. انابيب طويلة تصل الى خمسين مترا، كالافاعي الملونة. شفافة لا تستر الماء والفقاعات التي تمر فيها. وحينما تقطع الانابيب الازقة، حيث تمر العربات، فانها تتحول الى انابيب حديدية، ثم تعود مطاطية، بعد ارتفاع الخطر. جلي ان مد انابيب المياة الصالحة للشرب غير مكتمل. اختتموا الانابيب بصنابير مياه، اشرأبت برؤوسها من باطن الارض عند كل تقاطع. وكل انبوب لبيت. عند كل صنبور مياه وقف ثلاثة أو اربعة ينتظرون دورهم، وأولهم راح يمتص الماء بشفتيه من الصنبور. توجهت ناحية الغرب، وكان الزحام أقل واجتاز الآن بمدينة اخرى، مكتظة بالزروع والنخيل واشجار الرمان. والنخيل كله يافع، وخلف جبل السلع، ناحية مفصولة عن المدينة، لكنها جزء منها.

جاء شاب على دراجته الهوائية ليسبقني، على طريق ضيق عند المنبت الغربي لجبل السلع، بعيداً عن طريق السيارات، لكيلا تلفحني الاتربة، تنحيت جانباً، عندما اقترب مني، سلمت عليه، وسألته: هل هذا طريق مسجد الفتح؟

لتمرين العربية فقط. قال «أي» وذهب، لكنه توقف على بعد خطوات، وانتظرني الى ان وصلته، ثم تفجرت قريحته. محاضرة كاملة عن الحج، وثوابه، وانني اقصد مسجد الفتح ماشيا، بقصد الاجر الاخروي، ولكن ما هذا الشارب؟! سألته: من أي المذاهب يكون؟ اجاب انه من المالكية. سألته: كم مذهب اسلامي تعرف؟ قال: اربعة، فأخبرته اننا في بلادنا نعرف ٧٢ مذهبا، وانا من اتباع واحد منها، فما كان منه الا ان عبس وتولى.

بالأمس أو اول امس، لا اتذكر، تقدم رجل وسلّم ورحّب، و: «من أي الفرق أنت؟» بلغة فارسية. نظرت اليه وعلمت انه يشير الى شاربي. قلت له: يا عم نحن اضل واشقى من ان ندعي هكذا ادعاءات.[١] شعر وصوف ينمو بنفسه. ليس سوى اننا نتبرم بالحلق والتعديل... والخ. فبهت الذي سأل. كان له ايضا شاربه، لكنه خفيف. يبدو انه في الخمسين، وشديد التذمر. نهض وانصرف، ولو مكث لذكرت له أن نكيراً ومنكراً يطرقان الانسان في الليلة الاولى من الدفن، ولكن ليس من السهل محاورة العرب. وانا لا انطق كلمتين الاّ بألف يا الله ويا محمد. وغالباً ما لا يفهمون عربيتي. ثم ان هذا الفارسي الذي اراد معرفة فرقتي، انما كان يفتش لنفسه عن انيس. يريد من يحادثه في غربة سفر لا تعد بلحظة من عمر الزمن. لكن ذاك الشاب العربي كان من اهل البلاد، ولابد انه يرى لنفسه تميزا وفضلاً، كالفرنسيين في باريس، وتعاملهم مع الاجانب، أو كأهالي مشهد. سألت زوجتي احداهن عن الطريق ذات مرة، في اطراف الحرم الرضوي بالذات، امرأة ترتدي الشادر، فنظرت لزوجتي شزراً، وقالت بلهجة مشهدانية حادة: «اعرف، ولكن لا اخبرك».

---

(١) يريد ان كثافة شاربه ليس دليل انتمائه لفرقة دينية أو صوفية معينة.

مسجد الفتح قابع على مرتفع، ومطل على سيل حفر فيه سلمان الخندق. الماء المنحدر من أحد يعرج خلف جبل السلع، ويتجه غرب المدينة. وهنا الارض منخفضة، تشبه المسيل. وبجانب المسيل على سفح الجبل، تصطف المساجد التاريخية لتلك الواقعة. مسجد سلمان بعد مسجد الفتح، ثم مسجد ابي بكر، وعمر، وعلي، ومسجد الزهراء ايضاً. اكبرها مسجد ابي بكر، بثلاثة اطواق محدبة وايوان، والمساجد الاخرى ما عدا مسجد سلمان ذات اسس قصيرة وسميكة، ولكل منها طاق وايوان. حافظوا فيها على العمارة البدوية، وليس لمسجد الزهراء أي من هذه، مجرد صفة تحت السماء، وحولها جدار منخفض جداً. وعلى جهة منه محراب صغير جداً، يدل على اتجاه القبلة.

عند الرجوع صادفت شاباً آخر، على دراجة هوائية ايضاً، يلح على عضلات رجليه، كي يصعد المرتفع بدراجته، وينشد اغنية حماسية، يسرق لها انفاسه، ربما منحته القوة على الصعود. لكنني لم اعد اطيق تمارين العربية. كان الشاب متغير اللون بالشمس، وعيناه جد واسعتين، بل ان عيون البدو اسلم واصح بكثير مما شاهدته في العراق (صيف ١٩٤٣م). هل بسبب اختلاف البيئة؟ أم نتيجة الادوية والعلاج؟ والصحة المنتظمة التي تراعى منذ عشرين سنة في هذا الجزء من العالم؟ أياً كان فإن عيونهم بريئة من الامراض. شيوخهم ضعيفو البصر في الغالب، لكن الشباب والاحداث ذوو اعين كبيرة سوداء لامعة. وبنات المدارس البالغات يضعن على اكتافهن ما يشبه المشالح، يطوينها على الياقات، ويفتحنها من الامام عن قمصانهن البيضاء أو الملونة، وعلى رؤوسهن الى العنق خمار من ململ أسود، كأنه قبعة كبيرة. الحقيقة أن وحدة لون احذيتهن هي التي لفتت انتباهي أول الأمر، وقفت كل اثنتين أو ثلاث في رأس زقاق، في الحي السكني على السلع، والشباب يتلصصون النظر اليهن من بعدي. بعضهم يحبس بين اصابعه سجائر، تدليلاً على الرجولة. والغمزات والاشارات... الى ان وصل باص «مدرسة

البنات» ذاته، وصعدن فيه افواجاً. كانت الساعة بحدود الثامنة صباحاً.

حينما وصلت الى «الباب المصري» استوقفتني رائحة زهور الاعلاف، دسست قدماً داخل احدى الرزم، ووقعت عيني على دكان حلاقة. دخلته، وطلبت ابريق شاي من المقهى المجاور، وكنت اتذوق الكأس الثاني، إذ جاء دوري. مكثت اشرب الشاي نصف ساعة، ثم بدأ الحلاق يحلق رأسي، ونحن ندردش، بعدها جاء على لحيتي، واراد تقصير شاربي، فمنعته: «هذا شأني»، ثم نهضت، واعطيته عملة من عشرة ريالات، فاعاد لي خمسة منها. لم احلق لحيتي من طهران الى الآن، وبدأ شعرها يحكني.

بعد ذلك جئت دائرة البريد، وكانت مغلقة. ساعتي تشير الى التاسعة الاّ ربعاً. سألت بائعاً شاباً في دكان مجاور لدائرة البريد عن سبب اغلاقها في هذا الوقت. فقال: انها ستفتح ابوابها الساعة الثالثة. عجيب!! الساعة الثالثة؟! مد إليّ ساعته، وكانت الثالثة الأ ربعا. عجيب! فهم إذن يعطلون ساعاتهم وقت الغروب. ثم اشتريت بعض مجلات لبنانية ومصرية. منها «اخبار الاسبوع» أو «الاسبوع الماضي». تصدر في مصر، وكانت الرقابة قد اقتطعت المربع الذي يحمل اسم المجلة على الغلاف. أما بقية اجزاء المجلة فلم يمسسها سوء. مليئة بذلك النوع من الصور، والتغريب، والوحدة الاسلامية، وشتائم اسرائيل، واقوال غوستاف لوبون، وغيرها من الترهات. ثم تذكرت المكتبات العامة، اثنتان منها متجاورتان، في الضلع الجنوبي لمسجد النبي. الاولى حديثة البناء، وغير مكتملة. اسمها «مكتبة المدينة المنورة العامة». بناية اسطوانية من ثلاثة طوابق. صالة المطالعة في الوسط، والطوابق العليا كالاروقة المدورة. الرفوف مكدسة في جانب، وخالية من الكتب. وفي جانب آخر تكدست الكتب في صناديق، وبضعة اشخاص يروحون ويجيئون بايقاع بطيء. يبدو ان وقتاً طويلاً سينقضي قبل أن تصبح مكتبة. ثم خرجت.

على بعد عشر خطوات منها قامت «مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت».
بوابة، ثم باحة فسيحة، بحوض وحديقة، وحجاج بثياب الاحرام مسترخون على المصطبات، بجوار الباحة، المسقفة بخشب مشبك، يزدحم بانواع النباتات المتسلقة، وربما اغصان العنب. ما اطيب الباحة وألطف أجواءها، ثم خلع الاحذية، وبعد ذلك الى تحت القبة، كأجواء مراقد الاولياء في ايران، ولكن بلا ضريح في الوسط. رفوف الكتب تغطي كل الجدران، وترتفع الى حافة القبة، وعلى الارض وسائد خلف منضدات ارضية صغيرة، ومقر رئاسة صغير مقابل الباب الرئيسي. واسفل شباك يطل على مسجد النبي، جلس رجل بنظاراته، ودشداشته الناصعة البياض، وخماره الانصع بياضا. يتكئ على مخدة، خلف طاولة، مكباً على شغله. سلمت عليه وجلست عنده، وذكرت له انني ايراني، ومن اهل كتابهم، وتوالت الاسئلة، الى أن سقط في يده. كان مدير المكتبة، لكنه لا يفهم العربية. اضطر ان ينادي مساعده الذي كان يرتب الكتب. قزم بوجه مدور. علمت من سلامه انه افغاني. كان من اهل كابل، اسمه عبدالوهاب. جاور الحرمين الشريفين من عشرين عاما. مرتبه ٣٠٠ ريال سعودي، ومديره يتقاضى ٧٠٠. ميزانية المكتبة ٢٠٠٠ ريال في الشهر فقط. عدد المراجعين في الايام العادية عشرة اشخاص الى عشرين. ويرتفع الرقم في ايام الحج الى مئتين. عندهم سبعة آلاف كتاب. خمسة منها مخطوطة، والبقية مطبوعة. في التاريخ، والادب، والدين، والقرآن والتفسير، والتراجم، والرجال. ليس في كل المدينة غير اربع مكتبات حسب قوله. الثالثة «مكتبة السلطان محمود العثماني». والرابعة... تداخل الكلام، وتركنا الرابعة. ثم جولة قصيرة امام رفوف الكتب. النسخ الخطية محفوظة داخل علب زجاجية، على طاولة قصيرة. وكرتان ارضيتان «مجعدتان» عند الباب الشرقية للمكتبة. لا تزالان صامدتين تحت الغبار على مساند ثلاثية. وفهرس المكتبة، في ستة دفاتر. اوراق كبيرة، بأغلفة جلدية. ومن المقرر

تحديث المكتبة قريباً، وتنظيم «بطاقات» كما في المكتبة المجاورة، ولكن حالياً ـ تابع يقول ـ لا تزال معظم المكتبات في المملكة على هذا النمط القديم. الكتب مكدسة على بعضها فوق الرفوف، وكعوبها امام الانظار. بعضها ذات اغلفة جلدية. وليس فيها كتاب يقف عموديا. كأن روحي سافرت الى ايام الخلفاء. الخلفاء العباسيين. برودة الهواء تحت طاق المكتبة مريحة جداً. قدموا لي شايا. في «كأس» اهيف الخصر، منقش. وحبات سكر بجواره. ما كنت اود النهوض، لكنني نهضت. تصفحت بعض كتب الحديث، وقدمت شكري وامتناني، والى اللقاء. عليّ ان اخبر محدثاً بوجود هذه المكتبة.

عندما خرجت من باحة المكتبة، وقعت عيني على بناية حجرية من طابقين. من تلك الاحجار السوداء خارج المدينة، جميلة جداً، على الطراز العثماني، كتب فوق بابها انها تابعة للاوقاف، ثم رقم التسجيل، والوقف؛ تشبه البانسيون. وجماعة من الزنوج يدخلون ويخرجون، وبضعة اشخاص جالسون على صفتيها. تند عن بابها رائحة مرافق مخلوطة بـ «الكريولين». ازهدتني في الاستفسار عنها.. واطلقت رجلي للهرب.

يوم الخميس ايضا

كنا مدعوين وقت الظهيرة، في بيت علي بن وائل، بيت قديم كله من الطين، في حي النخاولة، وبالآداب والاعراف القديمة، الآلة الحديثة(!) الوحيدة في تلك الدار، مروحة سقفية، ومصباح كهربائي طويل، وطبق مطاطي للفاكهة. عنب، وموز، وتفاح. دخلنا من باب احادية المصراع، ضيقة، ممر مظلم بارد. اوقدوا فيه بعد دخولنا مصباحاً، وصفة على اليسار، تشبه مقر الرئاسة، ترتفع قرابة متر واحد عن الارض، ثم غرفة الاستقبال. ولكن لا اثر لأخي اطلاقاً. اذا تابعت الممر وصلت الى سقيفة، المطبخ في جانب منها، وعلى الجانب الآخر الغرف

«الدخلانية». وبئر البيت في زاوية منها، بجواره الحمام، والمراحيض. الصفة مفروشة بسجاد «مشك آبادي» ومحلي، والجدران مغطاة الى ارتفاع متر واحد بـ «اللينوليوم». والوسائد موزعة على امتداد الجدران، وسجادات ايطالية بمناظر عثمانية معلقة على الجدار. فرش المائدة بنفسه، وحينما اردنا مساعدته نظرنا شزراً، وافهمنا ان هذه ليست من صلاحياتنا. الغداء رز ودجاج، ومرق قيمة تركي، وباذنجان، وفاكهة كثيرة، برتقال، وموز، وتفاح، وخيار، وكلها طبيعية. والسماور يغلي بمائه، سماور فحمي، تفوح منه رائحة الاحتراق، وعدته ان اهديه سماوراً نفطيا، اذا زارنا في طهران. عصير الفراولة في وعاء كبير، طعمه قريب من الـ «ليمولاكس». والخيار طازج، ومن محاصيل مكة، كخيار الاهواز. اما البرتقال والتفاح فمن لبنان، ملفوف باوراق رقيقة، عليها علامة الشركة الموزعة. بلغ بكرم الضيافة اعلاه. له ابنة بالغة، ترتدي عباءة، وتخدم الضيوف، وترمقنا بعينيها الواسعتين احياناً. فضولاً وتعرفاً ربما.

تكلم جواد: «كان علينا ان لا نقبل دعوته، الا بشرط تزويجنا ابنته...». وابنه في السابعة من عمره أو الثامنة، مهذب الكلام جدا. ما كنت احب ان العربية تتسع للطافة الاطفال في الكلام. يسمي «كنتور» الكهرباء[1] «عدّاداً». وبدا لي انها ترجمة ممتازة. وتبين ان نقل الحجاج من المدينة الى مكة كان يتم الى ما قبل ثلاثة اعوام بسيارات الحملة (الشاحنات)، بينما ينقلونهم الآن بحافلات مخلوعة السقوف، اروح طبعا للمسافرين.

نمنا القيلولة بعد الغداء، ثم ودعنا وانصرفنا، توجهنا جميعاً الى مسجد قبا جنوب المدينة، على مسافة اقل من المسافة الى أحد. المسجد الذي نزل فيه انه

---

(١) ميزانية الكهرباء.

«اسس على التقوى». مسجد كبير، فاره، بمنارة واحدة، ورواق باتجاه القبلة، وعلى جانب منه عدة اروقة، وصحن فسيح. الطريق اليه يمر عبر المدينة الجديدة، جنوب المسجد النبوي. (جبل السلع في الغرب، والبقيع في الشرق، قاطعا الطريق على التنمية المدنية. والشمال ينفتح على أحد، والاجواء ذات طابع ديني، فلم يبق الا الجنوب يضم الاحياء غير ذات الصلة بالطابع الديني للمدينة). أو عبر الحقول والبساتين الجديدة. ويا له من رمان بأزهار باسقة! والمآذن تنتصب على المساجد الحديثة البناء، بطرازات حديثة، وكلها من الاسمنت، لكنها بيضاء. وكثير من الابنية غير مكتملة، والشوارع جديدة هي الاخرى، وحفر الانابيب، واعمدة الكهرباء، والاحياء نصف المكتملة...

اليوم نفسه مساء

عرجت اوان العصر على الحقول في اطراف «باب العوالي». شرق المدينة، وجنوب البقيع. تعبيد الشارع ينتهي الى الصحراء، في البركة على جانب الطريق تطوف علبة ملونة. غلاف «قلونيا بورجوا» صناعة باريس، لابد انها «صوغة» ابتاعها الحجاج من السوق، ثم لم يصمدوا لاغرائها. ولاصوات مضخات المياه انواع مختلفة: «بوروب، بوروب». و «جيك، جيك، جيك، جيك» و«حق،حق،حق». «هاپ، هاپ، هاپ» و«هور، هور، هور». وكآبة الغروب، والشعور بالغربة لاول مرة. واسئلة الذات: «لماذا جئت الى هنا؟ للزيارة؟ للعبادة؟ للتفرج؟ للسياحة؟ للكشف؟...» وعدت الى المدينة.

امام باب البقيع التي كانوا يخرجون منها الحجاج، اكوام من قناني «الكولا» الفارغة في صنادق خشبية، ترتفع على بعضها الى اعلى الجدار. وساءلت نفسي عن مبرر الأمن والأمان الذي تعرف به السعودية، دعائياً؟ وهل القصص التي تتناقلها الافواه صحيحة؟ الحجاج ليسوا لصوصا، لأنهم اغنياء

ماداموا يستطيعون القدوم الى هذه السفرة، ثم انهم جاءوا للعبادة أو الزيارة، ولكن ماذا عن اهل البلاد؟ الشحاذون والفقراء كثيرون. والحمّالون.. الحمّالون.. الحمّالون.. ولكن لم يبلغ احد عن سرقة لحد الآن. لا ترى عسكريين، بيد أن الشرطة تتجول في كل مكان، حتى داخل المسجد الحرام، وتجوالهم مزعج الى حد ما. يتفسحون (بدل الحجّاب ذوي العصي). بهراوات فضية، واقبية، ومناديل، وتبختر، و... الخ.

صفوف صلاة المغرب تفرقت منذ زمن، والناس حلق حلق يتحاورون، والوعاظ يخطبون. احدهم لم يكن عربياً، لكنه يعظ بعربية فصيحة، فتذكرت سعدي الشيرازي. واعظ آخر جلس على سرير، وامسك مكبرة صوت تعمل بالبطاريات، ولكن لا يسمع صوته الا هو (يبدو ان البطاريات عاطلة). يتحدث عن تعارض الاسلام والغرب. اباطيل «نزعة التغريب» مرة اخرى. والآخر شاب لم تنبت لحيته بعد، وصوته مبحوح من كثرة الصراخ، يتمنى تحقق الوحدة الاسلامية. الآخر عربي اسود طويل، بعمامة بيضاء لفها بطريقة شامية، وطوى عباءته طيات كثيرة مرتبة، الى ان جعلها شريطاً رفيعاً ألقاه على عاتقه. يتكلم بفصاحة وطلاقة وبلاغة، لايشك معها سامعه انه خطيب بالولادة. موضوعه اسباب الهجرة، وكون الخليفة الاول صديقاً، ومؤامرة اغتيال صاحبي الغار من قبل الكفرة الفجرة. وتطعيم دائم لنثر خطابي جزل بآيات من القرآن.

والطريف انه ناح للناس ايضا. لم ار من اهل السنة من ينوح ويرتل التعازي قبله. نواح على آلام ومحن ذينكم الرفيقين في سفرهما المعروف، بل اجهش هو ايضاً بالبكاء في لحظة من اللحظات. في ذروة الهياج والانفعال، واذا بصوته يتكسر باكياً، وغطّى وجهه بيديه، وتعالى صياح المستمعين. في تلك اللحظات وضع احدهم يده على كتفي، التفت اليه، ابيض الوجه، يتكلم التركية بابتسامة، افهمته اني لا اجيد التركية، فاستغرب لذلك، اوضحت له السبب (يظنوننا اتراكاً

دائماً، الحلاق ايضاً ظنني تركياً). كان خياطاً من اهل «مالطا» واصر على تبادل العناوين. ثم تركت المكان.

امرأة انامت طفلها عند قدميها، ووقفت تصلي. الطفل لا يتجاوز العام الواحد، فاتح ذراعيه ورجليه على الارض، بعيون كبيرة مغلقة، مكحّلة اشد التكحيل. خرجت من المسجد الى البيت، احاول الوصول متأخراً، خوفاً من ذلك السيد البروجردي ومجلسه الليلي على السطح. يتعجب من اني اصلي الجماعة مع أهل السنة. ولا اصلي خلفه. قلت له مرة: «عزيزي، لقد جئنا هنا لنتلاحم ونندمج وسط الجماعة، ولم نأت لنتمايز ونتفرد». ولكن لا اخاله يفهم هذه الاشياء. المسكين حذف كل مقدمات اسمه ومؤخراته، ولم يبق الا البروجردي. ظناً منه ان «كل مدعبل جوز» كما في المثل الشعبي. ويصعد المنابر ببيان بارد ولهجة محلية تصك الاسماع. يتحدث عن الشكوك والسهويات. والأسوأ منه رجل بدأ مشواره بالتكبير في صلاة جماعة هذا البروجردي، وشاهدته الليلة يتدرب على النوح والمدائح، وكأن النواحين والمداحين والوعاظ كانوا قلة في قافلتنا، حتى وجب ان نأخذ هذا المداح «صوغة» الى الاوطان.

(لا ادري هل في المدينة دار سينما ام لا، لم ار شيئاً من هذا القبيل في الاحياء الدينية، ولا ادري الحال في الاحياء الجنوبية الحديثة التي مررنا عليها اليوم بالسيارة). وما هي احاديث النحرير على المنبر؟ قصص القرآن تقليداً لواعظنا، وأن الله امتحن حتى سليمان وابراهيم، فما بالنا نحن؟ اما امتحان ابراهيم فمعروف. لكنني لم اسمع بامتحان سيلمان. نعم.. كان لسليمان مئة زوجة، ولم يكن له منهن جميعاً سوى طفل واحد. وكان يودع طفله عند الملائكة خوفاً عليه من الجان، واذا بطفله يسقط ميتاً على عرشه. في الفات نظر شديد اللهجة بأن يودع طفله عند الله لاحقاً. كل هذا تفسير للآية ﴿القينا على كرسيه جسداً ثم اناب﴾.

الجمعة، ١٧ نيسان

مانزال في المدينة

اصابني الاعياء اليوم، من سوء حالي في الليلة الماضية، ولا طاقة لي اليوم بشيء. أكثِر من شرب الماء، والماء الذي اشربه مثلج، ونوع من النظام الغذائي، يعتمد البرتقال وعصير الفواكه. تقول اختي: «عودت معدتك اسوأ تعويد». وضيافة علي بن وائل بالامس. والتقيؤ صباح اليوم. فزعت شقيقتي لحالي. وجاء رئيس قافلتنا يولول: ألم اقل لكم لا تمشوا طويلاً تحت الشمس...؟! واخيراً اخذونا ظهراً الى الطبيب، لم تكن لي طاقة على رد اسئلته، المغص يقلبني ذات اليمين وذات الشمال، اعطاني الطبيب Caboguanicidine. وطلبت من جواد ان يشتري لي Entero-Vioform ايضاً، لأن صيدلية المركز الصحي لم يكن لديها هذا الدواء، لأنه باهظ الثمن، والميزانية قليلة.. مع انهم اخذوا مسبقاً من كل حاج خمسين توماناً لهذا النوع من الادوية.. تناولت ادويتي بانتظام، لكن المغص لم يفارقني، ولا ازال معتكفا في المرافق! والمشكلة اننا يجب ان نتحرك الليلة الى مكة. اربعمئة كيلومتر في الصحراء، في سيارات الجنود، وبثياب الاحرام. ويكدسون السيارة بالاحمال من الآن. الكل في حركة دائبة، اما انا فمضطجع في غرفة خالية، لملموا افرشتها. وكان سريري بطانية، القيتها على اكياس الاسمنت الفارغة. اظنني زكمت ايضاً، البارحة كان البرد نموذجياً... ما عدت اطيق شيئاً، الساعة الآن الثالثة والنصف من بعد الظهر.

السبت، ١٨ نيسان

مكة

وصلنا مكة في الرابعة والنصف فجراً، بعد ان انطلقنا البارحة في الثامنة والنصف، وقد كانت السيارة باصاً، من تلك الباصات الحمراء، التي خلعوا سقفها.

صعدها الرفاق من الخامسة عصراً، واحتلوا مواقعهم فيها، ويا للصبر والانتظار.. الى ان جاء جواد ينادي علي في الثامنة مساء. لم احصل على مكان مناسب طبعا. الرتل الثالث بجوار خالي. كنت الثالث على كرسي مخصص لشخصين. السائق كان آدمياً، ورئيس القافلة يزعم انه اكرمه ورشاه. والسيارة لم تعطل. خبت بنا على نفس واحد، باستثناء وقوفنا في «رابغ»، وفي مسجد «الحلفية» قبل ذلك لارتداء الاحرامات. حدث ذلك في جنح ظلام، ولا ماء هناك، ولا مرافق. تطهرنا على اضواء الباص. كنا قد ارتدينا الاحرامات في المدينة. ومراسم المسجد، ثم صعود الباصات، والاسراع صوب مكة. سقف السماء يظللنا. وما ادنى النجوم؟! وما اقرب السماء! و«العقرب» امام انظارنا. ولفحنا الهواء بقوة (السرعة كانت بين الثمانين والمئة) مكدسين في السيارة، والقيت على عاتقي مسؤولية مراقبة الخال، الذي ربما سرح في نومه، وارتطم رأسه بخلفية الكرسي حيالنا. لم اكن في ليلة من ليالي عمري مستيقظاً الى هذه الدرجة، وواعياً اللاشيء الى هذا الحد. تحت سقف تلك السماء، وذلك الابد، انشدت كل ما حفظته من اشعار، همست بها لنفسي. انعمت النظر في نفسي ما استطعت الى أن طلع الفجر، لم ار نفسي سوى «قشة» وفدت الى «الميقات». ولست «شخصاً» قصد «الميعاد». شعرت أننا في الابد زمان، أي في محيط «اقيانوس» الزمن، و«الميقات» تقرع نواقيسه في كل ثانية، وفي كل مكان، وفي سرائر المتنسكين. فـ«الميعاد» موضع لقائك بالآخر، اما «الميقات» فموعد لقائك بنفسك، وبنفسك فقط. وطابت لي مقولة ذلك الزنديق الميهني أو البسطامي[1]، حينما خاطب زائر بيت الله عند بوابة نيشابور: ضع كيس

---

(١) الميهني هو الشاعر والعارف الايراني الشهير ابو سعيد ابو الخير نسبة الى مسقط رأسه «ميهنه»، ويريد بالبسطامي العارف «بايزيد البسطامي».

نقودك هنا، وطف حولي، ثم ارجع لبيتك!

بدا لي أن السفر وسيلة ناجعة لمعرفة الذات، اختبار الذات في مختبرات الاقاليم المختلفة، بادوات الوقائع واللقاءات والبشر، واكتشاف تخومها، الضيقة جداً، والوضيعة جداً، التي لا تساوي شيئاً ابداً.

اليوم نفسه

في البيت الحرام

يبدو انهم في العام القادم سيبنون بالاسمنت مرافق البيت الحرام، على غرار مسجد النبي. المسعى بين الصفا والمروة تحول الآن الى ممر عظيم من طابقين اسمنتيين، وليس هذا وحسب، بل يشيدون الآن حول الكعبة من كل الجهات اروقة من طابقين على شكل مربع، ليهدموا بعدها الرواق العثماني القديم، وقد هدموا الآن أحد اضلاعه، الضلع المجاور للمسعى، ولاشك انهم سينسفون بعد عام او عامين كل الاضلاع الاخرى. صحيح أن المطاف حول البيت سيكبر ويتسع لجماعة اعظم من الناس، اربعة اضعاف ما يستوعب حالياً على وجه التقريب، لكن المشكلة هي هذه الهياكل الاسمنتية التي يلصقونها على قواعد خرسانية، ويرفعونها الى عنان السماء... يزهدون في هذه الاحجار الغرانيتية الجميلة الموفورة، ويلوذون في كل بناء بالاسمنت وقوالبه المنفرة. يستشف انهم لن يوفروا من الرواق القديم الاّ بعض مآذنه. ارضية المطاف حول الكعبة مفروشة بالرخام، وكذلك الدوائر الداخلية. الناس اكثر ازدحاما في المسعى بين الصفا والمروة، واقل عدداً في الطواف، وحينما تبدأ الشمس اشعاعاتها القاصمة، يتقوّض الطواف حول البيت.

اجلس الآن في الطابق الثاني من الرواق الجديد، واخط هذه السطور، والكعبة من هنا نصف ما كنت اتصوره. يبدو أن مهندس هذا الرواق الجديد لم

يلتفت الى انه إذا تلاعب بالنسب، فقد غير مفهوم العمارة. الكعبة لا تزال بحجمها وقامتها السابقة، أما الرواق فتضاعفت سعته وحجمه وارتفاعه، وهل من الصلاح أن يغيروا حجم الكعبة ذاتها؟ اذا جعلوها من الاسمنت! (مر بي الآن رجل طويل القامة بدين، داكن البشرة، بيده مظلة، وقال: «اكتب اسمي ايضاً في مذكراتك يا حاج، قندهاري من مشهد».. حسناً، وهذه ذكراك سجلتها. كان في صوته نبرة استهزاء، يبدو ان الكتابة في مثل هذه الأماكن مؤشر رياء ثقافي، ومع اني شاهدت الى الآن عدة اشخاص يسجلون شيئاً على اوراقهم أو دفاترهم، ولكن ينبغي اجتناب الكتابة على رؤوس الاشهاد).

عصر اليوم نفسه

مكة

البيت الذي استأجره رئيس قافلتنا يقع شمال مكة، عند الجبل الهندي، في حي يسمى «سليمانية». مؤلف من ثلاث غرف كبيرة، في ثلاثة طوابق. كدسوا النسوة في الطابق الاول، والرجال في الطابقين الآخرين، وصاحب البيت وزوجته وعياله انتقلوا الى السطح. يقول زعيم قافلتنا: انه موظف في المالية بمكة. موظفو المالية كلهم من سنخ واحد اينما كانوا من العالم... السيد البروجردي واتباعه - وقد صاروا الآن جماعة يعتد بها - صعدوا الى الطابق الثالث، ونسمع دوماً اصوات اذانهم، وتعازيهم ونواحهم. أما غير المتشددين من امثالنا، ومن لا يرون حاجة ماسة للوعاظ والملالي، فسكنا في الوسط، والتحقت اختي بالنساء، وبقينا نحن الاربعة مع بعض رفاق المحلة التي يقع فيها بيت والدي، وثمانية مازندرانيين أو عشرة، وطاجيكي سقزآبادي، يصر على اعلان نفسه طهرانياً. ويفسد لهجته دائماً ليبرهن على مقولته، والانكى انه يجرب السجائر الاجنبية دوماً، ويسمعنا نتائج تجاربه سعالاً متواصلاً. للبيت حمام تحول من فوره الى مخزن تابع للمطبخ،

وهناك حمام في كل طابق، ودورة مياه، وفي طابقنا غرفة صغيرة بشبابيك ذات زجاج ملون، استولت عليها العائلة الاصفهانية الارستقراطية، التي كانت لنا في المدينة، اغتصبوها منا في مكة. ثلاث نساء وثلاثة رجال، وكلهم شباب. وفي جانبين من غرفتنا صناديق خشبية عالية تشبه المصطبات، خصصت لكبار السن والشخصيات الاثيرة، أما البقية فيفترشون الارض ببطانياتهم وينامون، ونأكل جميعاً على مائدة كبيرة.

شيخ كبير من مازندران يشبه «نيما»[١] الى حد كبير، وله نفس مشكلاته مع هذا الطعام وذاك، كأنه رغم شيخوخته طفل صغير. لا ادري ما الذي ازعجه من ابناء منطقته اثناء الغداء، فأخذ صحن طعامه واعتزل في زاوية الغرفة، زعلان، وبعد الغداء انبرى متحدياً: «انتم يا من قرأتم الكتب! هل تعلمون الفرق بين «گردة» الصلاة و«بلندة» الصلاة؟» (كأن الكلمات في فمه حينما يتكلم اجسام تتقلب على سطح الماء) ولم نكن نعرف هذه الاعاجيب طبعا، فأوضح لنا ان «گردة» الصلاة هي صلاة الجماعة حول الكعبة، و«بلندة» الصلاة، هي صلاة الجماعة في مسجد قريتهم. يبدو عليه مأخوذاً جداً بلقاء الكعبة الاول، وشرع الآخرون بعده بحكاياتهم وقصصهم ولطائفهم، التعب كان قد فارق الجميع.

مكة منطقة جبلية اكثر من بيت المقدس، مدينة صخرية جداً، ويالها من صخور غرانيتية! كان من الطبيعي ان يملأ عرب الجاهلية البيت بالتماثيل. البيت الحرام في وادي وسط الجبال، في مصب المياة الجبلية، وماء زمزم خزان يجمع مياه الامطار المنحدرة من هذه الجبال الغرانيتية، والشوارع ذات انخفاض وارتفاع، تبعاً للوديان، والبيوت على الجانبين ترتفع تدريجياً مع سفح الجبل،

---

(١) نيما يوشيج، رائد الشعر الفارسي الحديث، وصديق جلال آل احمد.

وفي كل مكان من الجبل سكة الى حي آخر، وزقاق. والشوارع ترتدي اضواء مصابيح الفلورسنت، وعلى جانبيها ناطحات سحاب اسمنتية، غير مكتملة، لكنها ملونة بخليط عجيب من الالوان، لاسيما الابواب، والشبابيك الساطعة. اخضر، واحمر، و... الخ، الوان قروية وساذجة، شوهت وجه المدينة بامتياز. وما اكثر مواقف السيارات، والبانسيونات، والدكاكين، الدكاكين، الدكاكين.

هدموا اطراف البيت الحرام من كل جانب، ليقيموا ساحة لم تكتمل بعد، ولاتزال مغطاة بالاحجار والاتربة، والحجاج يعبرون هذه الوعورة بصعوبة. البناء هنا لا يحتاج الى حفريات للاساس، فمهما كان البناء عالياً يمكن تثبيته على الارض الصخرية، باستثناء المنخفض وسط المدينة، والذي يكتنف البيت الحرام. وهو في الواقع اشبه بقاع جفنة كبيرة، ترسبت فيها الرمال، وقد حفروا هناك اسساً عريضة للاروقة الجديدة، وقوالب الاسمنت لا تزال منتصبة. والجانب الشرقي للبيت الحرام متصل بالمدينة بشبكة متراكمة من الخشب وقضبان الحديد.

حينما وصلنا بوابة مكة فجراً، استقبلتنا نافورة ملونة يصعد ماؤها ثلاثة امتار أو اربعة. منصوبة وسط ساحة البوابة، وتمنيت لو أن «مهام» معنا ليبتهج ويفرح، وهو يرى ان العالم كله يرتدي الرونق الذي يروق له، والشوارع غاصة بمصابيح ساطعة. وكذا مآذن المسجد الحرام الشامخة، والمسجد الحرام بالذات. حينما يكون لله بيت في بقعة من بقاع الارض، فهو يعلم طبعا ان هذه البقعة ستقع يوما في قبضة السعوديين، وستتكالب عليها المصابيح بفضل هيمنة النفط وتصديره. لا اقول لماذا لا يستعملون فوانيس نفطية بدل هذه المصابيح، ولكن لماذا لا يطلبون من الشركات المصنعة مصابيح خاصة، باشكال وتصاميم مميزة تستوحي هذه العظمة الروحية والدينية؟ فهلا فكروا في تمييز اضاءة الحرم؟ ام ان بيت الله زبون كغيره من زبائن «بنسلفانيا»؟! الذي يحصل هو تلويث عوالم الغيب بمصالح الكارتلات.

مررت صباح اليوم على المركز الصحي، وكم كان مكتظاً بالمراجعين! ضربات الشمس والاسهال بكثرة. صلعة احد رفاق سفرنا الاصفهانيين تورمت اوراماً مفزعة. اخذت «سولفوگوانيدين» وخرجت. لا ازال ممسكاً محتمياً، من الشاي ومعلبات الفاكهة. فارقني الألم والمغص في المدينة قبل ان ننطلق الى مكة. بمساعدة حبات من الـ«بلادون». واخذت حماماً بعد الظهر. كان الدش معلقاً فوق قاعدة المرحاض، ففتحت الماء على رأسي. رآني بعض رفاق السفر، فحدجوني بنظرات تذوب لها الصخور، معناها انك تتنجس بهذه الطريقة، لكنهم لم يقولوا شيئاً، فمن ابرز مهمات الحجاج في مثل هذه السفرة عدم الخضوع لاوامر الآخرين بالمعروف، ونهيهم عن المنكر... الغداء اليوم كان لباب الرقي والخبز والجبن. جلسنا حول مائدة جماعية، ربما ضمت عشرين حاجاً أو يزيدون، وفتحت انا معلبات فاكهة، رششت عليها بعض ماء الليمون ليمكن اكلها. لا قبل لي بالحلاوة. تركت اليوم شرب الماء، ولم يكن الا الشاي، الشاي، الشاي.

اليوم نفسه، السبت

مكة

ما ابعثه على القرف هذا السعي بين الصفا والمروة؟! يعيدك في لحظات الى قبل ١٤٠٠ سنة، بل الى عشرة آلاف سنة، بهرولته السريعة، وتمتماته العالية اللاارادية، وبما فيه من سقطات تحت الايدي والارجل، وذهول الناس عن كل شيء. والنعال المبعثرة هنا وهناك، وإذا اردت أخذ نعالك بيدك رطمك التيار، وضعت تحت ارجل الناس، واحداق الساعين التي لا يقر لها قرار، متعاضدين جماعات جماعات، ويركضون بغبطة، وعربات الشيوخ والعجائز، والحمالات الخشبية، كل واحدة على أكتاف رجلين. وذوبان الفرد في الجماعة، أتراه اقصى

غايات هذا التجمع الكبير؟ وهذا السفر...؟ عشرة آلاف انسان.. وربما عشرون ألفاً يمارسون شعيرة واحدة، في آن واحد. وهل يمكنك ان تفكر بنفسك وسط هذا الانعتاق الجماعي الهائل؟ فتعمل شيئا آخر بمفردك؟ التيار يجتاحك ويأخذك اخذاً وبيلاً. هل حدث ان كنت وسط جماعة من الناس مذعورة، وهي تهرب من شيء ما؟ ضع كلمة «منعتقة» مكان كلمة «مذعورة» في الجملة السابقة، وضع «حائرة» بدل «تهرب»، أو ضع مكانها كلمة «لائذة». انت مسلوب الارادة مئة بالمئة، وسط هذا البحر العاصف من البشر. تنسلخ كلمة «الفرد» هناك عن كل معانيها ومدلولاتها، ولا يبقى فارق بين الألفين والعشرة آلاف.

اليمنيون بشعورهم المنفوشة الوسخة، وعيونهم الجاحظة، والحبال مشدودة على خصورهم، كأنهم يوحنا المعمدان، وقد فرّ من قبره. والزنوج طوال ضخام مميزون، يهرولون بكل اجسامهم والرغوة تعلو شفاههم. وامرأة تأبطت احذيتها، وراحت تركض مولولة، تماماً كالتائهة في الصحراء. والناس كأنهم ليسوا آدميين، يمكنهم مد يد العون لبعضهم. وشاب قوي ضاحك يجري على الارض، ويزيح بكتفيه هذا وذاك، كأنه ابله في سوق مزدحمة. وشيخ يتنحنح، ويتلقى الدفعات، ويجرفه التيار الى الامام. وجدتني عاجزاً عن رؤية نعشه مسحوقاً تحت الارجل. اخذت بيده، واجلسته على دكة ممدوة وسط المسعى، تفصل الذاهبين عن الآيبين. جماعة من النساء (عشر نساء أو خمس عشرة) على بياض احرامهن خلف العنق علامة، شكل مطرز باللون البنفسجي. وكل واحدة تمسك باحرام الثانية من الخصر، ويمشين في طابور خلف المطوف.

ذروة الانعتاق والذوبان يمكن ملاحظتها في نهايتي المسعى، المرتفعين قليلاً، حيث ينبغي الاستدارة والعودة. واليمنيون عندما يصلون النهاية يقفزون ويستديرون ويسلمون على البيت، والبدء من جديد.. ووجدتني لا استطيع المواصلة. اجهشت بالبكاء، وهربت. وعنّ لي ان ذلك الزنديق الميهني أو

البسطامي اخطأ خطأ فاحشاً، إذ لم يلق بنفسه تحت ارجل هؤلاء السعاة، أو لا اقل من ان يلقي انانيته تحت اقدامهم، حتى الطواف لا يثير مثل هذه المشاعر، والهياج الروحي.

في الطواف حول البيت تسير مع الناس باكتاف متلاصقة باتجاه ما، تدور معهم حول شيء معين، أي ان ثمة هدفاً فيه ونظاماً. وانت ذرة في دائرة عظيمة تجول حول مركزها، فانت إذن متصل بمنظومة معينة، ولست منعتقاً متروكاً لحالك، والاهم من ذلك انك لا تواجه احداً هناك. تلاصق عواتق الآخرين، ولا تنظر في وجوههم، فلا تبصر الانعتاق والهيام الا في التدافع والتلاحم، أو تسمعه مما تلهج به الالسنة. لكنك في السعي تذهب وتجيء، حائرا كحيرة هاجر، ليس ثمة هدف أو وجهة، والذي يضجرك حقاً في هذا الرواح والمجيء هو تلاقي النظرات في كل لحظة. الحاج عند السعي يُختزل الى قدمين تهرول، وعينين ذاهلة ساهمة، تهرب من نفسها، وتهيم هنا وهناك.

العيون يومئذ ليست عيوناً، لكنها ضمائر عارية، أو هي ضمائر جلست على اعتاب العيون، تنتظر أوامر الفرار، وهل يتسنى النظر في هذه العيون لاكثر من ثانية؟! كنت اظن الى اليوم انه لا يمكن التحديق في عيون الشمس فقط، لكنني اكتشفت الآن تعذر ذلك مع بحر العيون الساعية ايضا.. ولذت بالفرار. بعد شوطين فقط من الذهاب والاياب، يتجلى لك بكل وضوح اية لانهاية صنعتها من هذا الصفر، وذلك حينما تكون متفائلا، وقد شرعت لتوك. والأ سترى نفسك اقل حتى من الصفر حيال هذه اللانهاية، كقشة في البحر، بحر من البشر، بل ذرة هباء في الفضاء. اقول بصراحة، شعرت كأني اقترب من الجنون، لفني شوق عارم أن ارطم رأسي بأول عمود اسمنتي وافجره... لا اطيق السعي الا اذا كنت مكفوف البصر.

بعد الخروج من المسعى يطالعك السوق بزحامه وضجيجه. جلست في جانب متكئاً الى «دار المسعى» انقع غليلي بواحد من هذه «الكولا»، وسرح

خاطري صوب افكار قديمة قرأتها لاحد الكتاب الاجانب، حول علاقة الفرد بالجماعة، وان الجماعة المكتنفة للفرد كلما كانت اعظم واضخم كلما اقترب الفرد من الصفر، وجدت ان الـ «انا» الشرقية التي تنسى نفسها وهمومها في خضم هذه المساواة حيال عوالم الغيب، هي ذاتها التي تدعي الالوهية، حين تفردها المطلق اثناء الاعتكاف، بالضبط كذلك الزنديق الميهني أو البسطامي، وغيرهما، ومرتاضي الهند كذلك. ولاحظت انه بمقدار ما تضحي هذه «الانا» بنفسها في غمرة الجماعة، يُضحى بها في سكرات التفرد. ما الذي تبلغه اليوغا في اقصى اطوار الرياضة غير هذا؟ الرضا يحوزه المرتاض، فاذا لم يكن له سلطان على العالم الخارجي، فهو ذو سلطة على جسمه وذاته بلا مراء. واذن، ما الفرق بين اصالة الفرد واصالة المجتمع؟ في السعي نهرب من قيود الذات، ونمارس طقساً يرمي الى الغاء «الانا». سواء في الذهن أو في الخارج. وباليوغا نبقى داخل اسار الذات، فبما اننا لا نستطيع تغيير الاحوال خارج نطاق اجسامنا، لذا نكتفي بسلطاننا على اجسامنا، مهما صغرت حدود ذلك السلطان. في السعي نرضخ لسلطان الجماعة، ولكن حيال العالم الغيبي وحسب. وفي اليوغا نقلص سلطة الجماعة الى الصفر، ولكن حيال العالم الغيبي ايضا. وماذا سيبقى اذا سلبت العالم الغيبي هذه المعادلات؟! في هذه المنظومة التي نسميها «الانا» لا اصالة للفرد ولا للجماعة. الاصالة لعالم الغيب الملاصق للسوق. والمطروح الآن تحت احذية الشركات. الفرد والجماعة صورتان مؤقتتان قبال مصدر ابدي للمعاني. في مثل هذا النطاق فقط تكتسب كل من «آية الله» و«ظل الله» معناها.

سواء كنا فرادى أو جماعات، اغلقنا على انفسنا ابواب عوالم الكشف والعمل، في حين ان أياً من الفرد أو الجماعة لا يتلبس معناه الأ حينما نتحرك من الفرد الى الجماعة بقصد اكتشاف أو بالعكس، كذلك الداعي القباديانى بالضبط، والأ فلنا ١٤٠٠ سنة نسعى، وآلاف السنين نعتكف ونناجي ونتضرع، ولكن لا

بقصد الكشف. الرضا عن الذات وجه آخر لعملة وجهها الاول التضحية بالذات. والحال ان هذه الذات، ان لم تكن ذرة تصنع الجماعة، فهي ليست حتى «ذاتا». ليست بشيء اصلاً، ما هي الأ تلك القشة المتسكعة، ولكن (وألف لكن) اذا انخرطت في نطاق ايمان ديني، أو خوف مقدس، فستصنع الاهرام، وسور الصين، بل ستصنع الصين كلها، بل الشرق برمته، منذ هبوط آدم والى اليوم.

بهذه الاختلاجات والافكار، وبعد ان رويت ظمأي بالكولا، قصدت بئر زمزم. نقلوا فتحة البئر الى الاسفل، بجوار البيت، سلم عريض وسط الصحن، تنزل منه الى فسحة، مدوا الانابيب على جداريها المتقابلين، وبين صنبور مياه وآخر خطوتان، وعلى كل صنبور وقف طابور من بضعة اشخاص، بايديهم عبواتهم، ودلالهم، واوعيتهم. ثم بوابة تنفتح على مكان مبني يكن في داخله بئر زمزم. لا يسمحون بدخول النساء فيه، وهو الافضل. ويا للملحمة والضجيج، كأنه حمّام رجال! الكل مغسولون بالماء، والعرق، وفوق البئر ثلاث بكرات متدليات من السقف، يمتد من كل واحد حبل الى داخل البئر. والدلاء تصعد وتنزل تلو بعضها، ولكن يستحيل عدم الاسراف في ماء الدلاء. الاوعية التي جاء بها الحجاج لأخذ الماء مغطاة باغطية، عليها ثقوب صغيرة تفتح وتغلق. فهل يمكن في ذلك الزحام والتنافس والعجلة صب مياه الدلاء الكبيرة في هذه الثقوب الصغيرة؟ مشيت وسط الماء، ودرت دورة، وخرجت. الاحرامات ملتصقة بالابدان، وتنافس ساخن، يرتقي الى مستوى الصراع احياناً، ولكن بلا كلمات نابية، صراع على اخذ دلاء الماء، واخلائها في الأوعية التي يراد لها ان تكون «صوغات» مكة. والعياذ بالله من رجال الشرطة، المبثوثين في كل مكان. بقبعاتهم ورتبهم ومسدساتهم، احدهم وقف عند فتحة البئر يتفرج على دوران البكرات، ثيابه التصقت بجسمه، ولاماء يقطر من رأسه ووجهه، يتحسس بيده مسدسه على حزامه، ويهفّي على وجهه باليد الثانية. وخيم على فتحة البئر رجال مربوعون،

يسحبون الماء الى الاعلى، ويصبونه على رؤوس الناس، كما في الحمامات. وهل كانت السماء ستنطبق على الارض لو اعفي الحجاج عند بئر زمزم من رؤية هذه النياشين والسلاح والزي الرسمي الصارخ، بان هذا المكان خاضع لحكومة وسلطة؟ حتى في الحج، لا سبيل للهروب لحظة واحدة من هذا الواقع الملزم المهين. بلى.. الاّ بتدويل مراسم الحج اسلامياً... والخ.

من المناظر الجديرة بالمشاهدة، استعداد البعض خارج الحرم أو تحت الرواق للطواف، المطوف يصدر توجيهاته، والآخرون يصغون بدقة، ويترجمون لبعضهم، وبعدما يفهم الجميع المقصود يمسكون بايادي بعضهم، أو احرامات بعضهم، وينطلقون، على شكل مراوحة في البداية، ثم يبدأ الهجوم. لكنني واثق انهم يتشرذمون في الهجوم الاول، فتأخذ التيارات كل واحد منهم الى ناحية، ويتيه عليه طريق العودة الى البيت، ويبقى متسكعاً ضائعاً نصف النهار.

والنساء متفرجات حقاً في هذه المراسم، لا يسمحون لهن بدخول البقيع، ولا بدخول مشاهد أُحد، ولا بئر زمزم، والليلة تجمع بعضهن على سطح الطابق الثاني من المسعى، وتقدمن الى حافة السطح لاداء الصلاة. وهن مغتبطات لهذا الانجاز الكبير، يتفرجن على البيت والطائفين. واذا باثنين او ثلاثة من التركمنيين يصلون، ويفهمونهن ان على النساء التأخر خلف الرجال، فتأخرن.

والاقمشة الطويلة المفروشة تحت الاقدام! يبللونها أولاً بماء زمزم، ثم يمدونها بطولها للحجاج، على الرخام في المسجد الحرام، وعلى الرمال ايضا (لم تكتمل تغطية ارضية المسجد بالرخام بعد) لكيلا تكتوي اقدام الحجاج. ولتعم البركة هذه الاقمشة، وتبقى ذخراً في الدار الآخرة. الاكفان اعظم الصوغات التي يعود بها الحجاج الى ديارهم، ناهيك عن الاحرام الذي يحتفظون به طيلة اعمارهم.

صعدت الى السطح الشرقي، وجلست للصلاة. في مكان على حافة السطح

مطل على كل المسجد وضواحيه. ارتفع الاذان في السادسة وعشرين دقيقة. اكثر تأخيراً من المألوف في المدينة. وحينما ارتفع الاذان، اخذ الطائفون حول البيت، ابتداءً من اطراف الدائرة الى مركزها، يجلسون على الارض صفوفاً دائرية. وعندما كبر المكبر، كان المسجد كله صفوفاً تصلي، إذ ذاب بقية الطائفين بين الصفوف بطرفة عين. الأ ان الحركة ما تزال مشهودة عند الحجر الاسود الى ان نزلنا للركوع. وما ان رفعنا رؤوسنا حتى كان المسجد كله صفوفاً. كل الاروقة والسطوح. اعظم جماعة بشرية تجتمع لامر في مكان واحد. لابد لهذا الاجتماع من معنى. معنى ارقى من المساومات والسوق والسياحة وقضاء الواجب والطقوس والاقتصاد والحكومة والف ضرورة اخرى...!

وحينما بلغت الصلاة السلام، انفجر الناس الجالسون امام الحجر الاسود في لحظة واحدة. بقصد الاستلام. ثم تبددت الصفوف. وعاد الطواف. بدايةً، نهضت الصفوف المجاورة للبيت وراحت تدور حول الكعبة، ثم تبعتها الصفوف الابعد فالابعد. بقوة طرد مركزية تغمرها الطمأنينة والرصانة. وبما يشبه تفتح الجنابذ. السادة الذين يشيدون هذه الاروقة الجديدة يعرفون عظمة المهمة الموكلة اليهم. ولكن واسفاه! والعياذ بالله من كل هذه الصروح الاسمنتية. ومع ذلك، حينما يفرغون من البناء فسيكون اكبر معبد غير مسقف على وجه الكرة الارضية. بمئذنتين عملاقتين تتنافسان في استلام عنان السماء.

عندما كنت انزل الدرج. لاحظت فجأة ان ارجلي تحرقني بشدة. تنحيت الى جانب ورحت افتش عن السبب. انحنيت فوجدتها اوراماً وتفقعات جديدة. ثم لمحت ساق رجلي تغطيها بقع حمراء. وبقع اخرى على بطني وصدري وعضدي. السبب كبدي المعلول، وهذه الشمس الجهنمية.

الاحد، ١٩ نيسان

مكة

توجهنا صباح اليوم لزياة قبر ابي طالب. فوق شعب «ابي عامر» امتداداً للمقبرة الجديدة في مكة. آخر الوادي الشمالي. حطموا عن عمد كل شيء وخربوه. ذاك عن البقيع، وهذا عن مقبرة مكة. احجار رخام منحوتة منقوشة ببعض الكتابات، مكسرة شر تكسير ومبعثرة هنا وهناك. ولا يمكن معرفة أي شيء وأي مكان، الأ بدلالة دليل. وهكذا تحول التراث والقبور زوادة على أظهر بعض الناس. تخريب قبر في هذا الجزء من العالم (الذي يحرقون فيه الكتب) يعني احراق كتاب. فكل قبر كتاب مسدود، وشاهدته غلافه. أو العكس. وهؤلاء سدوا حتى الغلاف. والأ لماذا ندفن الاموات في القبور؟ ولماذا لا نحرقهم؟ إن تمايز الموتى، في ثقافات الامم التي تدفن موتاها، مؤشر على تمايز الاحياء. ولكن، هل الأمم التي لا تدفن موتاها (الهندوس وغيرهم) منقطعون عن ثقافاتهم؟ ثم أي قبور الناس العاديين يبقى لأكثر من ثلاثين عاماً؟ انما هي قبور العظماء التي تتحول مراقد وملاجئ واماكن زيارة... دعنا من هذا.

رخامة تشبه العمود (مكسورة ملقاة طبعا) باسم فلان من القادة العثمانيين. وحجارة اخرى ببقية اسم من الاسماء «شموئيل سلطان داغستان» (كذا) واحجار منتصبة على القبور، بنقوش كنقوش السجاد منحوتة ومصقولة. وانا اتجول بين فتات التراث، اتمتم بالسباب والشتائم. واذا بشاب يقترب. بابتسامة تشي بقرابة أو صلة. والسلام، والاحوال. وكان شيعياً من اهل الاحساء. المنطقة التي زارها ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري، حياة أهاليها نصف اشتراكية. وبثثنا الهموم بشأن المقبرة والقبور. كان في نحو الرابعة والعشرين. قلت له لنجلس مكاناً ما ونحتس القهوة، وندردش، ومشينا. لم يكن لديهم قهوة. ورضينا بعصير المانجو.

يُلم بالانجليزية بعض الالمام. اقل مني. موظف في شركة ارامكو بمرتب ٦٥٠ ريالاً في الشهر. (اظنه يبالغ) دردشنا ساعة. بحثاً عن عظمة صدر الاسلام، وقضايا اخرى... يقول في آرامكو كلها يعمل سبعة آلاف عربي، وثلاثة آلاف امريكي. المراكز النفطية الرئيسية ثلاثة، الظهران، وعبقيق، ورأس تنورة. وليس في هذا الثالث غير المصافي. والانتاج السعودي من النفط يبلغ مليوني «برميل» ولم افهم الكمية المقصودة. ولم يستطع ترجمتها الى الاطنان. يقول لكل واحد من تلك المراكز الثلاثة مدير، والمدير العام يسكن الظهران. ومرتب كل واحد منهم عشرة آلاف الى اثني عشر الف ريال في الشهر. ومرتب المدير العام ثلاثون الفاً. بينما اعلى مرتب للعرب السعوديين ثلاثة آلاف في الشهر. ثم سألته عن «عبدالله الطريقي» الذي كانت له صولاته وجولاته في قضايا نفط الخليج يوما ما. وفيما يربحه الاجانب وينهبونه. قال انه الآن في المنفى. في امريكا، أو لبنان. وربما كان مشغولاً بالتدريس. خريج امريكا. من الشباب الذين درسوا بانفاق من ارامكو. حينما عاد الى البلاد خطا خطوات، لدعم العمال والموظفين المحليين. فبدا لهم فرداً مشاكساً، فطردوه. يقول ان الاغلبية شيعية في الهفوف، والقطيف، والاحساء، ٨٠ بالمئة منهم شيعة. فتذكرت القباداني[١] تارة اخرى، وحدثته شيئا عن القرامطة ونقلهم مكان الحجر الاسود، وغيرها من التجاوزات. لكنه لم يكن يعلم شيئا عن التاريخ. منقطع عن التراث تماماً. الا انه شديد الاهتمام بطهران وملم باخبار (١٥ خرداد)[٢] وكان يسأل عن نتائجها... يقول ان الشيعة لم يسمح لهم بالتدريس في السعودية الا منذ سنتين. ثم راح يفخر بانه كان المقرر ان يأتي

---

(١) ناصر خسرو، شاعر رحالة واديب ايراني معروف من أعلام القرن الخامس الهجري.

(٢) انتفاضة الشعب الإيراني ضد الشاه، بتاريخ ١٥ خرداد ١٣٤٢ش (١٩٦٣م).

آية الله محسن الحكيم للحج هذا العام. لكنه لم يأت. لأن الحكومة السعودية لم توافق على كل شروطه. وما هي الشروط؟ بناء مزارات البقيع، وتحديد محراب للشيعة في البيت الحرام (وكنت قد رأيت اماماً واحداً هناك، وليس اربعة ائمة) واخيراً السماح للشيعة برؤية الهلال. قال ان السعوديين وافقوا على الشرطين الاولين. ولم يوافقوا على الاخير. ثم سألته عن شركات النقل التي تأخذ الحجاج بباصاتها. كان عارفاً بالموضوع اكثر مني. قال انها ثلاث شركات «باخشب» لرجل بهذا الاسم. و«شركة العربي» لرجل اسمه التميمي. و«شركة التوفيق» لرجل اسمه «شربتلي». اصحاب ملايين سعوديون. وهناك طبعاً سهم لـ «الملك المعظم» من كل واحدة منها. والسيارات كلها امريكية «فورد»، «شوفرليت»، «دوج».

ثم سألني ما هو مذهبك؟ قلت له اتمنى أن اكون على مذهب المسلمين في صدر الاسلام. اندهش وتعجب. ولماذا جئت الى مكة اذن؟ اجبته لا ادري. فقال صحيح اذن ما يقال عن الايرانيين...؟ وامسك كلامه. ثم اضاف بعد هنيئة انه من الافضل بالتالي اختيار واحدة من الفرق الاثنتين والسبعين، والاّ بقيت حائراً. قلت له انني ما ازال حائراً في هذا الاختيار بالذات.

على مائدة الفطور (خبز وجبن وشاي) اختلف محدث مع السيد ذي اللحية الملونة (ابيض، واسود، واحمر) على مسألة في الصرف أو النحو. كان السيد هادئاً، لكنه شاطر ومراوغ. اما محدث فيصرخ ويغلي ويقسم بالبيت العتيق. بادرت لمساعدته، حتى لا يظن السيد انه ازاء رجل عامي. مضافاً الى ان الحق كان مع محدث. السيد بحكم عمامته وحيثيته لم يكن يرغب التراجع امام اناس يسألونه في الشكوك والهويات، فتبدو ثقافته دون غيره، لكنه كان فعلا اقل ثقافة وتعليماً. ومحدث لم يفطن الى هذه النقطة. اياً كان اقترب الرجلان من الامساك بالتلابيب. بدأت اعرف محدثاً لتوي. هو ذاته الطلبة المهووس بالمباحثة قبل خمس وعشرين سنة.

كانت الصحف العربية المحلية مكتظة اليوم بالتباهي والتعالي، لأن السعوديين اعدوا بأنفسهم استار الكعبة هذا العام، ولم يقبلوها من المصريين. وقد غسلوا الكعبة صباحاً ليبدلوا استارها. وكان في فم كل واحد من جماعتنا العائدين من الطواف ملاحم جبارة. لأنهم شهدوا تبديل استار الكعبة. وكان الزحام كمحشر يوم القيامة. احدهم اسودت قدمه من كثرة ما تلقت من الدفرات. وآخر اضاع حذاءه. وثالث صار واصحابه خفراً كي يستطيع صاحبهم اداء الصلاة في مقام ابراهيم، وسط الزحام المفزع. وهكذا ينتقل الدور بين السادة. اما انا فاشتد بي وجع الظهر. السعي بين الصفا والمروة طويل ومتعب. مع اني لا استطيع المواصلة في كل مرة لاكثر من شوطين. اصاب بالقرف، واهرب من المكان. الطواف اسهل واروح. ولكن لماذا وجع الظهر هذا؟ آها.. بسبب عنف اليمنيين، يضعون مرافقهم في ظهور الحجاج، ويضغطون من الجانبين، ليفتحوا لانفسهم الطريق. شاهدت هذه الحالة اكثر من مرة. لكنني لا اتذكر انني كنت الضحية في احدى المرات. لكن هذا حصل على اغلب الظن. لأن المشي لم يرضرض ظهري لحد الآن.

امس غروباً، قصرت كالآخرين. لاخلع عني الاحرام، قصرت شاربي. في طرفي المسعى، وعلى مرتفعي الصفا والمروة، وقف بعضهم يقصرون للحجاج، وبايديهم المرايا والمقاص. يقطعون خصلة من شعر الرأس، أو اللحية، أو الشارب، ويأخذون مالاً. وصارت صخور الصفا والمروة كارضية دكاكين الحلاقة. من خصلات الشعر الذي يقصرونه من كل حاج. أخذت المقص والمرآة من أحدهم، وقصرت شاربي بنفسي. اعطيته نصف ريال وانصرفت.

اما هذه الشمس الجبلية في مكة، فبالغة الخطورة. عاودني سعالي الجاف. وقطرة «ايبيزاندرين» في كل يوم. وما اكثر الحجاج الايرانيين القرعان! الشيوخ منهم بالطبع. والقرويين منهم بالاخص. احدهم شيخ ساكت معظم دهره، يخفي

قرعته بقلنسوة، ويتحاشى الآخرين دائماً، كأنه دجاجة مريضة. يعيش في الممر ليله ونهاره. لم افطن اليه في المدينة. لكنني لاحظته هنا. امس حينما ذهبت لاشرب ماء من قربتي، التي اعلقها على شباك الغرفة، رأيته. الكل جالسون على مائدة الغداء. بينما اعتزلهم متوحداً، وامامه جفنة ماء مثلج. جمع ركبتيه الى حنكه كالمهموم، وراح يدخن. تماماً كالطفل الذي وبخه ابوه. كأنه جاء للاعتكاف وليس للحج. جلست بجواره، وقلت له هذه الاشياء. بأنه من اهالي «تفرش»[1] ووحيد ولا رفيق له في القافلة ولا واحد من ابناء مدينته. والانكى من القافلة، ولا ذلك انه مصاب بالاسهال. ناديت على شقيقتي من غرفة النساء، لترى إن كان لدى احداهن طعام ينفع حالته، جاءته به. ثم خاطبته: «عزيزنا الحاج، الكل يصابون بالاسهال. الجو ليس على ما يرام. وانا مازلت محتمياً. ليس الاسهال جربا»... ومن هذه الخزعبلات، فصار يجلس بين الجماعة. الواقع أن حادثة رائد الشرطة شوشت بالي. لكن هذا التفرشي يعرف على الأقل كيف يحمي رأسه الاقرع من هذه الشمس الخبيثة. غيره لا يعرفون حتى هذه. فتتفقع رؤوسهم، وتعلوها البقع الحمراء. رأيت احدهم في المركز الصحي برأس متورم. وقد لفوا على رأسه عمامة كبيرة بدل الشريط الطبي. الشمس تقصف هذه الرؤوس القرعاء فتملؤها هواء. وشيئاً فشيئاً اصبحت طبيب جماعتنا وسكرتيرهم. اقراص الملح. فيتامين C. ايبزاندرين. والى آخر هذه العجائب... والشريط الطبي (اللفاف) اكثر من كل شيء. يعودون من الطواف أو السعي، وكأنهم عائدون من معركة خيبر. جرح واحد لكل شخص على الاقل. وجميعهم يعلمون اني امتلك شريطاً طبياً. ابهام قدم احد المازندرانيين كان مسلوخ الجلد بفظاعة. لففت عليه

---

(١) مدينة وسط ايران.

ثلاثة اشرطة. وكتبت اليوم رسالتين بوصفي سكرتيراً لذلك المازندراني الذي يشبه «نيما». وكان اسمه طريفا هو الآخر. الحاج «بائوچ» وما معناه؟ لا يدري هو ايضا. رسالته عبارة عن سطرين من اخبار السفر، ثم صفحتين من التحيات، لقرابة خمسين شخصا. احدهم المشهدي منوچهر!

وتعرفت على اسعار جديدة: اللبن الرائب المعلب بنصف ريال (وحامض جداً) قربة من جلد الحمل أو الماعز بثلاثة ريالات. الماء كل دلو بنصف ريال. ولا تحمله الى الأزقة المرتفعة الا الحمير. يحمل الحمار الواحد ثمانية دلاء. توضع حمالات صغيرة على ظهره، وتحمل كل اربعة دلاء على جانب. والناس تحمل الماء ايضاً. يضع الواحد منهم عصا غليظة على كتفه، ويعلق على كل طرف دلواً. لكن الاسعار لا تختلف. والحمير تصعد السلالم بخفة، وبطريقة متعرجة. كالبغال على الجبال. نحتوا على الارض سلالم في الازقة المنحدرة. والحمير مكوية بعلامات مختلفة على اردافها واعناقها. وجلودها كالسجاد تماما. ربما رسموا العلامة أولاً على الجلد ثم يكوون موضعها. اماكن الكي منزوعة الشعر بيضاء، او انهم صبغوها بالألوان. والحمير كلها «بندرية». ونشيطة جداً.

ومكة اخذت في التنمية بسرعة، كأي مدينة اخرى. «التطور» امتد حتى الى المقدسات. لا تقترب من «مقدس» الا وتلاحظ أن القدسية ليست في العالم الخارجي. وانما في الداخل. في ذهنك انت. أو انها كانت في ذهنك. ورمز كل مقدس كامن في حدوده وحريمه. في المسافات الفاصلة. فاذا ارتفع الحريم، عاد المقدس شيئاً، أو انساناً، أو مدينة تتطور. واذا كانت يثرب تتمدد على الارض، فمكة ترتفع جواً. البنايات تعلو وتعلو. والازقة ترتفع على سفح الجبل ايضا، التعبير الدقيق هو أن مكة تنبت من الارض وتنمو. الاسس الاسمنتية في كل مكان يغطونها من الداخل بالاحجار بدل الطابوق. ولا أثر البتة للنجارة التقليدية الجميلة، فالشبابيك كبيرة حديدية زجاجية. هنا ايضا ورطة استهلاك المنتوجات

الاجنبية. وتحت هذه الشمس الخطيرة!

لثلاث مرات تقريباً، شاهدت شباباً يمسكون باكف عرائسهم ويطوفون. شهر العسل في الحج. بدا لي انهن عرائس من براقعهن البيضاء الجميلة المطرزة يضربنها على وجوههن. أو من شدة حماية ازواجهن لهن. وشاهدت حوامل لاكثر من مرة. قريبات جداً من الولادة، ويطفن كالآخرين تماماً. بلا أي حركات مميزة أو فزع. وبقية الحجاج يراعون حالهن بحذر شديد.

وفي شارع غزة (اكبر شوارع مكة) مسجد يسمى «مسجد الجن».

اليوم نفسه في نفس المكان

حينما هبطت حرارة الجو عصراً، خرجت من البيت للتجوال. القيت الخمار على رأسي كالفوطة. وعلى عاتقي عباءة جواد، كالآخرين تماماً. لا مفر من ذلك مع هذه الاتربة والغبار والشمس. اتجهت شمالاً الى ساحة «المعابدة». والشمس مستترة خلف الجبل. خضرة جميلة وسط الساحة. ومصطبات بين الزهور. الاشجار الاستوائية لا تزال يافعة بلا ظلال. باستثناء بعض اشجار اليوكالبتوس. والجو يملؤه الغبار. وقليل من زهور الزينة على جوانب الحديقة قرب الثيل.

تجولت قليلاً ثم جلست بجوار شاب فارع، راح يقلب اوراقاً مستنسخة ويقرؤها. كأنه يذاكر دروسه. سلمت عليه، واستأذنته للجلوس بما اجيده من العربية. هرب من المذاكرة الى الحوار. وتبين انه ضابط عاد لتوه من «خميس مشيط» في اجازة (ايام عيد الاضحى، والعطلة السنوية الرسمية في السعودية، وما يشبه عطلة النوروز عندنا)، والخميس هذه منطقة على الحدود اليمنية السعودية. وهو مسؤول عن عدة جنود. لحماية الحدود مقابل «السلاّل». والحماية من «البدر» نوعاً ما. مرتبه ٧٥٠ ريالا في الشهر. له زوجة وطفل. من عرب «عنيزة». لم اتصور ابداً ان يكون عرب عنيزة بهذه النظافة والجمال. وقرأ قصائد لشعرائهم

تقدح بالسلطة الوهابية والحكومة السعودية. كان شديد الشوق لمعرفة هل انا «مواطن صالح» أم لا. فهمت ما يقوله. ولذت بالانجليزية. وكان ملما بها بعض الشيء. قلت له تقصد Good Citizen؟ فلم يفهم. اضطررت ان اوضح انه إذا كان مراده «عالم وطني» فلست كذلك. سأل لماذا؟ قلت له مع ان الانسان ليس حجارة توضع في بناء، وترتهن له، لكن حدود كل انسان في لغته، وثقافته، وتراثه، و... ولكن ينبغي ان اسمع منه شيئاً. لذا اجملت القول ورميت الكرة في ساحته. الاوراق التي كان يطالعها تاريخ الحربين العالميتين بالعربية. ترجمة لنص امريكي. قال انه شيوعي. وذكر ميكافيلي، وماركس، وهيغل. وتحدث عن الرأسمالية. قبل مدة وجيزة اوفد ثلاثة اشهر الى مصر في دورة عسكرية. وجاء بكل هذه الاسماء والكتب «صوغة» من هناك. الاسماء التي ذكرها واستشهاده بـ «هارولدلسكي» ذكرتني بحالنا قبل عشرين عاماً. وكان له بعض الالمام بالعبرية تعلمه في المدرسة العسكرية، حتى لا يحاروا في ادارة اسرائيل بعدما يستولون عليها. وهكذا انتقلنا الى اسرائيل. سقت له مثالاً من الايدي والقلب كأعضاء في جسم واحد (وقد سقته ايضاً لشباب عرعر في دكان المرطبات) وضرورة ايقاف القلب عن العمل حتى تقف الايدي عن الحركة. والقلب الخطير في الشرق هو الرأسمالية الاجنبية. أما آرامكوا وباقي الشركات النفطية فتمثل الايدي. واسرائيل من الايدي ايضاً. لكنه لم يقنع. فتشت مدة عن معادل عربي لكمة «عوام فريبي» (خداع البسطاء) (لأنه لم يفهم المصطلح الانجليزي) لأقول له ان عبدالناصر يمارس هذا الشيء في قضية اسرائيل. لكنني لم اجد مفردة ناجعة. كان متنبهاً لمخاطر الرأسمالية. لكنه لا يستوعب ان وحدة العرب ينبغي ان توجه ضد الشركات النفطية، عوض توجيهها ضد اسرائيل. ثم بدا مرتعباً لأنني اسجل ملاحظات في الدفتر. خصوصاً حينما سجلت مقولة الملك المعظم سعود الاول «لا تعلم الشاب فيأكلك». قال انهم يلقون القبض على الشخص فجأة ويأخذونه.

اردت معرفة مكان السجون السعودية. تلفت حواليه ثم نطق على عجل باسمين لم افهمهما. رآني انوي كتابتهما في الدفتر، فلم يكررهما. سألته اين تقع؟ قال في «الربع الخالي». ثم قال انه ليس الوحيد الذي يحمل هذه الافكار في الجيش. فهنالك الكثيرون مثله. ثم قرب فمه من اذني «على حد تعبير عبدالناصر، ينبغي القضاء على اسرائيل في قصور الملوك العرب اولاً، ثم بعد ذلك في فلسطين» وطفق يبث همومه عن الفقر، وتردي الوضع الصحي، و... الخ. نسيت ان اسأله عن رتبته. ولكن يبدو من سنه انه ملازم اول أو ثاني.

عندما افترقنا، عن لي ان الغرب نجح في جعل اسرائيل ستّارة لعيوبه. أو جداراً يختفي وراءه. زرعوا اسرائيل في قلب الاراضي العربية، لينسى العرب في خضم مشكلتهم معها، مشكلاتهم الاصلية مع الغرب. ولا يتذكروا ان سقاية شجرة اسرائيل وسمادها لا يتوفر بدون الغرب المسيحي. الرساميل الفرنسية والامريكية. ثم دعم البابا لهم في دحض لعن المسيح لهم. اظنها فتوى البابا «جون الثالث والعشرين»... ثم خطر ببالي ان صعود نجم عبدالناصر وتعملقه، تأتى بسبب انه اتخذ موقفه ضد الغرب، من دون ان يكون له احتياطي نفطي. وقناة السويس لا تستحق الصبر على اكثر من هذه المعضلات. أما مواقفنا نحن فكانت مع وجود احتياطي نفطي هائل. وكان هذا احد اسباب هزيمتنا في نهضة الدكتور مصدق، وما احاط بها من ملابسات. وقد كانت هزيمتنا من الداخل لا من الخارج. فالغرب كان مندساً فينا. وقد نخرنا من الداخل. واذا كان الغرب بأساليبه الاستعمارية الجديدة، يجول على عربة المسيحية بهذه الدرجة من الكفاءة، فلماذا تركنا نحن عربة الاسلام صدئة عاطلة هكذا؟ وتساءلت مع نفسي أفلا تكون مراسم الحج هذه منطلقاً مناسباً لاتخاذ موقف ضد الغرب؟ (أوووه ه ه، عدت الى «نزعة التغريب» مرة اخرى..).

اليوم نفسه

لم اترك الحمية منذ ان كنا في المدينة والى الآن. الشاي ومعلبات الفاكهة واللبن الرائب. وقد وجدت الاخير في مكة. لكنه حامض جداً. والمعلبات التي اكلتها ظهراً كانت يابانية. شيء بين الخوخ والمشمش. وعصير المانجو من انتاج الهند. وكل شيء من مكان ما. بضائع العالم كله تجتمع هنا. قضية في منتهى الجد. فهذه الجمهرة العظيمة افضل سوق يخطر في الخيال. ربما امكن القول ان موسم الحج خير مستهلك لسقط امتعة معامل العالم كلها. ورفاق السفر غارقون في الشراء. ويتصفحون الآن مشترياتهم. ويعلنون اسعارها، ويخبرون بعضهم باسرارها. أي الباعة محتال، وايهم منصف. الشاي، والتمر، والأقمشة، والياقوت الاحمر، وجلد الافاعي (للاثرياء) والخلع، والعباءات السوداء (وكم ذا يدخنون ال بي) وزيت البلسم، والعود، والعطور، والشمع، والساعات، والقمصان الرجالية، والجوارب، والاحذية، واشياء اخرى كثيرة. كل شيء من بلد في العالم. ويا لها من ضيافة اقامها الكلاب، والماعز، والقطط خلف جدار بنايتنا. تكومت فضلات طعام تكفي لقطعان منهم.

بقايا موائد الحجاج. حرارة الجو لا تبقي عليها صالحة للاكل. والطريف هو السلام الفاشي بين الحيوانات. الكلاب والقطط معاً. تتنازع القطط فيما بينها اكثر مما تتنازع مع الكلاب. ومائدتهم خليط من الرز والخبز واللحم والدجاج.. وكل ما لذ وطاب.

من رفاق سفرنا رجل كبير السن نحيف طويل يلبس نظارات. وقور جداً. مدير مدرسة متقاعد في ساري.[1] وصل تواً وقد اخذ منه التعب مأخذاً. دفعوه

---

(١) شمال ايران.

عند الطواف، فسقطت نظاراته، وتكسرت شر مكسر. قال انه في الطريق الى هنا منذ صلاة المغرب ولحد الآن. مشى هائماً على وجهه يتخبط، واضاع الطريق. كاد ينفجر من الغيظ والقرف. تعاونا على اسعافه بالماء والشاي وماء «الخوبة» المثلجة والعشاء. واعدته ان اذهب معه غداً عند طبيب محلي ليعطيه نظارة جديدة. سألته ما هي درجة نظاراتك؟ فقال عشرة. لكن نظاراته لا تنم عن هذا!

وفي وقت العصر تجمع اطفال المحلة (بعد انتهاء الدوام) يتفرجون على ذبح الدجاج ورفسته. عشاؤنا هذه الليلة رز ودجاج. ومن العاملين في قافلتنا عربي تعلم بضع كلمات فارسية. واعترته نوبة مزاح مع احد رفاق السفر، يبيع الطحين في سوق معيّر. رأسه شديد القرع. يقول له «ليس لك مخ» ويضحك الجميع. ومرة كل دقيقة. لو رآه مئة مرة في اليوم لما وفر مرة واحدة منها، يقول له فيها بفارسية فذة «مخ نيست» (لا يوجد مخ) وقهقهات الناس. وبدأ رفع الرايات من الآن. احترازا من الضياع في منى وعرفات. كل قافلة تحمل رايتها باسم رئيسها ورسمه. وعامل قافلتنا الذي رافق حضرة الرائد المتقاعد من المدينة الى مكة لم يعد لحد الآن، فتعرقلت بذلك برامجنا.

الاثنين، ٢٠ نيسان

مكة

صباح اليوم مسني انا ايضاً طائف من التبضّع. مثل هذا السوق يثير في المرء حفيظة الشراء. اظن ان الناس تشتري الصوغات لا على التعيين في اول الأمر. تبعاً لهياج السوق. ثم حين يعودون الى الاوطان، يقررون هذه لفلان وتلك لعلان. اشتريت خمارين، وثلاث عصي خيزرانية، وعدة علب من اغصان العود. واربعة اقلام حبر. وتجمع الرفاق حولي، يسألون ما الذي اشتريت. اعجبتهم الاقلام. وسألني بعضهم عن دكانها ليشتري مثلها. لكن الخيزرانات لم تعجبهم. لم يقل

احدهم شيئاً. ولكن بدا السبب على نظراتهم. السهم الذي نحر «علي الاصغر» بن الامام الحسين كان من الخيزران.. أيمكن ان تكتب رحلة حج ولا تعرج على كربلاء؟ ثم ان المسير الى منى بدأ من اليوم. وزحام الشوارع لا يطاق. واصوات الابواق من كل حدب وصوب.

اليوم نفسه، نفس المكان

كنت اسجل مذكراتي، إذ طاب للخال ان يبعث رسالة. قضى عمره كله كاتباً، لكن يديه الآن ترتجفان ولا يستطيع الكتابة. فرغت من كتابة رسالته لتوي. اراد ان يمضيها بنفسه. امسك القلم بقبضته ووضعه على الورقة. كما يمسك السكين ويريد غرسها عمودياً على الطاولة. وبصعوبة بالغة كتب كلمة «محمد». كبيرة جداً. وجر خطاً دائرياً حولها. الشيخوخة والعجز مصيبة حقاً. حينما افكر اراني نافراً جداً من بلوغ ذلك العمر. ثمانون عاماً[1]؟! انه عمر نوح. خالي وخلافاً للقرويين يقلب الكلمات في ذهنه ولسانه، ثم يلهج بها (رسالته الرسالة الثانية عشرة التي اكتبها لرفاق الدرب) يحسب لكل شيء حسابه ويضعه موضعه. قضى حياته في المحاضر. وقد علمته القيمة الاقتصادية والحقوقية للكلمات. لكنه شيخ ضعيف البنية جداً. ونتوجس جميعنا خيفة عليه. تورمت قدماه يوم امس. لا من المشي الكثير. بل من خوف اضاعة الطريق، ذهبت اليوم، وزرقوه دواءً بالابرة، ويظن ان حاله قد تحسنت. طاف وسعى على العربة. باربعين ريالاً في المجموع. لكنه في عودته انتظر جواداً لفترة طويلة. ومن دون فائدة. حينما وصلت اليه عند باب الحرم، كان يتصبب عرقاً، وعيناه تجولان هنا وهناك الى حد مفزع. حاولت

---

(١) غادر جلال الحياة بعمر ٤٦ عاما.

تطمينه، وتسكينه، وعدنا سوية على مهل. ومنها تورمت قدماه.

والحاج بائوج راح يقص على مائدة الفطور حكاية أو موضوعا. عاكسه احد ابناء مدينته ان «يا حاج، خير الكلام ما قل ودل» انكسر خاطره وزعل مرة اخرى. لم ينس ما كان يريد قوله فقط، بل واضرب عن شرب الشاي ايضا. كأنه لا يريد ان يطيل الكلام. من اولئك الناس الصريحين، غير الهيابين، الذين يدلون بآرائهم بلا تحفظ. والمدير المتقاعد، ذهب اليوم مع ابنه الى الطبيب. اخذ نظارة مؤقتة الى ان يتم اعداد الاصلية. والنظارة المستعارة على وجهه كقناع الغازات السامة.

اليوم نفسه

مكة

تقرر ان ننطلق في السادسة أو السابعة الى عرفات. وقد هاجت الغرفة وماجت من الآن. الكل يتحركون بلا انقطاع. بعضهم مضطربون، يتعجلون في شد الامتعة وفتحها. وبالتالي نسوا ان يرتدوا الاحرامات. وطفقوا يعلمون بعضهم شد مناطق الخصر والهميانات، بحيث لا يراها احد. وانتابهم شك قلقل احشاءهم. هل يأخذون كل اموالهم معهم أم بعضها؟ فالقسم الاكبر من امتعتهم تبقى هنا. ولا يأخذون معهم الا ما يحتاجون له، خلال يومين أو ثلاثة في منى وعرفات. والمشكلة الاهم ان صنابير المياه بلا ماء. ووجوب الاغتسال للاحرام، وما الى ذلك، بمجرد ان يكون الماء ضرورياً، يختفي من الأنابيب. كالجن، وبسم الله. مع ان في البيت اسالة مياه. ولكن ماذا يفعل كل هؤلاء الناس في هذا البيت الكبير واربع صنابير مياه؟ وصاحب البيت يروح ويغدو؛ افعل هذا ولا تفعل ذاك. في بيته مبردة واحدة، يظنها جوهرة جاء بها من الهند. يتعامل معها كالمثقفين المتميعين مع سياراتهم في طهران. يطل برأسه دائماً ليتأكد من ان احداً لم

يمسسها بسوء، أو قلل من سرعتها أو زاد. ليتها لم تكن اصلاً، ولم يلفحنا كل هذا الهواء المزيف. ولم نستمع لصوتها المزعج، الذي لا يتركنا ننام ليلنا. والاخوة تعرفوا على نقطة ضعف الرجل، فراحوا يعبثون بها تباعا، كالاطفال تماماً. اما انا فمسرور جداً، لأني سأخلص ليومين أو ثلاثة في منى وعرفات من شرها.

واندلع الشجار بين رفاق السفر الآن، على النعال، فالنعال كلها من شكل واحد، لكن كل زوج بلون. بعضها كبير والبعض صغير. احدهم ضاع حذاؤه. وذاك لا تتشابه فردتا حذائه.. وهلم جرا. وفي هذه الغمرة انفتحت شهية المزاح لدى صالحي (واعظنا الذي طلب اكثر من مرة أن اذكره في هذه السطور، وها انذا ألبي طلبه). ولم ادر ما المناسبة التي دعته ليروي لنا قصة الضفادع التي اشتكت البرد لنبي الله سليمان، وطلبت منه اقبية تعصمها من البرد، فواعدها سليمان بذلك، لكن الاجل لم يمهله. ومن حينها الى اليوم ما انفكت الضفادع تردد حنيناً الى الاقبية «قبا.. قبا.. قبا». ثم قال ان مظاهرات خرجت امس من المسجد الحرام بعد صلاة المغرب. مظاهرات سياسية. نهض اثنان وخطبا في الناس. احدهما قدحاً باسرائيل، والثاني قدحاً بسورية. ولم افهم علة الثاني. وحرب الاحذية لم تضع اوزارها بعد. ضاعت لحد الآن اشياء اخرى: خاتمان، وجفنة لعابية. وثلاث قناني من ماء الليمون (اشترى محدث احداها امس بريالين ونصف. بماركة گلاسكو، آبردين) وتعال اسمع السباب والفضائح من اجل هذه الاشياء. وعلى أية أفواه؟! أفواه حجاج بيت الله الحرام المحترمين. اغنياء الامة الاسلامية في ايران.

اليوم نفسه مساء

عرفات

انطلقنا في التاسعة مساءً. بسيارة حمل، ووصلنا في الحادية عشرة، وكنا مستعدين للحركة من الخامسة عصراً. ما اغربها حكاية البداوة الممكننة هذه! الانطلاق من مكة والوصول الى صحراء عرفات جهاد اكبر بكل معنى الكلمة. هنا يفهم الانسان معنى المفردات الدينية. وكما في السابق علينا ان ننتظر، وننتظر، وننتظر. وعزائي هو الغوص في دفتر مذكراتي الصغير. واغلاق ابوابه الورقية على نفسي. اياً كان، انطلقنا بعد ذلك، وقطعنا ٢١ كيلومتراً في ثلاث ساعات. وكانت الشاحنة تتوقف دوماً، ويتكدس الحجاج على بعضهم، وتتعالى اصواتهم. (نادى عليّ جواد بأن نصعد على قمة الشاحنة. فوق غرفة السائق. وصعدنا. لم افهم السبب في البداية. لكني لاحظت بعد ذلك أن الهواء يدخل تحت الاحرام، واصبت ببرد شديد) انطلقنا ثانية بسرعة. وبعد قليل عاد صراخ البوق، وانين الكوابح، ثم اعتراضات الحجاج الذين يتكدسون على بعضهم. اركبوا النساء في مقدمة الشاحنة، والرجال في آخرها. وعند الكبح يترامى البعض على البعض، وترتفع الاصوات المستنكرة. ثم وصلنا صحراء، بحوالي فرسخ في فرسخين. والخيام مضروبة في كل مكان. والحبال متشابكة. اربعة شوارع في الوسط. في احدها مسجد. وفي الثاني دكاكين وخبازون وقصابون. والصحراء كلها بلا كهرباء. الاضاءة مصابيح نفطية صغيرة وكبيرة، معلقة وذات مساند ارضية. والاغنام المسلوخة معلقة أمام الدكاكين والخيام. والمقاهي مشهودة هي الاخرى.لكن صاحب الدكان نائم على واجهته. وافران الخبازين لا تزال باردة. والبدو نائمون على جوانب الشوارع الرئيسية. مع احشامهم واغنامهم. باعناق مخضبة، وايد وارجل زرقاء. والخيام، الخيام، الخيام على مد البصر. حتى الشرطة وأفراد القوات المسلحة يرتدون الاحرامات هنا. لكن بنادقهم على عواتقهم.

شرطة الطرق فقط لا يزالون يرتدون ثيابهم الرسمية. والهراوات في ايديهم. يرشدون السواق الى اماكنهم. والكشافة يساعدون الناس في العثور على خيامهم. وجدنا خيمتنا بسهولة نسبياً. ونحن الآن تحتها. والكل في مأتم لأماكنهم وفراشهم، وعشائهم، ولكل شيء. يبدو اننا عند منبت جبل. و«جبل الرحمة» يتردد بكثرة في الحوارات. رأيناه من بعيد ونحن في الشاحنة الى هنا، باضواء متحركة صغيرة على سفحه. الهواء بارد، وانا متعب، والسعال يمنعني. والا خرجت وتجولت ساعة بين الناس. اللعنة على هذا الـ«برونشيت» الذي صار الآن «تراكييد».[1] اكتفي لهذه الليلة بهذا القدر من الكتابة، واشير فقط الى ان هذه المنطقة سميت عرفات، لأن آدم وحواء التقيا فيها بعد طردهما من الجنة، وعرفا بعضهما.

الثلاثاء، ٢١ نيسان ١٩٦٤ (٩ ذي الحجة)

عرفات

استيقظت صباحاً على هذا النشيد:

يـــا عـــم الحـــاج، حجـــي
الله يتقـــــــبل، حجـــــــي
حـــــيّ بـــــريال، حجـــي
ســـــواء ســـــواء، حجـــي
يـــا بوطـــــربوش، حجـــي
طربوشك احمر، حجي، و... الخ

---

(١) يشير الى تفاقم وضعه الصحي.

على ايقاع ريم، بام، بام، بام.. بام، بام. اغنية تردد ترجيعها (حجي) طفلة في السابعة من عمرها بحركة معينة تصدرها حينما تقول (حجي). تثني ركبتيها فجأة، وتقصّر قامتها. وبقية الاغنية تنشدها فتاة بالغة ذات وجه وقوام جميلين، وما ادفأ صورتها؟ اظنها نفس الاغنية التي سمعتها عند باب حديقة الصفا، من بعض بنات النخاولة. استيقظنا في الخامسة فجراً للصلاة، ثم خلدنا للنوم تارة اخرى، من شدة التعب. وامتد بنا النوم الى السابعة والنصف. بعدها ايقظتنا اغنية الحجي. الفطور شاي وخبز. وعشاؤنا البارحة رز وعدس بارد. طبخوه في مكة، وتناولناه في عرفات. (وعندنا الآن مجلس تعزية. تعزية، تعزية، تعزية. خنقونا بهذه التعزية. يأتي الرجل للحج ولزيارة بيت الله، ولا ينفك يئن ويولول حنيناً الى زيارة كربلاء. وكأن معممينا ونواحينا لا يكفون، واذا باثنين من النواحين الكربلائيين يطلان علينا اليوم. بلهجة عربية) وبعدهما ـ أي بعدما جمعا مالاً وانصرفا ـ جاءت امرأة متلثمة في حجرها طفل صغير. لها عيون وحواجب الغزلان. قرأت هي الاخرى ما تيسر لها وجمعت مالاً وانصرفت. كلمات انشودتها كانت عسيرة. لم استطع تسجيل شيء منها. مع ان وجهها احسن من صوتها. نحن المجموعة الوحيدة في هذا الجانب من الصحراء لنا دكان تعازي. ويا لزحام المجلس! لم يعد هذا مكاننا. يجب ان اسير. اتجول في عرفات. اختي اضاعت البارحة ساعتها حينما حططنا الرحال. والآن تتشاجر مع زوجها. وفي المدينة اضاعت خاتمها. لا ادري ماذا دهاها. ربما هياج السفر. والوقوف في عرفات اهم اركان الحج. أي اليقظة التامة في هذه الصحراء من الظهر الى الغروب. وقفة الذوبان المطلق.

اليوم نفسه

عرفات

البارحة عند وصولنا، كنا نفرش متاعنا البسيط، إذ رأيت حشرة كبيرة تمشي على البطانية. شيء يشبه الخُنظُب. قتلتها للاسف. وفجأة تذكرت حرمة هذا العمل. ترتدي الاحرام وتؤذي المخلوقات؟! لكن حصل ما حصل، وقال محدث ونحن نمسك البطانية لنلقي بجسدها خارجاً «كان فيها خطورة على حياتنا بالطبع» أي لا بأس في قتلها ان شاء الله. ثم تعشينا ونمنا. وما كان ابردها من ليلة! تلفعت بالاحرام تحت البطانية، وتمددت وانا اسعل. مستعيناً بخمس عشرة قطرة من «ايبيزاندرين».

اما عرفات فهي صحراء تشبه السهل الرسوبي. تحاصرها الجبال من ثلاثة اطراف. على طريق الطائف. بادية مرتفعة. تشبه حوضا. وهي ابرد من ضواحيها. والثيل النابت في بعض نواحيها. خصوصاً عند بداية الجبل. الى الشرق من مكة. وقاع الحوض مليء برمال ناعمة تذكر برمال السواحل. وبعض الاصداف المكسرة. أو اشياء تلتمع وتبرق. بلون حليبي. وحتى الجبال وصخورها حليبية. عندما وصلنا البارحة هبت نسائم باردة. واليوم شاهدت على المرتفعات شجيرات تشبه العاقول. ثم قطعان الخراف والماعز ترتفع على المرتفعات. فضلاً عن الاحشام داخل الخيام وخارجها. يبدو انهم يأتون بالاغنام الى هذه المراعي قبل التضحية بها. حتى لا تذبح جائعة. (أمس ـ ٨ ذي الحجة ـ كان يوم التروية، أي يوم الارتواء من الماء) وبدا لي المجيء الى عرفات نوعا من (١٣ بدر).[١]

---

(١) يوم الطبيعة، يخرج فيه معظم الايرانيين الى البساتين والمتنزهات، ويتشاءمون تقليديا من البقاء في البيت.

اشبه بسفرة عائلية. المنطقة التي نحن فيها قريبة من منبت الجبل. وخيام كل الايرانيين والشيعة متقاربة من بعضها في هذه الناحية. قال صالحي على المنبر ان الوقوف على قمة الجبل أو سفحه يوم عرفات افضل. وهنا تذكر جبال ايران وقال: «جبال الحجاز انبض بالحياة من جبال ايران» واضاف «اقول هذه لك بالذات يا فلان» يقصدني انا. وكان الحق معه. الجبال والصحراء هنا انقى واعرى. وهي بذلك ابهى. لا ترى بينك انت الانسان، وبين اي من عناصر الطبيعة، أي حجاب أو حاجز. الشمس في مكان الشمس. راسخة قوية ساخنة، كأفران الحدادين. والصحراء صحراء. جافة زاخرة بالسراب. والجبل، قطع من الصخور الكبيرة مرصوفة على بعضها الى الاعلى. ما من نبات. لذلك يقصدون عرفات لترعى فيها مواشيهم.

تجولت ساعة في الصباح. المراحيض اسوأ ما في القضية. وضعوا لكل خيمة يسكنها مئة انسان، حاجزاً قماشياً صغيراً على حفيرة. لا يتسع المكان الا لشخص واحد. وعندما تجلس تلامس ركبتاك الجانبين. وتكون قريباً جداً من الحجاج. صحيح ان الحج ينادي الناس الى البداوة، وحياة الصحراء تحت الخيام. ولكن حينما تنقل الحجاج سيارات الشوفرليت، وطائرات الجت، بدل الابل والخيول، أفلا يفكرون بالمراحيض ايضاً؟! يمكن تأسيس مرافق اسمنتية كبيرة في كل مكان. بمياه جارية وبشكل منظم، حتى لا يقف الحجاج لقضاء حاجاتهم في مثل هذه الطوابير. ولا يتخلوا في الملأ العام هكذا. والعياذ بالله من حروب المياه التي اندلعت من اول الصباح. لكل خمس خيام أو ست، قناة مياه واحدة، اطلت برأسها من تحت الارض. على قاعدة اسمنتية. وعليها منّ وتشدقات، تذكرك بأنها هدية الملك المعظم! والحال انها المياة التي جاءت بها «زبيدة» زوجة هارون الرشيد من الطائف. وحتى صنابير المياه هذه خاضعة

لاحتكار باعة الماء. وتعال انظر العراك، وحلبات الملاكمة، والتراشق بالنعال المبللة كأنها السياط، وطاق وطيق، و«يابن الكلب» ... والى آخره.

بدأوا النحر والتضحية منذ بواكير الصباح. يتولاه في الغالب بدو، ويمنيون. بالقرب من الخيام. يعلقون الذبيحة على عمود ويسلخون جلدها. أو يفرغونها من الامعاء والاحشاء. عند باب الخيمة تماماً. ثم تقطيع اللحوم لأكلها. وترى الأمعاء والاحشاء والجلود في كل مكان، والجو مزدحماً بروائح الذبائح. ماذا كنا سنفعل لولا هذه الشمس التي لا تبقي على رطوبة اكثر من نصف ساعة؟ وفي كل شبر على الجبل آثار العرب والعجم. وباعة حلوى السمسم كلهم نشاط وحركة. والارض مغطاة بقشور الموز والبرتقال، وعلب سجائر Kent، وفضلات الآدميين والحيوانات، واعواد الحسك المحترقة ونصف المحترقة. ضربوا خياماً حتى على المرتفعات اطراف صحراء عرفات. خيام خصوصية طبعاً. لأولئك المتحررين من ربقة المطوفين. عوائل معظمها من اهل البلاد. في كل هذه الصحراء واطرافها لا يخلو مكان من الخيام، الأ جبل الرحمة. المنفصل عن قوس الجبل الاصلي. حدبة من صخور نتأت على ظهر البيداء. وعلى رأسها مئذنة سميكة دميمة. وسلم عريض منحوت على سفحه الشرقي. من آثار جمال الدين جواد، وزير اتابك الزنجي. والناس تتسلقه كالنمل والجراد، يرتلون الادعية، ويقرأون القرآن. وقوفا تحت الشمس في الغالب. وبعضهم يحملون مظلات حتى الآن، وقد جاوزت الحادية عشرة، يلوح ازدحامهم وضجيجهم من بعيد. ويلوح السراب في جانب آخر. منظره ذو خطوط حرارية متداخلة ترتقي الى السماء.

ويا للشحاذين! نساء واطفال، وشيب وشبان. وليسوا عمياناً ولا مشلولين ولا معاقين كلهم، بل واصحاء ايضاً. خلال ساعة من التجوال، سرحت كل ما كان معي من المسكوكات. شاهدت امرأة توزع عملات من فئة ريال واحد. احاط بها الفقراء حتى تمسحوا باحرامها. وفي مكان آخر، راح احدهم يصنع «الشامية»

ويبيعها. يصنعها في قدر من تنك على نيران الحسك. ويبيعها في اكياس ورقية صغيرة. كما في (١٣ بدر) تماماً. اثناء التجوال كنت امر احياناً بالقرب من مطابخ مؤقتة. قدور الرز والحساء والمرق تحرك الشهية. ودخانها يذكر باسحار رمضان. رجل ضخم اسود، جعل من مرغاة صغيرة (چفچير) مظلة يدافع بها عن وجهه ورأسه من اشعة الشمس، وهو يمشي بسرعة. ورجل عربي انحنى وقبل يد امرأة ترتدي السواد. مدتها من نافذة سيارة فاخرة غاصة وسط جموع الناس، ولا يمكنها السير حتى ببطء. اظنهم كانوا سوريين. يقلدون حركات البرجوازيين الفرنسيين، وسط صحراء عرفة! وقبل نصف ساعة جاءوا تحت خيمتنا والتقطوا صوراً. صورة جماعية، بعد انتهاء مجلس التعزية. وكان رئيس قافلتنا واقفاً في الوسط ـ وكذلك معممونا ووعاظنا ـ كانوا منتفخين منتصبين بكل انتظام. إطفاء السجائر في الرمال كما على سواحل البحار.

تصاعدت حرارة الجو بشكل عنيف. ازحت الازار عن كتفي، ووضعت عليهما ازاراً احتياطياً من قماش خام. البارحة كان يضيء في هذه الصحراء ما يزيد ربما على خمسمئة الف مصباح نفطي. لا كهرباء الا في بنايات رسمية بعدد الاصابع، بعضها مراكز صحية، وبعضها مساجد. الشوارع الاربعة الرئيسية مبلطة. زهاء اربعة كيلومترات. والبقية طرق ترابية. أي رملية. الظاهر أن الخروج بعد الظهر من تحت الخيام مجازفة جد خطيرة. نويت ان اقرأ هنا ختمة كاملة من القرآن. وانا الآن في اواخر سورة البقرة. ورحت اسجل مشكلاتي على طرف صفحة من القرآن، فوجدت الاعزاء لا يطيقون هذه التجاوزات. لابد ان اعرض عن هذا. ينبغي رعاية بعض الحدود في كل الاحوال.

الاربعاء، ٢٢ نيسان ١٩٦٤ (عيد الاضحى)

منى

غادر الناس في الساعة الرابعة عصر الأمس. المشاة، والبدو، والشطار، وخفيفو المتاع، سبقوا غيرهم إلى منى. ومكثنا نحن إلى التاسعة، تناولنا عشاءنا على بساط الرمال، خارج الخيام، وتحت سقف السماء، بينما كانت امتعتنا في الشاحنة. والآخرون قد برحوا المكان. وبدأت بقايا الحياة البدوية التي لم تستغرق أكثر من يوم، تجيف وتنتشر روائحها. والخيام بدت الآن بمنظر خلاب جميل، بعد أن تركها الناس، فغيّروا بوصلة اهتمامك منهم إليها. يضربون الخيام قبل يومين أو ثلاثة من مناسك عرفات، ثم تبقى يومين أو ثلاثة أيضا إلى أن يجمعوها. تجولت فيما بينها، كأنها سفن مقلوبة، والحبال مجاديفها، وقد انكفأت على الرمال بدل الماء. بقايا هذه النزهة البدوية هي رماد الافران، وعظام الذبائح، مرمية في كل مكان، ولا أثر لكلاب أو قطط، ولكن ماذا لو بقينا يوماً أو يومين أو أكثر؟

البارحة كانت اصعب ليلة قضيتها في هذا السفر، سارت بنا سيارة الشحن من التاسعة إلى العاشرة والنصف. مازلنا نرتدي الاحرام، والبرد مازال قارساً. عدنا من نفس الطريق، إلى ان وصلنا مضيقاً غاصاً بالباصات، والشاحنات، والسيارات الصغيرة. ونيران الطعام البعيدة تغمز بعيونها الظلام، والروائح مبثوثة في الفضاء، وأصوات القطعان تطرق الاسماع، وتضج بجوار المضيق. تمددنا على أرض صخرية. وبقيت النساء في الشاحنة، والرجال على المنحدر في أول الجبل. كان لنا نحن الاربعة سجادة صغيرة، بسطناها على الأرض، واضطجعنا، وتدثرنا بالبطانيات إلى اكتافنا. خلفي شجيرة شوك. ومن الجهة الثانية تمدد خالي، ومحدث، وجواد على التوالي. ورفاق السفر عكفوا في الصمت والظلام، أو في اضواء مصابيح البطاريات، على انتقاء حصيات، يرجمون بها الشياطين

غداً. احياناً، يمر بعضهم بجوارنا صامتين، كأنهم جميعاً نائمون، ولا يسمع سوى وقع اقدامهم، واحياناً نسمع رغاء مخنوقاً لبعير يترنح وسط جموع البشر. واصوات «هَي، هَي، هَي» ينادي بها الرعاة على قطعانهم، وتململات الرفاق، وتقلباتهم ذات اليمين وذات الشمال، لم تنقطع إلى الصباح. والبرد لا تقوى على صده ثياب الاحرام. وسعالي وتململ وضجر الخال. والافكار التي تقتحم خاطري، حول شروط استمرار التراث على نفس الدرجة من الجاذبية. كنت أعلم انه ينبغي في مثل هذه الليلة ترقب الفجر، بتأمل عميق، ورؤيته بتدبر، ثم الاشراق بالانوار، تزامناً مع اشراق الأرض بأشعة الشمس، لكنني كنت كتلك العجوز التي انتظرت الخضر اربعين يوماً، وهي تغزل في بيتها، ثم لم تعرف الخضر في اليوم الأخير. في تلك الساعات الأخيرة، كان التعب، والبرد، والارق قد اقرفني، إلى درجة لم ارغب معها حتى بالقيام، كي ارنو في ظلام الليل إلى سريرتي. «أنا»ي كانت غريبة عليَّ إلى اقصى حد. اطياف «الأنا» و«الغريب» تواشجت، واندمجت. وفي مثل هذا المضيق المظلم «المشعر الحرام» تتشابك التخوم حتى بين الآدميين والحيوانات. كنت مستلقياً، وأنا أسأل نفسي: (ألم تكن الدعوة إلى هذا بالذات؟ ثم ألم تلهج أنت بتلبية هذه الدعوة؟ وما معنى الخروج عن الذات اذن؟). وإذ ذاك طرقت شامتي رائحة طيبة، لقهوة جد معطرة. على بعد خطوات منا عائلة بدوية، يعدون قهوتهم على نار صباحية، والرائحة المنبثة منها في الارجاء كأنها عطور غيبية، في فضاء يرفع المرء إلى المعراج. نهض جواد. سمعته يسلم عليهم، ويتساءل معهم الاحوال، بعربية منقوصة. واصوات القهوة المغلية والفناجين، بيد اني كنت منهكاً، إلى درجة منعتني من النهوض، ومشاركتهم مائدة القهوة تلك.

جال بخاطري ان الذين نشأوا في احضان هذه البيئة، وتأدبوا بآدابها، لن تعوزهم الروح الشعرية في لياليها، ولا القهوة الساخنة في مطالع فجرها. انهم لا

يجددون بها قواهم فحسب، وانما سينالك أيضاً نصيب من اريجها، أنت الذي لا يعلم إلاّ الله، لماذا جئت من اقصى الأرض إلى هنا.

اليوم نفسه، في المكان نفسه

غادرنا المشعر الحرام في الخامسة صباحاً. سرنا بالسيارة كيلومترين وإذا بالطريق مسدود من الزحام. الكيلومتران السابقان قطعناهما في ساعتين، بلا مبالغة. كان علينا ان نجتاز مضيقاً آخر. والكل متسرعون متعجلون، إذا توفرت مسافة متر امام السيارة. يضغط السائق بكل احقاده على البنزين، ثم يضغط من فوره على الكابح، ويتكدس تسعون إنساناً، يركبون الشاحنة على بعضهم، ويتزلزلون زلزالاً ما عدت اطيق رؤيته. قفزت من فوق الشاحنة، وسقطت وسط الماشين. كنت أعلم اين يقع مخيم الحجاج الشيعة. العنوان كان معي، وها أنا ذا واحداً كالآخرين. كنا نجتاز دوماً ارتال السيارات التي تقل اكداس الحجاج الصابرين. الانتظار، الانتظار، الانتظار. انتظار ان ينفتح الطريق، ويتبدد الزحام، وتخف حرارة الشمس، وتجري المياه في الانابيب، ويصل دورك في دورات المياه، وعلى مائدة الطعام، وألف انتظار آخر.

تغادر في هذه السفرة من «ميقات» إلى «ميقات». ومع هذا لا معنى لـ «الوقت» فيها على الاطلاق. ليست القضية ان هذه الصعوبات المتراكمة لقضاء الحوائج اليومية، لا تترك مجالاً لعوالم الغيب والاتصال بها، إنما القضية ان مليون إنسان يحجون سنوياً إلى هذا المكان، ولو كان لهذا الموسم نظام، وتسهيلات، وآداب، وتطوير في الخدمات، لاكتسبت هذه الفريضة طاقات مضاعفة، فالمسلم المعاصر الذي لا يتقبل العربية الجاهلية، أو الجاهلية العربية، ولا يرغب ان يواصل هذه البداوة، يحتاج إلى من يغيثه ويرعاه، إذا أريد لمناسك الحج ان تستمر، ولا تمنى بمصير الرق، الذي عفت عليه الايام. ولكن كيف يتسنى هذا؟!

أما أنا فاطالب بالحد الاقصى. تدويل إسلامي للديار المقدسة. كما ان الإسلام غدا إسلاماً بوصوله إلى بغداد، والري، ودمشق، والاسكندرية، وبخارا، والاندلس، واليوم أيضاً ينبغي ان يهب المسلمون من كل الاصقاع لمساعدة هذه البداوة «الممكننة».

مررتُ أولاً خلف جدار اسمنتي طويل. المجزرة، ثم تهالكت في اول مقهى على الطريق. على سجادة من حصير، وتحت مظلة من حصير. لقيمات خبز وشاي «براد». ثم تابعتُ المسير. على سفح الجبل مررت بخزان مياه غير مكتمل، ودخلت احد الشوارع التي تخترق المخيم. الحجاج موزعون في مجاميع متداخلة، وعلامة كل واحدة منها مرفوعة بيد أميرها. يمرون وسط الخيام بطريقة هجومية، متعجلة، مذعورة، كنت اراها في سوق طهران ايام عاشوراء، حينما كنت صغيراً. والكل يلهج بالتلبية، والجميع يرتدون البياض. واليوم فقط فهمت ان البياض ايضاً لون له انواع مختلفة. والناس يثيرون الحماس في أنفسهم، بحركات ناجمة عن خوف الضياع. شعرت وأنا أمشي ان الطريق منحدر، ونحن نصعد، ثم يبدو ان الطريق يضيق شيئاً فشيئاً. قلت في نفسي لابد اننا نسير إلى مكان الرجم كالآخرين. قليل من البيوت السكنية على صخور كبيرة، لها جدرانها المتواضعة، وابوابها، وشبكات مياهها، وسكانها على السطوح يتفرجون، وربما كانوا من الحجاج؟ واصلنا مسيرنا الصاعد إلى ان انقطع الطريق. وظهر ان الناس كانت بلا دليل، فدخلت في زقاق مسدود، وكان الزحام والتدافع شديداً، إلى درجة افزعتني. كنت وحدي وسط جماعة غريبة، يتكلم كل واحد منهم بلغة. لمحت انقاض برج بابلي في زقاقنا الصخري الضيق. رفعت نفسي على احجار الجدار، فكنت أعلى من رؤوس الناس بحوالي نصف متر. وناديت بأعلى صوتي على الحجاج الايرانيين، الذين ربما كانوا بين الجموع، ان الزقاق مسدود، وينبغي العودة، فتعاونوا على نقل الخبر إلى آخر الجماعة. وفعلاً، بدأوا يتناقلون

الخبر. ثم بالعربية: «اوگفوا. ما بشارع». عدة مرات. وضغطت الجموع شيخاً إلى احجار الجدران، ضغطة غاب بها عن الوعي. حملناه على الايدي إلى فوق الجدار واتى الجيران بالماء، عسى ان يفيق. الخوف من اضاعة الطريق، الخوف من المكان المجهول، والرغبة في التفرج، والحرص على الاشتراك في الاعمال والمناسك، تجعل من كل حاج تياراً جموحاً، يستولي الهياج على كل ذرات جسمه وروحه. والذهول يصيره قطرة في بحر. كل المقدمات جاهزة هنا، لكي تنسى ارادتك وشأنك. انا بالذات انفتح احرامي ثلاث مرات. وحين ذاك فقط تفهم لماذا يأخذ الحجاج معهم كل هذا المتاع، والهميانات، واكياس الثلج، و... الخ. ضاع دفتر ملاحظاتي الصغير في هذه الغمرة، ومعه قلمي الرصاص الذي كان في طياته. وحين العودة من الرجم طلبت دفتراً من الدكاكين المؤقتة فلم أجد. لكنني اشتريت قلماً رصاصاً بستة قروش.

لأكتب الآن عن «منى» نفسها. واد وسط جبال صلدة. طمي آخر بتشعباته في الوديان المجاورة. وهناك بنايات قليلة على جانبي الشارع الأصلي، ثم الدكاكين، ثم مسجد الخيف، وأخيراً الوادي. عند مضيق ينتهي إلى مكة. وآخر «الجمار»، والخيام مضروبة خلف البنايات، وعلى الشوارع.

«الجمرة الأولى» بجانب كشك شرطة المرور بالضبط. عند تقاطع شارعين، هل يكون الشيطان في متناول ايدي الناس إلى هذه الدرجة؟! كل واحدة من الجمرات هيكل من احجار، بحجم جسم الإنسان مرة ونصفاً إلى مرتين، وقد صبغوها بالازرق الفاتح، وجداران دائريان قصيران يحيطان بالجمرتين الأولى والوسطى. يجتمع فيهما الحصى لكيلا يسيح إلى الأطراف، ووابل الاحجار والحصى ينهمر من خطوتين إلى عشرين خطوة. إذا كنت بالقرب من الجمرات ينبغي ان تخاف على رأسك، لأنهم يرجمونها بالاحذية ايضاً، والذي يبقى من كل مناسك الحج كوثيقة لهياج الناس، هو فردات احذية منزوعة، وفردات نعال

خفيفة، من صناعة اندونيسيا. كثيراً ما تستخدم هنا لرجم الشيطان. وزيت مراق، نذراً للطم الشيطان. والطريف اشكال أعلام الدلالة، بيد الأمراء، والمطوفين، ورؤساء القوافل. احدهم علق شرشفاً على عصا (ربما كان من أهالي قم). وآخر علق علبة كارتونية كبيرة، وآخر رفع ابريقاً نحاسياً مقلوباً على رأس عصا. وغيره لف چراوية[1] كردية على خشبة ورفعها.. وهكذا دواليك. وبعضهم رفعوا اعلام البلدان، عليها اسماء، وصور رؤساء القوافل. الشارع الأصلي مزدحم، والمعابر اشد زحاماً، وعلى جانبي المعابر سيارات صغيرة، وباصات، وشاحنات (وسائل نقل الحجاج)، ضيّقت الطريق طبعاً، والذاهبون يصطدمون بالآتين، والعربات اليدوية بين جموع الماشين، تتحرك بصعوبة. ثم هنا الحمالون، والحمالون، والحمالون. وما اعسر حركتهم! حينما يقطع احدهم الطريق، يتضاعف الزحام بشكل مرعب. وفي هذه الذروة لمحت سقيفة صغيرة، على جانب من الشارع، فوقها لوحة مضاءة، بمساحة اربعة امتار في اربعة امتار. مُنارة في وضح النهار، لتقول (البرق، والبريد، و...). قفزت إلى الطابور، وبعثت معايدتين إلى طهران. بعد ذلك وجدتني لا أقوى على شيء. التجوال، والتفرج، يحتاج هو الآخر إلى طاقة وهمة. مجرد الذهاب والاياب إلى الجمرات اضناني بضراوة، كأني عائد من جهاد الشيطان. تجولت قليلاً ومررت ببقايا عمليات النحر، ووسط جماعات مكدسة مرصوصة، لا تخولك حتى أن تبصر الأرض التي تقف عليها، وفجأة تشعر أن ما تحت اقدامك ناعم لين، ربما كان جلداً أو امعاء، أو قطعة من ذبيحة أُلقيت. واخيراً وصلت. مررت على مهل لفترة ما بين حبال الخيام، إلى أن وصلت مكان «الصحرة». ولكن لا أثر لرئيس قافلتنا، ولا لقافلتنا. كنت متعباً إلى

---

(١) الچراوية غطاء الرأس.

درجة تمددت معها تحت أول خيمة فارغة، وعلى الارض العارية، واظنني غفوت، لأنني شعرت فجأة ان الخيمة امتلأت بالضجيج، والرواح والمجيء. وخطوات عربية تعبر على جنازتي. كانوا قافلة لبنانية من الشيعة. أوضح لي رئيسهم ان للصحرة مخيماً آخر، في مكان غير هذا. والتجوال تارة ثانية، إلى ان وجدت جماعتنا.

الشيء الذي يتعبك أكثر من أي شيء آخر اثناء المشي وسط هذه الجموع، هو عنف السود والبدو. وكأن السود تعلموا من اليمنيين وضع مرافقهم في ظهور الناس، لفتح الطريق. ورفاق دربنا الواصلون تواً، بعد لأي وجهد ونصب، وبعد أن ضلوا الطريق، وفقد البعض امتعتهم، انقلب كل واحد منهم إلى جنكيزخان، أو تيمورلنگ. ولا ننسى حرارة الشمس التي بلغت بقلوبهم الحناجر. والغداء لبن وخيار. ثم المسير والتضحية.

أما المسلخ فمساحة كبيرة، يحيط بها جدار، له بوابتان. ارضه محاطة بحفر كبيرة، اعدت مسبقاً، بجوارها تلال التراب المستخرج من الحفر. بعض التلال أعلى من الجدار، ويمكن رؤيتها من الخارج. والارض مغطاة بالذبائح. ماعز، وخراف، ونوق، ولا ترى ابقاراً. والذبائح المنحورة تواً لا تزال ترفس، والاطفال يحملون السكاكين، ويعبثون ببقايا الجثث. الاقدام تغوص دوماً في الدماء والاحشاء. اسير وانا رافع ذيول احرامي. أحدهم كان يصور فيلماً، وهو يرتدي الاحرام، بكاميرا من عيار ١٦ملم، ورجال من موظفي «دائرة الصحة والأمن» يحومون حوله[1]. الجميع بايديهم سكاكين، يخوضون بها في الحيوانات

---

(١) وسمعت ان فريقاً اندونيسياً صور هذا العام فيلما لمراسم الحج، وكان ثمة فريق فرنسي، وقد بث التلفزيون الفرنسي الفيلم، وشاهده شقيق زوجتي في باريس، وحدثنا عنه.

المجزرة، قطعوا رأس ماعز وألقوه جانباً. جاء صبي وركز سكينه في فتحة منحر الماعز، فتشنج الحيوان بشدة، والدم يشخب من نحره. يبدو انه متمرس، ويعرف ماذا يفعل، ليرغم الجثث على الرقص. لا ادري اين كان يغرس سكينه، فيزيد من تشنج الماعز ورفسها، على كل حال، كان يعرف ما لا اعرفه. ناقة ممدودة على الارض، حينما وصلت إليها رفست رفستين بكل جسمها، وقضت نحبها، والدماء السائلة من جرح نحرها تعلوها رغوة. جرحها كان بطول شبر واحد، ودماؤها المسفوكة صارت على الارض، كرغوة صابون ملون، تنفشت، واكتست لوناً بنفسجياً فاتحاً، ويالها من ناقة! كانت واقفة، حينما انبت الرجل خنجراً في نتوء صدرها، بجوار منبت العنق، وفتح جرحاً بطول شبر، من الاسفل إلى الاعلى، وما ان اراد الحيوان ان يلتفت حتى لقّاه لكمة على بوزه. جعر الحيوان، واراد الهروب، لكن اقدامه كانت مربوطة، فوقع ارضاً. واراد القيام، لكن الدم شخّاب من صدره، فلم يقدر. واستسلم شيئاً فشيئاً. التصق عنقه شيئاً فشيئاً إلى ان مس رأسه الارض. وانقطع شخيره الذي استمر دقيقة. وحينما وصلت عنده رفس رفستين، واسلم الروح. ابشع وجوه هذه البداوة الممكننة. مرتين أو ثلاثاً كادت قواي تخونني. تذكرت المرة الأولى التي زرت فيها صالة التشريح بكلية الطب. ربطت على قلبي بحماقة الصبيان، وسوغت هذه المذبحة بانها كانت للحيلولة دون ذبح الآدميين. لنعد إلى تضحية ابراهيم، هذه يمكن تسويغها على كل حال، لكن وضع المسلخ فضيحة حقاً، ورؤيته دقيقة واحدة خير دعاية للانضمام إلى النباتيين، لو وضعوا لقطة واحدة من هذا المسلخ في ذلك الفيلم «الدنيا الدنية» Mondo Cane لنجحوا ابهر نجاح.

كل الشوارع المفضية إلى المسلخ، مغطاة باجزاء من الذبائح. قطع اللحم الممكنة الأكل تؤخذ فوراً، ويترك الباقي. خصوصاً رؤوس الماعز والخراف، التي تسحقها عجلات السيارات. وحفار قبور كل هذه القرابين الضائعة هدراً،

بلدوزر أحمر، يصنع حفراً كبيرة بلا انقطاع. هنا وهناك على ارض المسلخ، وما ان تمتلئ حفرة حتى تفغر الأخرى فمها، وهكذا يذهب هذا الكم العظيم من الأضاحي هدراً. ما الضير لو اعدوا عشر شاحنات ذات ثلاجات، لينقلوا كل هذه الذبائح خلال ساعة إلى جدة (المسافة بين منى وجدة أقل من مئة كيلو متر)، ثم ينقلوها إلى متن سفينة، بحمولة ألفين أو ثلاثة آلاف طن ويقومون هناك بتمليحها، وطبخها، وتعليبها، وتجميدها، وهي في طريقها هدية إلى فقراء العالم؟! وما هي مهمة هذا الاسد والشمس الاحمرين[١]، والهلال الاحمر؟ ألا يبصرون هذا الاسراف الوحشي؟! والحال ان ثلثي الناس في دهرنا لا يأكلون اللحم مرة واحدة في العام. لماذا لا يعلبون هذه اللحوم، ويمهرون المعلبات بعلامة مسلخ منى، ويبعثونها تبركاً إلى مرضى العالم الإسلامي؟ أو للمرضى الذين يقضون نحبهم، بسبب سوء التغذية...؟ دعني من هذا الآن.

كثرة مشاغل السعوديين لا تسمح لهم الاهتمام بهذه الامور. علاج كل هذه المسائل تدويل إسلامي للحج. وإذا جاز لنا ان نقتبس بخل الاجانب وماديتهم، وجب القول ان عائدات بيع هذه اللحوم وحدها تفي بتكاليف ادارة مكة والمدينة. مليون حاج قدموا قرابينهم في هذه المراسم[٢]، ولكل واحد منهم

---

(١) الاسد والشمس شعار الشاهنشاهية في ايران.

(٢) نقلت صحيفة "المدينة" بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٣٨٣ أن (مجموع الحجاج بلغ ٨٠٠ ألف حاج، منهم ٢٦٦٥٥ أجانب غير سعوديين، والبقية سعوديون. ويأتي الباكستانيون بالمرتبة الأولى بين الأجانب: ٢٦٠٩٣ حاجاً. ثم تركيا ٢٢٣٨١ حاجاً، ثم الهند ٢١٤١٦ حاجاً، ثم ايران ٢٠٥٠١ حاج. تليها مصر ١٧٧٤٣ حاجاً، بعدها سوريا ١٦٩٣٧ حاجاً، ثم اندونيسيا ١٥٢٠٧ حجاج، يأتي بعدها السودان ١٤٤٤٥ حاجاً، يليه العراق ١٣٨٨٩ حاجاً، ثم اليمن ١٢٣٢٢ حاجاً، بعده الجزائر ٨٣٠١ حاج، ثم الفلسطينيون المهاجرون ٦٣٣٩ حاجاً، يليهم

ضحية واحدة على الاقل. ولنفترض انهم قدموا جميعاً خرافاً أو ماعزا من اضعف الانـواع، فيكون وزن كـل ذبـيحة عشـرين إلـى اربعيـن كـيلوغراماً مـن اللحـم، ولنسقط النوق من الحساب. النتيجة زهاء عشرين ألف طن من اللحم... فضلاً عن جلودها، وامعائها، و... ويالها من ثروة!! بينما هي الآن يعلوها التراب، وتتعفن، وتولد شتى الامراض.

ثم من اين تأتي هذه القرابين؟ سمعت ان غالبيتها يؤتى بها من السودان، والحبشـة، وبعضـها مـن اليمـن، وسـوريا، والعـراق. وهـل يمكـن تربـية المواشـي خصيصاً للتضحية؟ بعدد حجاج كل بلد؟ وايضاً قياساً إلى سهولة الحمل والنقل؟ وبذلك تعود ثروات البلدان الإسلامية إلى جيوبها؟ وكما ترون، فالقضايا كثيرة.. دعني من هذا.

أرض المسلخ والشوارع المحيطة به ملغمة من الدماء، والامعاء والاحشاء، واللحوم، والعظام، والاتربة. عناصر جعلت الارض وحلاً، وقذارة. لا تقع عينك على إنسان هناك إلا وفي يده سكين. اما انه يسعى لرزقه بنحر المواشي، أو انه يقتطع من اللحوم، وليأكل منها خلال عامه، وبعضهم يحملون ذبائح بكاملها على عواتقهـم. حتى من دون سلخها. سـمعت ان الحكومـة السـعودية تـأخذ الجلـود والامعاء، لكننـي رأيـتهم يـنحرون، ويقـتطع المضـحي كـل مـا يـريد مـن الضـحية وجلدها، ويترك كل ما يريد. شخصان ارادا اخراج ذبيحة بيضاء من باب المسلخ، فمنعتهما الشرطة، وقالوا لهما عليكما سلخ جلدها، والخروج باللحم فقط.

المغاربة ٦٨٠٩ حجاج، بعدهم الاردنيون ٦٣٥٩ حاجاً، ثم الماليزيون ٥٢٢٩ حاجاً، بعدهم الافغانيون ٣١٧٧ حاجاً، ثم التايلنديون ١٧٩٠ حاجاً، فالفلبينيون ١٤٢٣ حاجاً، ثم الغانيون ٩١٣ حاجاً...) وإلى آخره.

ثلاثة سود ـ رجل، وامرأة، وطفل ـ انهالوا عل بعير، يسلخون لحمه الأحمر عن العظام، وبدت عظام صدر الحيوان غليظة بيضاء. وفي مكان آخر شاب بيده سكين من قاع قفص صدري لبعير، بطريقة اذهلتني، بل ارعبتني. قطعان الخراف والماعز والواقفة، تنتظر دورها وسط الوحول، وترى احياناً قامات الابل الفارعة. الماعز تجتر، والخراف ناعسة. الماعز فقط فطنت الى مصيرها، فراحت ترغو وتضج، والشرطة عند بوابة المسلخ لا يسمحون بدخول قطعان جديدة، إلى ان تنحر القطعان الموجودة.

لاحظت أن هذه التضحية العظيمة تشفي غليل بعض المشاعر لدى الإنسان البدائي. من هذه المشاعر ما ذكرناه من التضحية بالحيوان بدل الإنسان. الكبش بدل اسماعيل. اذبح حيواناً عسى أن تكف عن ذبح الآدميين. ثم انها خير تمرين للطعن بالسكاكين، لسفك الدماء، ورؤية انهمارها. الرجال، والنساء، والاطفال يمسكون السكاكين بايديهم، ويخوضون في اجساد الحيوانات، كما يشتهون، بقصد توفير الطعام، أو لمجرد التسلية. رأيت عدة مرات أناساً يطعنون بقايا الذبائح، لمجرد التسلية، وشرر الغبطة والرضا يبرق من اعينهم، كأنهم جميعاً يدرسون علم التشريح، او أنهم يقومون بعمل بطولي نادر.

وأخيراً فإن هذا نوع من انواع الرياضة. سلخ الجلود، وتقصيرها، أو تطويلها، ومكابدتها، و... الخ، فالحج لا يحتوي رياضة أخرى، غير المشي، ورمي الجمرات. وهذه رحلة بداوة تحتاج إلى ثلاث رياضات على الاقل. والنحر هو الرياضة الثالثة.

في كل منى، ربما لا يتجاوز عدد الاشجار عشراً إلى عشرين، والباقي وادٍ، واحجار، وجبال محيطة. وتحت السواد الظاهري للاحجار المحترقة يلوح الجبل ابيض، بشيء من الخضرة أو الزرقة. وماء زبيدة نعمة عظيمة هنا حقاً. منذ سنين وهم ينقلون النفط من الظهران إلى سوريا بالانابيب، لكنهم منذ الف عام لم

يستطيعوا مد انابيب مياه لمناسك الحج! ويبدو انهم اجروا بعض التغييرات في مجرى الماء القديم، حتى علقوا على كل انبوب لوحة تقول «سبيل الملك» أو «زبيدة،العزيزية، السعودية».

أما على صعيد الكهرباء، فمنى مكهربة، وقد مدوا الاسلاك والاضاءة حتى تحت الخيام. جاءوا عصراً بسلك ومصباح كهربائي، وعلقوه على عمود خيمتنا، وهو الآن يضيء لنا اضاءة جيدة. يضربون الخيام بحيث يكون امتدادها بين الشرق والغرب لكيلا تدخلها اشعة الشمس. زوجاً، زوجاً في الغالب. طرق سمعي ان الامم المتحدة اخذت على عاتقها توفير ماء وكهرباء الحج، ولكن ما من اثر لمثل هذه التطورات اطلاقاً، فالفقراء الذين يتعيشون على الحج وتطفلاً على الحجاج، وحمالة المراسم كذلك، تعود بمنافع عل الاجهزة التقليدية السعودية، وتسند الحكومة اسناداً، لا اظن معه انهم يسمحون قريباً بتغيير السائد. واضح ان مناسك الحج ستبقى سنوات طوالاً بعد الآن، لأنها زيارة، وسياحة، وتجارة، وتسلية وتجارب لكل قروي نهض من عند حقوله، وأبقاره، ولم يجد غير هذه فرصة للسياحة والتجربة والسفر. ولكن إذا جعلنا هذا الحج في مستوى إنسان القرن العشرين، بل في مستوى إنسان القرن الرابع عشر، يمكن التفاؤل بانه سيكون مرحلة وتجربة في حياة ابناء الامم المسلمة، وإلا فالحج الحالي بداوة آلية، ممكننة... ويكفي هذا. يدي بدأت تؤلمني.

الخميس، ٢٣ نيسان ١٩٦٤

منى

نسيت أن أكتب انهم اطلقوا المدافع يوم عيد الاضحى (أمس) صباحاً في منى (وسمعناها في المشعر الحرام) وعند الظهيرة بدل الاذان. ثلاثة مدافع، تشير إلى انه عيد الاضحى. الحكومة السعودية تضع على ارضية علمها الاخضر سيفاً

وكلمة (لا اله الا الله). ومع ذلك تعلن عن العيد باطلاق قذائف مدفعية. بقيت حائراً في معنى هذا؟ تضعون سيفاً تحت كلمة (لا اله الا الله)، فهل تريدون القول ان الإسلام انتشر بالسيف؟ وهي فكرة ادخلها الاجانب في عقولكم، ثم ما هو دوركم في هذا الإسلام الذي انتشر بالسيف؟!

أمس صباحاً طفح الكيل بالحاج بائوچ، على الرغم من كل اعتزاله وركونه للصمت. تشاجر مع رئيس قافلتنا، واسمعه ما كان جديراً به. كلامه لا يفهم للاسف. واذاع جل السباب والشتائم باللهجة المازندرانية، فلم أفهم منها شيئاً، لكنه صفى حسابه مع الرئيس، والمازندرانيون في مجموعتنا تنفسوا الصعداء جميعاً. المؤاخذات كانت، لماذا كل هذا البخل والتقتير؟ ولماذا اعدت الرائد المسكين؟ والسرقات في مجموعتنا ولماذا تمتص الناس ولا تعطيهم شيئاً؟ وكثرة التعازي قد خنقتنا، و... إلى آخر القضايا. وهذه الازمة كانت الفاصل بين صلاة الصبح ومائدة الفطور، وقد ابدى رئيس القافلة تنازلات كثيرة، لأن عليه في ختام مراسيم منى ان يجمع من جماعته رشاوى لعمال القافلة، وبعد الفطور، سار بعض المازندرانيين إلى المسلخ، وحينما عادوا كان في يد كل واحد منهم قطعة لحم. أو فخذ كامل سمين. لم أر مثل هذا اللحم المكتنز، منذ ان انطلقنا من طهران وإلى اليوم. وشدني الشوق إلى الشواء، حتى أنا العاطل عن الاكل، وكان الجماعة يعدون اسباب الكباب، إذ تعالت تحذيرات وتنديدات رئيس القافلة، وساعده بعض كسبة السوق، انه لا يمكن أكل اللحم، ونحن غير مسؤولين عمّا يسببه لكم من أوجاع، و... الخ. والمازندرانيون يردون على الهجمات؛ ولكن من المستحب الاكل من لحوم الاضاحي، و... الخ.

ثم سمعت منهم انهم ذهبوا خفية إلى زاوية ما، واعدوا اسياخاً وفحماً، واراحوا بطونهم، وسددوا ديونها.

الطريف ان أغلب القرويين والمازندرانيين في مجموعتنا ذبحوا قرابينهم

بايديهم. تشاركوا في شراء سكين حادة، ونحروا القرابين واحداً تلو الثاني. ويالها من لحوم! حينما يتحدثون عنها يذوب القلب شوقاً إليها، لكن نظام قافلتنا يقضي التقليل من اللحوم، والاكثار من اللبن السائل والرائب.

روت شقيقتي وزوجها بعدما عادا من رمي الجمرات، ان عمالاً سعوديين كانوا يجمعون اللحوم، والجلود، والاحشاء المرمية في الشوارع. وكانوا يعقّمون الارض بمضخات يدوية، فقد كانت الارض بالامس، متدثرة حقاً بغطاء من اللحوم والجثث. خصوصاً على الطريق بين بوابة المسلخ إلى مخيم الحجاج. والنيجيريون ضاربون خيامهم على جانبيه. جلست عصر أمس في دكان حلاق أسود ليحلق رأسي بالموسى، مقابل ريالين. كان زنجياً، ويقول انه من الطائف. يحلق رؤوس الحجاج منذ ثلاثين سنة، ويعدها مفخرة عظيمة، يتباهى بها... طويل القامة، غير منتظم الخلقة كغلمان العصر الحجري «العصملّي». وموسه عريض، وكليل جداً كسكاكين نجف آباد[1] عندنا.

لم اخرج من الخيمة لحد الآن. اشتدت حرارة الجو، وتفاقم السعال علي، والمناظر ليست جذابة. نساء القافلة المجاورة ـ وهم ايرانيون ـ على ملاءاتهن علامة خضراء، في شكل ورقة شجر، خطنها فوق جباههن، ورئيس قافلتنا صنع مهراً كالطغراء باسمه ورسمه، يضربه على ملاءات النساء، خلف رؤوسهن، وما اتعس منظره! ومع ذلك يضيع في اليوم الواحد خمسة اشخاص أو ستة. وصاحبنا القروي لابس الجلود، لم يخلعها عنه لحد الآن. لابد انه خاط أمواله في بطانتها، لكنه يقسم بكل المقدسات انه يرتدي الجلد بسبب اوجاع ظهره... ولكن من ذا يصدقه؟ والطريف اليوم هو رؤوس الحجاج الحليقة، كأنها الرقي، ويالسعادة

---

(١) مدينة وسط ايران.

القرعان، وهم يرون الناس مثلهم! وبدت الجماجم بانواعها واشكالها المختلفة، المثلثة، والبطيخية، والدائرية، والمائلة... واطرفها جماجم المازندرانيين، التي تشبه جماجم القزوينيين جداً. مائلة من الخلف. وانا انزع قلنسوتي بصعوبة، لأن الشعر كالابر في قماشها.

وهناك ايضاً الباعة المتجولون، يدخلون تحت الخيام جماعات، جماعات. والشحاذون، الشحاذون، الشحاذون، بمختلف صنوفهم. لا طاقة لي على كتابة الصنوف واحداً، واحداً، لكن احدهم كان طريفاً، زنجياً عربياً،بيده عريضة بالعربية، تفيد انه يستحق الخمس والزكاة، في آن واحد، وفي خاتمتها مهر وامضاء المفتي العربي الفلاني. بعضهم ينتعلون شيئاً، والبعض حفاة. والحفاة اقذر من غير الحفاة، والعكس صحيح أيضاً.

وباعة الثلج، وباعة السجائر، والبرتقال، والشحاذون، وباعة العاب الاطفال، والشحاذون، الشحاذون، الشحاذون، والكل تنادي «في سبيل الله».

اما المراحيض هنا ففضيحة، منخفض اسمنتي، له خمس بالوعات. تفصل بين الواحدة والواحدة صفائح، والابواب خشبية محلحلة، وتقف عليها الطوابير ليل نهار، ويااللرائحة المنتشرة منها. خمسة مراحيض لخمس مجاميع، في كل واحدة مائة إنسان!

اليوم نفسه

منى

لم أخرج من الخيمة حتى الخامسة عصراً، لشدة الحر. نمت ساعتين عند الصباح، ونمت وقت الظهيرة ايضاً، ليس صحتي على مايرام. جاءني شقيق جواد بقنينة «سولو كامفر» لسعالي، استعملتها فخف السعال، وقضيت الوقت كله في قراءة رحلة فرهاد ميرزا، أو تسجيل بعض المذكرات، أو متفرجاً على الشحاذين والباعة.

ثم أقيم مجلس عزاء من جديد، بدأ نوّاحنا اولاً (اكتب الآن، وصالحي على المنبر يختتم خطبته بالادعية). ثم جاء باكستاني واخذ مكبرة الصوت، وراح يقرأ تعزيته بالاردية. لم أسمع بمثل هذا من قبل. ولكي يبرهن انه شيعي اصيل، وليس نصاباً، شرع باداء الشهادتينن ثم عدد اسماء الائمة الاثني عشر، وهذا هو الشيء الوحيد الذي فهمه الجميع من فرس، وترك، وعرب، اما الباقي،ف..؟ وقام جواد يجمع له النقود، وبدأ تململ المازندرانيين، لكن جواداً لم يبال لشيء. اخبرنا انه جمع له ٤٢ ريالاً سعودياً.

في الوقت الذي كان فيه الباكستاني يقرأ تعزيته، كان مجموعة من الشباب اللبناني في الخيمة المجاورة يلعبون الورق، على رؤوس الاشهاد، بلا أي شعور بالعيب أو القبح. وفي الخيمة التي على اليمين، والتي يعلق نساؤها علامات خضراء على ملاءاتهن، اقيم مجلس لطم في المساء، وحسين، حسين، حسين، وياللحماس! والخيام تتبادل سكانها، واكواب الشاي، و... الخ. وفي تلك الاثناء تعالى صوت الموسيقى من مذياع اللبنانيين، الذين يلعبون الورق. كانت اطراف خيمتهم مرفوعة، ونهضت امرأة من اطراف مجلسنا (قالت شقيقتي انها كربلائية) فراحت تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، عبر فتحة في خيمتنا، تطل على خيمتهم، بالعربية طبعاً. ويالها من لغة مناسبة جداً للامر والنهي هذه العربية! وبعد ان سكتت موسيقاهم، جاء شبابهم ليتفرجوا على مجلس تعزيتنا، ثم مراسم اللطم في الخيمة المجاورة.

اضيف شعر الرؤوس إلى كل فضلات هذا المخيم العظيم عصر الامس. والغريب انك لا ترى كثيراً من الذباب. ربما من شدة الحر اثناء النهار، ومن شدة البرد آناء الليل، ولكن اتذكر في المسلخ ان ذبابة حامت على قدمي، ولم تتركها. وحينما خرجت عصراً شاهدت العديد من العربات وادوات النظافة تتجول. يدوية، وآلية، و... الخ، لكن الجثث لا تزال تحت الاقدام.

السيّئ هو ان الحجاج انفسهم لا قابلية فيهم للنظام، نحروا الاضاحي اينما اتفق. في وسط الطريق، عند تقاطع الطرق، تحت الخيام، في السواقي، على حافتي الشوارع... وهكذا.

حينما كنت نائماً بعد الظهر، كان الجو حاراً إلى درجة ذكرتني بصيف العراق، سنة ١٩٤٣. كأننا لا خيمة فوق رؤوسنا تحجبنا عن أشعة الشمس. الرياح ساكنة، وجانب الجسم الذي إلى الاعلى كأنه تحت قصف الشمس مباشرة، تتصاعد حرارته إلى حد الاحتراق، كالكف التي تمسكها عند فتحة تنور، ورغم كل هذا لا يزال الحاج الهمداني يرتدي معطفه الجلدي.

ان دخان الكباب أخذ يتصاعد، منذ عصر اليوم الماضي، وعصر اليوم، قضيت نصف ساعة على جبل اعلى مسجد الخيف اطل منه على وادي منى، ورأيت الدخان يتصاعد إلى الهواء من كل مكان في المخيم. من طباخات القوافل الدائمة، ومن نيران الكباب المؤقتة.

وترى الآن بدل الذبائح المطروحة على الارض، اكوام العظام، واللحوم نصف الممضوغة في كل مكان. كتف ناقة مطروح في مكان ما، وقد بان بياضه الناصع من بين اجزاء اللحم الاحمر المتبقية عليه. ما أنسبه للكتابة! كاللوح تماماً. عريض، وكبير، وله مقبض. عددت البنايات الكبيرة من فوق الجبل: «وزارة الحج والاوقاف»، و «مسجد الخيف»، و «الامن العام»، و «امن العاصمة»، وبناية «ارشاد الحجاج». وربما كانت هناك بناية اخرى للملك، مع اني لم ارها. وهناك مركز الشرطة ايضاً. وفوق كل واحدة من البنايات لوحة مضاءة تعرفك الحماقات حتى من فوق الجبل. وكل اعلان لتوجيه الحجاج مكتوب بخمس لغات او ست: العربية، والتركية، والاردية، والاندونيسية، والفارسية، والانجليزية. وثمة في الوادي قرابة عشرة مكاتب للبرق والبريد، وعشرة مرافق عامة، كتبوا اسمها بالاردية «پاي خانه» على غرار «چاي خانه»، وكانت مبنية بناء انيقاً، حتى

ظننتها للوهلة الاولى «چاي خانه» فعلاً. لكن الروائح ارشدتني إلى الصواب.

عند باب دائرة ارشاد الحجاج، وفيها مطبخ، وخيام، وغرف للسكن، وقف حوالي اثني عشر خفيراً باعلام البلدان المختلفة، والكشافة السعوديون بسراويل قصيرة، وخرائط في الايدي، وصفارات في العنق، يساعدون الحجاج الضائعين على الوصول لخيامهم. سألت احدهم من أين يمكن شراء الخرائط؟ اجاب أنها لا تباع، انما اعطتنا اياها وزارة الحج والاوقاف. القيت نظرة عليها، كانت خارطة تفصيلية جيدة، ربما بمقياس ١/٥٠٠٠، واشارات إلى كل الوديان، والمرتفعات، والشوارع، وارقام القطاعات، واماكن الخيام الايرانية، والعراقية، والسورية، والمصرية، بل وحتى ارقام الخيام. وهذه علامة اخرى للنظام، ولكن كقطرة في البحر.

والطريف أمر هؤلاء الباكستانيين الذين يتكلفون الصعاب، ليكون لهم شأن بين الشعوب الاسلامية، كالغريب الداخل على جماعة من الغجر، ويريد أن يحتل مكاناً بينهم. يوزعون «ماء السبيل» على عدد الدقائق، وبصهاريج كبيرة، وعلى كل صهريج الف علامة واعلان. ومركزهم الصحي مميز هو الآخر (لكني لم ادخله). والاكثر تميزاً منه هو لوحته واعلانه.

حينما كنت اتنقل فوق الجبل، رأيت على جانب من الوادي، وفي شق الجبل، وادياً آخر صغيراً جداً، وفيه مقبرة، وجماعة متكاثفة هناك، نزلت إلى المقبرة. رجل مسن من الاتراك قضى نحبه، وجماعته تدفنه الآن. قرأت الفاتحة، واومأت برأسي للواقفين بالعزاء، وطول السلامة. القبور معدة سلفاً حُفرت في التراب، وصُبت لحودها من اسمنت. واحصاءات الوفيات في اليومين أو الثلاثة الماضية سبعة اشخاص، نقلاً عن احد عمال الجنائز.

أما عمال قافلتنا فقد جمعنا لهم الليلة ١٣٠٠ تومان، بعنوان عيدية، أو بقشيش آخر المراسم. اعطى جواد اربعين ريالاً سعودياً، بالنيابة عنا نحن الاربعة، أفلا

يأخذون من النساء؟ أم ان شقيقتي وحدها لم تعطهم شيئاً؟ لم اعرف.

على الجانب الجنوبي لوادي منى (رأيت ذلك من فوق الجبل الفاصل) ثمة واد آخر، يشبه الاول، مع فروق طفيفة في تقطعات الجبل. ارض الوادي بيضاء، والجبال سوداء. الصخور الغرانيتية الضخمة متسلقة على بعضها، كأنها مرصوفة بشكل اصطناعي. وطريق في وسط الوادي، حوله بعض الابنية والتأسيسات، منها بناية كبيرة، تشبه ثكنة عسكرية. جال ببالي ان هذه منى احتياطية، لو اتسخت الاولى وضاق فيها المكان، يمكن نصب خيام في هذه الثانية. الفاصل بينهما جبل، ولابد طبعاً من نفق في الجبل لرمي الجمرات.

الطائر الوحيد الذي رأيته في منى وعرفات، كان فوق الجبل، عصفور صغير، اسود الجناحين، رمادي الجسد، يتنقل بين الاشواك، ويبدو ان ما ظننته إلى الآن عاقولاً، انما هو شجيرات أم غيلان صغيرة.

جلست في مكان مرتفع للاستراحة. ورحت ادخن سيجارة، إذ وفد ثلاثة من العرب، والسلام عليكم، وعليكم السلام، وكانوا يمنيين. الشمس تنحدر نحو المغيب خلفنا، وامامنا ارض الوادي، تحيط به الجبال. المصابيح تنار واحداً تلو الآخر. قال الثلاثة انهم مهتمون بالسياسة، ومن انصار «الامام البدر» ومعارضون لعبد الناصر، ومؤيدون للسعوديين. احدهم، وكان الناطق باسم الآخرين، قال انهم قوات مسلحة للامام، ولكن كلما سألتهم اين الامام؟ واين خطوط جبهتهم؟ لم يكونوا يفهمون ما الخرائط، بل كانوا أميين اساساً. ولم ينفع معهم اني رسمت خرائط على الصخور، لعلهم يشيرون إلى شيء. او انهم تظاهروا بعدم فهم ما اقول، كتماً للاسرار. قالوا انهم سيعودون بعد ثلاثة أيام إلى «تعز». وتبين انهم ليسوا من الزيدية، بل من الشافعيين. يظهر ان اليمنيين افقر حجاج العالم، مظاهرهم رثة، واجسادهم جد نحيفة من سوء التغذية، وهم اصحاب الموائد هذه الايام في اطراف المسلخ.

حينما نزلت من الجبل، مررت عند كل شبر بامتعة للحجاج، وضعوها في ظلال الاحجار، خوفاً عليها من الشمس. وبدأت تلوح الآن على ضوء القمر، والانوار المضاءة في الوادي. عثرت في طريقي على ساعة يدوية فوق حجارة، نسيها صاحبها هنا. انحنيت لا ارادياً واخذتها، ومشيت خطوتين ثم تذكرت، أين أنا؟ ومن انا؟ عدت وارجعتها إلى مكانها.

ثم اني ادركت الليلة، لماذا يتخذون الشهر القمري ملاكاً للاعمال هنا، دون الاشهر الشمسية. اقصد في كل هذه النواحي من بابل القديمة، إلى مصر، فالاشهر الشمسية لايمكن ان يكون لها معنى هنا. الشتاء كالخريف، وكلاهما كالصيف. وهكذا من المناسب اعتماد الاشهر القمرية. والليالي الصافية الباردة، تشجع على ذلك. ولهذا تقام المراسم الدينية في النصف الاول من الشهر عادة؛ ١٠ ذي الحجة، ١٨ ذي الحجة، ١٥ شعبان، الثالث من رجب، العاشر من المحرم... و إلى آخره. أي ان المناسبات الدينية، والاعياد، والمآتم تتخذ غالباً حينما يكون القمر عالياً ممتلئاً، أو انه في طريقه إلى الرفعة، حتى تكون الصحراء مضاءة في الاماسي الباردة، فيتسنى بذلك اداء الطقوس والمناسك.

الكهرباء في منى ذابلة، ولا تغطي الحاجة، لكثرة الاضواء والمصابيح على ابواب البنايات الحكومية، وفوق قممها. ولكن من الواضح ان وضع البنايات، والكهرباء، والماء يتحسن عاماً بعد عام. وواضح ان الحياة متواصلة في منى بعد انتهاء موسم الحج، فهي في غير ايام الحج منطقة مأهولة في مستوى قصبة.

ان النواحين والوعاظ الايرانيين ـ كل المجاميع الايرانية التي زرتها كانت على هذه الشاكلة ـ يصرّون ايما اصرار على ذكر الامام المنتظر، في كل مناسبة، خلال ايام الحج. وان الامام المهدي المنتظر يحج كل سنة، وكأنهم يريدون الايحاء للحجاج، بان كل رجل عادي في موسم الحج ربما كان هو الامام المهدي. فحذار من الاساءة إلى احد، و... الخ.

هذه طبعاً غاية طيبة جداً، لكنك ترى ان هؤلاء الحجاج رغم غناهم (استطاعتهم) قانعون، ترابيون بشكل عجيب، أي انهم ليسوا استهلاكيين، لكنهم على كل حال زبائن مميزون للصناعات الغربية، كل ما يستهلكونه في الموسم اما غربي او ياباني. الاضاحي فقط ليست من صنع الشركات الاجنبية. وهم يهدرونها على النحو الذي ذكرت. لو القينا نظرة من زاوية غربية، وقلنا ان «الحضارة» هي «الاستهلاك» أو «الحاجات المتزايدة دوماً»، فهؤلاء الحجاج متخلفون جداً، وهم في طريقهم إلى التنمية. ولكن متى ينمون؟ لا شك هذا سيحدث حينما يستهلكون البضائع الغربية، أكثر، فأكثر!

والقضية تكمن هنا تحديداً، أي لابد من كسر هذا الطوق المغلق (ذهاب المواد الخام، وعودتها مصنعةً، ثم استهلاكها. والمستهلك يحتاج اموالاً، وقدرات شرائية، فمن أين تتوفر هذه الاموال؟ من تصدير المواد الخام. وهكذا دواليك). ينبغي ايجاد ثغرة في هذا السور المنيع. غاندي مثلاً اعطى الهنود ادوات غزل ينتجون بها، ومصدق اغلق انابيب النفط... دعونا من هذا الآن.

يروي مدير مطبعة في القافلة المجاورة، انه شاهد زنجياً سودانياً تأخذه الشرطة إلى السجن، مكبلاً بالاغلال، وهو يبكي، ويستغيث، ربما سرق شيئاً.

يقول جواد ان الحجاج الايرانيين لم يصابوا بخسائر لحد الآن. ثم ان روائح الجيف بدأت تنتشر من الآن (الساعة العاشرة والنصف مساء). الرياح صامتة، والجو حار، والقمر عال، ونتن الذبائح، والاحشاء المسحوقة تحت الاقدام، تختلط روائحه بروائح المرافق. إذا خرج الحجاج من هذه سالمين فقد سلموا.

الجمعة، ٢٤ نيسان ٦٤

لا نزال في منى

ايقظونا اليوم في الرابعة فجراً . ايقظتني «ولا الضالين» يجرها محدث جراً. هاهم يصلون قبل اذان الفجر مرة اخرى. توهموا اضاءة الشوارع والبنايات في الوادي (مع انها على جهتنا الغربية) فجراً يستوجب الصلاة. حدث هذا أكثر من مرة لحد الآن. احدهم ينتابه الارق، فيقوم لصلاة الليل، ويظن الآخرون انه الفجر، فينهض الجميع ويصلون صلاة الصبح. كانوا يستعدون للنوم مرة اخرى، حينما نهضت ورحت أضجر من مغبة السفر مع عامة الناس. رششت ماءً على وجهي، وسرت إلى مسجد الخيف، للمشاركة في صلاة الصبح، التي لايزال هناك نصف ساعة على فواتها. صادفت في الطريق ثلاث بنات جميلات، يمشين مع والدهن. ثلاثتهن بقامة واحدة، ومتشابهات كالتوائم. الوجوه صغيرة، ومحتويات الوجوه منتظمة مرتبة، والشفاه متجمعة دائرية، واللون حنطي، والقامات ممشوقة. بدا لي ان الحج مناسبة طيبة للتعارف والزواج. الاب كان يمشي امام بناته. عجلت في المشي ومررت.شاهدت بعد ذلك سلتين من تفاح صغير في دكان. في مثل هذا الصباح! لا اظن ان اصحاب الدكاكين هنا يعرفون ليلهم من نهارهم. في مكة ايضاً رأيت مثل هذا التفاح، أو أظنني رأيت مثله، بحجم الطماطم غير الناضجة. ثم رائحة الحناء التي استعملها الناس. انه العيد على كل حال، وقد انتهت مناسك الحج، وينبغي الذهاب لزيارة بيت الله بكل تأنق، وبكامل الخضاب، وما أكثر ما تباع الحناء في مثل هذا السفر. اعظم «الصوغات» من الديار المقدسة. وخلف ابواب المرافق الخشبية على مر الطريق، طوابير طويلة. يضاف إلى هذا جلوس رجال ونساء في الكثير من الزوايا، بجوار كل واحد منهم إبريق أو «كتلي». يقضون حوائجهم، ثم يتوضأون. ليتكم علمتم بالاعمال الكبيرة التي ينجزها

الافارقة والهنود باقل القليل من الماء! وهناك اعلان يقول «بعثة امدرمان سوداني» ربما تعني (الهيئة الصحية السودانية). وربما كانت امدرمان هي أم درمان. ومعنى هذا ان الفارسية ساحت في الارض بصور شتى[١]. وهذا اعلان آخر فوق صنبور مياه: «منجانب پاد شاه سعود. سبيل الله. پايي مفت. نهر زبيده. ايرثوچوماري سبيلكن. اوليه بكندارجا سعود. عين زبيده» (كذا) العربية مختلطة بالاردية، والتركية. والطريف انهم كتبوا هذا المعنى بالانجليزية ايضاً. هكذا:

King soud Drinking Water Supply.

وما هو هذا الذي يتباهون به؟ انبوب ماء بطول مترين، تفرعت منه صنابير مياه، لا تخرج من أي منها قطرة ماء، جربتها واحدة واحدة. أضف إلى ذلك انك لا تجد في ذلك الوقت من الصباح أي حنفية ماء، من دون أن يكون امامها طابور طويل من العطاشى. وهناك صهريج ماء امام هذه الصنابير، يتسلق الناس عليه، ويغترفون منه. بعضهم من حنفيته، والبعض من فتحته العلوية. ويتحاورون فيما بينهم بالاوردية (جيك وبيك، جيك وبيك). لابد ان تذهب للحج لتفهم معنى «جنات تجري من تحتها الانهار»؟ وهذا اعلان آخر: «معلم حسن شير محمد پنجابي» ولابد ان المراد بالمعلم هو المطوف. ثم يبدو اننا سنتخلص عصر اليوم من الحياة تحت الخيام، ونعود إلى مكة.

---

(١) لكن علي أكبر كسمائي نبهنا إلى ان امدرمان مدينة في السودان على ضفاف النيل مقابل الخرطوم.

يوم الجمعة ايضا

مكة

كنا مستعدين للسفر اليوم، من الساعة الواحدة بعد الظهر، للعودة من منى الى مكة. الامتعة مجموعة ومرزومة. البعض بكروا في الانطلاق، وساروا مشياً على الاقدام، أو على متن السيارات، اما نحن فانطلقنا في الرابعة والنصف، ووصلنا في السادسة والنصف. ليس الطريق بعيداً بين منى ومكة، لكن زحام الطرق عذاب قاتل، ولا علاج له فيما يبدو، إلا بتوسعة الطريق، وهذا بحاجة إلى همة، ربما لا يتحلى بها السعوديون. الطريق كله كان باتجاه واحد، من منى إلى مكة، والمشاة يحملون امتعتهم على عواتقهم ورؤوسهم، او يعلقونها على طرفي عصي غليظة، يحملونها على اكتافهم، والرجال مختلطون بالنساء، والطريق غاص بالسيارات والمشاة، وبالآثار الباقيات من مخيم الحجاج في منى، وبجثث الاضاحي المنتفخة، كأنها قرب مملوءة، واطرافها ممدودة بتضرع الى السماء. موزعة في كل مكان، وروائحها النتنة تتفسح في الهواء. يالها من نعم يبددونها هدراً! لكن الغريب انه لا ذباب هناك، ولا كلاب، ولا غربان، ولا رخم. التفسخ وحده يملأ الفضاء. نظر خالنا الى الجثث وقال: «فأين القطط اذن؟!».

في منى يتيقن الإنسان ان قرابين الحج في العالم الاسلامي، اسوأ قرابين الدنيا عاقبة، فالقرابين اما ان تؤكل، أو تحرق، أو تطعم للآخرين، لا أن تطعم للتراب، ويتضاعف منها نتن الدنيا بهذا الشكل، والبلدوزرات لاتزال تزأر، وتحفر الحفر الكبيرة... الى أن خرجنا من اجواء منى الملوثة.

والطريف هم الفقراء، الذين علقوا اللحم على الحبال. يقطعون اللحم قطعاً رفيعة طويلة، قطر الواحدة منها بقطر الاصبع تقريباً، وطولها بطول الذراع، وينشرونها على الحبال، كما نصنع نحن بالفلفل الاحمر. يفعلون هذا في منى قرب المسلخ، وفي الضاحية الشرقية لمكة، حينما دخلنا كانت كل البيوت قد

مدت حبال اللحوم، وترى احياناً قطعاً من اللحم على احجار بجوار البيوت، لغرض التجفيف. مرت شاحنتان مزدحمتان بالبدو، وقد علقوا بجانب قرب الماء افخاذ الاغنام. ومع كل هذا عادت قطعان كبيرة من الخراف والماعزالمحتضرة من منى، وكانت السبب الرئيس لزحام الطريق. انها الناجيات من هذه التضحية غير المجدية. ان اخذ المواشي قبل يومين أو اكثر، يعني توفير علفها ليومين أو اكثر، ولكن من الذي يفكر في مثل تلك الفوضى بعلف الحيوانات واطعامها؟ سألت رفاق سفرنا، فتبين أنهم اشتروا القرابين بعشرين ريالاً سعودياً الى ثمانين ريالاً، وقد دفع اعلى الاثمان ذلك السيد ذو اللحية الملونة. ولا شك ان الحيوان الذي يباع بعشرين ريالاً (أي ٣٦ توماناً) ضعيف محتضر، لم يبق منه شيء للتقرب الى الله، انه جلد وعظم بلاريب، ولا يليق إلا بالتراب. أما انا فاشتريت ضحية باربعين ريالاً.

في مكان ما عند العودة، مررنا بمعبر ماء «زبيدة». ماء يجري داخل قناة مغطاة على صدر الجبل من الطائف الى مكة. يمتد نحو اربعة كيلو مترات بمحاذاة الطريق، ثم يختفي، وله مساند حجرية طويلة، وبقرب المدينة تراءى للانظار بيت شيد على صخرة مستقلة عن الجبل، وحول البيت حديقة من الاحجار المزروعة في الارض اصطناعياً. كل حجر مكان شجرة باسقة. حينما دخلنا المدينة، قرأت فوق باب محل لتصليح السيارات عبارة «مستشفى السيارات». وعند باب احد البيوت وضعوا برميلي ماء، ووقف صاحب الدار بالباب ينادي: «ماي بارد سبيل».والعابرون يقفون احياناً ليشربوا منه الماء وينصرفوا. يتساقط الماء من أفواههم على ثيابهم، الى درجة اشعر معها بالبرد حين اراهم. أما الشاحنات فقد زينوها، وزوقوها بنحو مبالغ فيه، على غرار ما يفعله عمال البناء عندنا مع دراجاتهم الهوائية. اضوية ومرايا، وزرقورق، وزينة.

والمشي بين منى وعرفات مسيرة عظيمة، والافضل ان لا تكون هناك

سيارات. يمكن اختيار ساعة مناسبة في اواخر النهار، والانطلاق فيها مشياً، ستكون مظاهرة فاخرة، وبالمستطاع اخذ العاجزين وكبار السن بعد ذلك بالسيارات. الطريق ليس طويلاً، وبامكان الاغلبية الساحقة قطعه مشياً على الاقدام. ينبغي اخراج السيارات من هذه المسيرة الدينية. وهذا ممكن، ولكن على يد التدويل الاسلامي.

الحاج بائوج اشترى امس قميصاً جديداً، من سوق منى، فقد مزّق بنفسه ياقة قميصه، اثناء شجاره مع رئيس القافلة، مزق قميصه تمزيقاً فظيعاً الى الاسفل. لم ار منذ زمان قميصاً يمزقه الشجار، وهو الآن بقميصه الازرق هذا تحفة يشار اليها بالبنان، كالماعز الصغيرة المذبوحة، بعدما تنتفخ وترمى في زاوية، مع فارق انه يجلس على الارض.

والتفرشي الاعتزالي زعم اليوم انهم مزقوا هميانه، وسرقوا ثلاثة آلاف تومان ونيف كانت فيه، فهل كان يعتزل الجماعة خوفاً على أمواله؟

الانسان محروم في هذه الرحلة من الجمال، سواء بالنسبة للفن، أو من حيث قامات البشر. الصخور عجيبة، وكذلك الصحراء، وحتى السماء. شجيرة ام غيلان صغيرة وسط الصحراء الشاسعة، قصيدة عصماء طويلة. عندما تعيش في مثل تلك البيداء، تتحرى ضرورة النبوة في الهواء، وتتلمسها في التراب، فهل يتاح القول ان خشونة الامر والنهي، وهي من مستلزمات كل ديانة، وليدة تلك الطبيعة القاسية؟ اياً كان، لازالت بساطة الخشونة البدوية مهيمنة على كل شيء. وترى هناك ان ابراهيم محطم الاصنام، كان محطماً للفن ايضاً، ولكن أليس هو الذي شيّد البيت العتيق؟ أفيكون الوهابيون سائرين على خطاه...؟!

المساجد بيضاء في الغالب، والبيوت بنية، أو سوداء، أو زرقاء احياناً، وحتى خضراء. هذا عن البيوت الجديدة، أما الاقدم، وخصوصاً في مكة، فلها جدران حليبية، وتغطيها واجهات خشبية، بلون الخشب الاصلي، وهي اروع ما يمكن

مشاهدته هنا من بنايات. من اجل بناء بيت من سبعة طوابق. في مكة لا يرفعون سوى سبعة أو ثمانية جدران وأسس، ويغطون ما بين الأسس بألواح خشبية، بابواب مضاعفة، وستائر، وزخارف حشبية، وهناك مصابيح تضاء، في اعلى نقطة من الدار، وعلى حافات السطوح، وفوق المآذن. وقد سطع محيط بيت الله باربعة عشر مصباحاً متوهجاً «بروجكتر» أو اكثر من ذلك . انها ايام عيد على كل حال. خلعوا على مقام ابراهيم، وبوابة الكعبة القديمة اكليلاً، بألوان صارخة. المهم ان الكعبة ذاتها مبنية من احجار غرانيتية كبيرة، ولبساطتها هذه عظمة لا تقاس بهذا الجمال المتبدل كل يوم على الجدران والابواب، لكن ارضية حجر اسماعيل مقفعة. لابد ان يفكروا بمقام ابراهيم، وباب الكعبة، بعد ان يفرغوا من تشييد الرواق الجديد، وهدم القديم، ويجعلوهما بحيث لا تعرقلان طواف الحجاج، كما صنعوا بالمنبر، وبئر زمزم، فابعدوا الاول عن البيت، ونزلوا بالثاني الى تحت الارض. خطر ببالي امس ان هذه الكعبة ربما كانت المعبد الوحيد المشيد في الهواء الطلق. المعابد الاخرى محاريب، أو تماثيل، أو أصنام، أو مشاعل، لها على كل حال سقوفها وجدرانها التي تحفظها من الرياح والامطار والشمس، حتى اليهود في سنوات التيه كانت لهم خيمة يجتمعون فيها. أما هنا فالمحراب الاصلي غرفة كبيرة، أو انه بيت كما يسمى، عرضة للرياح والامطار، وربما لهذا السبب سموه بيتاً.

والمثير هو تساوي كل الناسكين، والعابدين، والركع السجود. تختفي هنا كل علامات الارستقراطية، والطبقية، وما من مكان يخصص لهذا الامير او ذاك الملك.

عندما وصلنا عصر الامس، استحممت، وتوجهت الى بيت الله. طفت، وصليت، وسعيت، ثم جلست اتفرج. مجاميع من الطائفين يمسكون بعضهم بقوة، ويحرس احدهم الآخر بدقة، وكأن الناس بئر من رمال، يجب الحذر من

الوقوع فيه. بعض الشباب حملوا آباءهم وامهاتهم على ظهورهم، وراحوا يطوفون بهم. وحماس مجموع الناس ينتقل الى الفرد، ويزيد من سرعته. ست أو سبع نساء زنجيات مررن بجواري، تضوع منهن عطور ذكية. عدة عطور مختلطة ببعضها، لاول مرة أشم من الزنجيات رائحة طيبة، مع اني لم اشم منهن رائحة غير طيبة.

ثم جاءت مجموعة على جانب كبير من الطرافة. الرجال امسكوا بأيدي بعضهم، صانعين حلقة احاطت بنسائهم في الوسط، وهم يطوفون على هذه الحال.

وتشاجر حمالان، يحملان كرسي طواف مع احد الرجال، على بعد خطوات من الكعبة، وعلا الضجيج والصراخ! لم اسمع من كل ذلك الضجيج سوى كلمة «مصروع». تسربت الى اذني من بين همهمات الطائفين، ومن لسان احدهم، ثم غابوا هم واصواتهم بين الطائفين.

بعض الرجال وضعوا ايديهم في نعالهم وهم يطوفون وجاء شحاذ يسأل، ضرير يلبس البياض، ويحمل فوق رأسه قماشاً يظله، وفي يده اليسرى عصا من خيزران، وسلسلة ساعته الفضية مقوسة من جيب صدريته الى زرها. يعطيه الناس الصدقات في يده اليمنى، فيصنفها بنفس اليد، ويضع كل واحدة في احد اربعة جيوب في صدريته.

في طريق العودة، استوقفتني مادة سوداء في دكان احد العطارين. كان العطار يخرجها من التنكة بالعصا، ويضعها على ورق ملون، ويلفها، ويرصف اللفائف على طبق للبيع. سألت عن اسمها، قال: «جراك». مادة يدخنونها بالزجاج...(؟) مر رجل آخر وشاهد استغرابي، فقال: إذا اكلت حد التخمة، فإن تعاطي هذه المادة سيريح بطنك. سألت هل هي من نوع الافيون أو الحشيش؟ لم تكن كذلك. لها رائحة عطر لا اعرفه. في طعمها مرارة. سوداء مطلية بالزيت.

تبدو كأنها قبر لين، وسوادها كسواد الكحل، لكنها لم تكن أياً من هذه الاشياء، أي ان رائحتها ليست كرائحة أي منها. تركتها أخيراً من دون ان افهم ما هي.

قلما تبقى استفساراتي بلا جواب هكذا. انه الحج الاكبر بكل ما فيه من غرائب. وعوض ذلك عرفت افغانياً كان يشتري الحناء، تمشينا ندردش، فقال ان الحكومة الافغانية في يد مئة عائلة ملكية، فقلت له انها هنا في يد خمسة آلاف نفر من العائلة السعودية. وحكومتنا كانت يوماً ما في يد ألف عائلة، والآن...؟ في يد حديثي التأنق، بفضل اموال البترول.

السبت، ٢٥ نيسان ٦٤

مكة

الحاج بانوچ ما انفك يزعل من الآخرين. اصبح اعتزاله مائدة الجماعة ديدناً لا يتنازل عنه، او انه ابتلاء لا يستطيع الفكاك منه، لكن عينيه تراقبان كل شيء بدقة، وينقنق على مدار الساعة، والمؤسف انه يفعل ذلك بلهجة مازندرانية غير مفهومة.

المازندرانيون جماعة متميزة داخل جماعتنا. لهم احاديثهم، ومداولاتهم الخاصة، وبلهجتهم المحلية. واحد منهم يسمى «اسلامي» من مدينة چالوس، يروي ان فلاناً من المازندرانيين، الذي شقت عليه مناسك الحج، قال يوماً بأنين وتضرع: «يا امام حسين، فدتك نفسي، تعال وخلصني من شر الله!»

قال هذه في اليوم الذي تلا الليلة التي تراكمنا فيها على بعضنا، في المشعر الحرام على سفح الجبل، وضاقت بنا السبل من خلفنا، ومن بين أيدينا. رجل متوثب الروح. وعرفت بعد هذه الدعابة، لماذا يبكي هؤلاء عند بيت الله، وهم يستمعون تعزية سيد الشهداء، ويتمنون زيارة كربلاء؟ انه طموح الحضارة في معقل البداوة. في منى، وقف شرطيان عند «جمرة العقبة»، وبايديهم السياط. لم

افهم السبب، سألت أصحابي اثناء الغداء، فاجابني احدهم انه كان هنا في العام الماضي، ورأى بنفسه رجلاً تعلق بالجمرة، وراح يلطم رأس الشيطان بالحذاء، فعلق الاصفهاني الاقرع «خوفه ان يتعب الشيطان من وابل الحصى، ويفكر بالفرار، ذهب الرجل وظل ممسكاً به». وروى آخرون ان البعض يرجم الجمرات حتى بالمعلبات الفارغة، اما انا فشاهدت الرجم بالاحذية فقط.

لا أقوى اليوم على فعل أي شيء، سوى القعود والتفرج على رفاق السفر. عقيد متقاعد، ثلاثة مازندرانيين أو أربعة، صانع اسنان، بعض الاصفهانيين، والطاجيكي الزاعم انه طهراني، وعدة اشخاص غيرهم. كل واحد منهم في مكانه، تبدو على الواحد منهم امارات البخل، والتشدد، وعدم الاهتمام بالآخرين، والانكباب على تدبير شؤون السفر المهمة، وغير المهمة، ورزم الامتعة وفتحها (وما شأنك انت حتى تراقب الناس باربع عيون؟ انهض واحلق ذقنك، واخرج من البيت). في اليوم الذي حلقت فيه رأسي في منى، عدت الى الخيمة، وجلست احلق ذقني، امام الناس (ربما اردت الرياء والمباهاة). وقد رمقني الكل بسهام نظراتهم، وكأني ارتكب معصية كبرى، مع ان اغلب الذين رمقوني بتلك النظرات حلقوا لحاهم في اليوم التالي.

الاحد، ٢٦ نيسان

مكة

لا انباء عن العودة لحد الآن، مع ان مهمتنا انتهت. ننتظر ترخيص الحكومة السعودية. شاع ان المصريين يمنحون قبل غيرهم تراخيص عودة، بحسب العرف الجاري في الاعوام الماضية، لكنني لم ار اثراً للمصريين لحد الآن. اظننا هنا الى عيد الغدير.

لمدينة مكة «بدالة مركزية». مزارع بيوتها مزهريات من التنك، وعلى

السطوح حمير من النوع البندري الكبير، الذي اشرت اليه. على ظهورها بسط أو سجاجيد صغيرة، أو انها مربوطة بالعربات. تمشي سريعاً كأنها الخيل.

رأيت امس بائعاً جوالاً يبيع اوراق الشاي، في سلال كبيرة. كان معه ثلاثة انواع في ثلاث سلال. بسط بضاعته على رصيف الشارع.

وحينما مررت امام باب محل تغسيل الموتى، اسفل محلة سليمانية، شاهدت عدداً من الحجاج الاتراك، يصلون على ميت مكفن، مددوه على مصطبة امامهم.

البارحة حصلت اخيراً على قهوة، عند البوابة الغربية لمكة، في مقهى مزدحم كمقهى قنبر، وشاي، ونرجيلة. معظم الزبائن من الاتراك. القهوة بقرشين، في وعاء فلزي، لا يتسع لاكثر من فنجان، وحبات القهوة غير الذائبة يمكن مضغها بين الاسنان. طلبت ان تكون مُرّة.

سألت التركي الذي بجواري عن عدد الحجاج الاتراك، قال شيئاً لم افهمه، فوضعت ورقة امامه، وكتب العدد باللاتيني، ستون الفاً. جاء عشرة آلاف منهم بالطيارة، وال «واپور»، أي السفن. يبالغ كغيره. ثم مرت سيارة تابعة للهلال الاحمر السعودي، كتب عليها «تبرع ارامكو».

قبل ان اصل الى هذا المقهى مررت بساحة كبيرة محاذية للشارع ومسورة. سألت عنها، فاذا هي مقبرة. كانت مستوية، وخالية كراحة اليد المبسوطة. وما اسمها؟ «حارة الباب»، مثوى عدد كبير من عظماء الاسلام.

ثم صادفت صرافاً، علق بالدبابيس على لوحته ٢٣ نوعاً من العملات، لا أثر فيها للعملة الايرانية. صرفت عنده بعض المال، فأعطاني مقابل ١٠٠ تومان ٥٤ ريالاً سعودياً. في جدة، كانوا يعطون ٥٦ ريالاً، وفي المدينة يهبط الرقم الى ٥٣. قلت لجواد حينما كنا في جدة، الافضل ان تصرف نقودك هنا، لكنه لم يسمع مني. تحاسبت معه أمس، واخذت بقية نقودي. عندي الآن ٣٥٠ توماناً ايرانياً، و ٢٥ ريالاً سعودياً. انفقت الى الآن ألف تومان، ولكن كيف؟ لست ادري.

اشتريت البارحة عدداً من مناديل الرأس، عشرة منها بخمسة عشر ريالاً، عليها صور مكة والمدينة. كنت جالساً في المقهى واذا بأصوات سيارات بصفاراتها وابواقها، تدل على سرعة عالية. موكب «فخامة» احد الشيوخ العرب، ببهارجه، وطنطنته، والشرطة على الدراجات النارية، تسير امام الموكب، وتنادي رسمياً «اطرح! اطرح!» أي ابتعد، غض طرفك ... كالعهد «العصملي» تماماً.

اليوم نفسه

مكة

ها قد بدأ القرف، والملل. الجو شديد الحرارة، ولا يمكن الخروج اثناء النهار. بقيت الى الخامسة عصراً، اقرأ «هداية السبيل» بقلم فرهاد ميرزا. يكتب حرف (N) بشكل مغلوط، ويتشدق مع ذلك بمعرفة الغرب، وبقراءة الخرائط البحرية لقبطان السفينة، لكنه عند هوج العواصف يعطي الملاحين تراباً مقدساً، يرمونه في البحر ليسكن غضبه. انسان عجيب، مع انه لا يشط كثيراً، ولكنه بوصفه أميراً من العائلة المالكة تمتع بما لا حصر له من النعمة والترف، وتهيأت له اسباب العلوم والثقافة، يبدو احياناً على درجة من الجهل، تفجّر في الانسان غيظه. هؤلاء هم اعلم رجالنا قبل مئة سنة، وهذا ما افضى الى ما نحن عليه اليوم.

حينما خرجت عصراً، بقيت لساعة من الزمن، رفيق خالنا في تبضعه وتجواله بين الدكاكين. خرج ليشتري بعض الاشياء فلم يشتر شيئاً، ظل ينتقل ويساوم من دكان الى دكان. ساوم وتململ الى ان تعب، لكن قلبه تفتح. اعدته الى البيت، وتوجهت الى جبل ابي قبيس، ومسجده، مسجد صغير لطيف، على صخرة مطلة على مكة. المكان الذي يقال ان القمر انشق فيه. والزنوج يعطون النقود بانبهار، لدليل صغير يشير الى تصدع على حجر خلف المسجد، وكلهم يهزون رؤوسهم تصديقاً واعجاباً! ولكن تعال انظر الاوساخ والقاذورات، التي عمت الازقة

الصاعدة الى مسجد ابي قبيس. ينبغي مشاهدة مكة الاصلية هنا، ارض الازقة انابيب مياه آسنة، والفضلات والمزابل في كل زاوية ومكان.

نساء المنطقة لا يحملن اطفالهن على اذرعهن ولا خلف ظهورهن، وانما يركبنهم على جنب خصورهن، يميناً أو شمالاً، ويملن بانفسهن الى الجهة الثانية، والطفل كأنه جالس على ظهر دابة. إحدى رجليه على بطن امه، والرجل الثانية على ظهرها.

وبجانب جبل الصفا، خارج المسجد الحرام، بنوا دورة مياه كبيرة تحت الارض، يبدو انها حديثة. نزلت للفرجة، ويا غياث المستغيثين! من الرائحة والزحام. ليس هنالك أي منفذ للتهوية، حتى ولا شبابيك صغيرة. كان من السهل ان يصمموا فيها منافذ للتهوية، ولكن من يفكر بهذه الاشياء؟ والقضية المهمة اني لا اعلم كيف يصرّفون المياه الآسنة في مكة. لايمكن حفر آبار في هذه المدينة الصخرية، ولا اظن ان لهم مجاري لتصريف المياه الآسنة، فماذا يفعلون اذن؟ أفيكون هذا هو السبب الاصلي للقذارة وعدم النظافة؟

لا بوادر للعودة لحد الآن، وليتها كانت، الله اعلم كم سنبقى هنا، وفي جدة بلا جدوى. وواسفاه! على قبلة المسلمين، لا احد يفكر بتنظيف اطرافها. اذا جاز لنا معرفة نظافة العالم الاسلامي، قياساً الى نظافة مكة، خصوصاً في ايام الحج (وما يدريني كيف تكون في غير هذه الايام) فطوبى لغير المسلمين. ينبغي مشاهدة مكة عن كثب، والاندكاك بحياة عرب البادية، التي يندر فيها الماء، ليتضح معنى الوضوء خمس مرات في اليوم. كل احكام الطهارة والنجاسة في الاسلام من اجل مكافحة هذه القذارة والوسخ الذي تراه في هذه الازقة، ولكن الى متى؟ مضت الف واربعمئة سنة، وظهرت شبكات المياه الصالح للشرب، ومجاري التصريف، لا يعلمه إلا الله، ثم هذه مكة كأنها محلة اليهود في اصفهان. والمشكلة انه اذا كان المكوث في منى يكفي ليومين فقط، وقد تعالت روائح

الجيف آخر اليوم الاول، فلا بد من البقاء هنا اسبوعاً على الاقل، وقد تفشت الجيفة منذ اول يوم. لأدع هذا الحديث الفضيحة. اسوأ من دزفول قبل مئة سنة، بمرافقها العجيبة فوق السطوح. حينما تصعد الى الاعلى في ازقة مكة، يتجلى لك، لماذا أو كيف كان الاوباش يرمون الرسول بالقاذورات.

الاثنين، ٢٧ نيسان

مكة

البارحة لم يتركونا ننام ابداً، احدهم يخرج ليلاً من الدار، ويعود بعد منتصف الليل، والثاني يقرأ دعاء كميل الى الصباح، والثالث يتهجد طوال الليل، وبعض العبّاد المميزين يتوجهون الى بيت الله نصف الليل، ويرجعون مع الفجر، والاذان والمناجاة، و... هكذا.

السبب انها الايام الاخيرة في هذه السفرة، ويجب معرفة قدرها، كليلة الامتحان بالنسبة للتلاميذ. باقي الليالي كأنها غير موجودة بالنسبة لهم، يرجئون كل شيء الى اللحظات الاخيرة، وهكذا حال رفاق سفرنا في كل ليلة، وصاحب البيت يريد أن يكون متفرنجاً معنا، يرش السلم بالكريولين المركّز، بكل تركيزه، ولونه البني، من دون ان يضيف له ماء، ليخفف من رائحته، ويتحول لونه الى الحليبي، ورائحته لا تدعنا ننام ليلنا، جعلتنا كأننا في المراحيض ليل نهار.

اما المرحاض الذي في الممر فهو وسيلة اعلام، تنشر كل الاصوات مهما خفتت. الحاج السقز آبادي، كان يسعل البارحة سعالاً خطيراً، ايقظ الجميع، وتحامل البعض عليه.

لكنني لم افهم ماذا يتعاطى. البرونشيت اللعين هذا يقتل صاحبه، ويعذبه عذاباً أليماً، خصوصاً مع وجود هذه السجائر المتنوعة التي يدخنها (اما انا فما يزال عندي سجائر اشنو). لكن هذا الحاج المسكين يبدو انه لا يعرف حتى

كيف يسعل، كأنه ينفخ في بوق ثلاث مرات، وهو مستلقٍ كالمصلوب، كالكركدن المزكوم تماماً: «بوه ـ هه ـ اوه» وبانكر الاصوات. قلقتُ لرؤيته جداً.

في الغرفة مروحتان سقفيتان، واربعة مصابيح كهربائية، وخمسة شبابيك، ومبردة هواء، وسكان الغرفة احدهم يشرق، والآخر يغرب. واحد يشعل، وواحد يطفئ. واحد يفتح، والثاني يغلق. والشجار لا ينقطع، لكل منهم ذوقه ومزاجه. وللعبث بهذه المبردة قصة مستقلة.

الطريف ذلك السيد ذو اللحية الملونة، وقد خضب اليوم لحيته، فانقلبت حمرتها سواداً، وبياضها خضاراً. وخضرة منابت الشعر القريبة من حمرة البشرة، تميل الآن الى اللون الرمادي من بعيد. هو سيد جدير بإثارة الدهشة. تخال ان لحيته اصطناعية، ومتشرع جداً، ومهموم دوماً، لأن الآخرين يحلقون ذقونهم.

وصاحب بيتنا، فضلاً عن تفرنجه، صاحب ذوق رفيع ايضاً. يبحث عن «الخوبة»[1] في كل الاحوال، يطلب من الحجاج كيساً من «الخوبة» مقابل كل خدمة يقدمها لهم. لا ادري بماذا تنفعه.

صباح اليوم صعدت في الزقاق السُلمي المنحدر، الذي بجوار مكان سكننا. بيتنا فقط فيه انبوب مياه آسنة، ينتهي عند الباب الى داخل حفرة. رأيته صباح اليوم، حينما رفع ابن صاحب البيت غطاءه، ليفتح مجراه. ينحدر الى حفرة احدثوها تحت البيت للمرحاض، وينزحونها مرة في العام. هل لباقي البيوت مثل هذا؟ المياه الآسنة في البيوت الاخرى تجري صوب خندق اسمنتي مفتوح، احدثوه بجوار سلم الزقاق، مملوء بالوحول والقاذورات، والبيوت الاولى في

---

(١) الخوبة حبيبات نبات بري معروف في ايران، شائع تعاطيه كشراب للوقاية من الحمى وغيرها.

الزقاق تنفتح مياهها الآسنة على الزقاق مباشرة، ربما لكيلا تمتلئ آبار مراحيضهم بسرعة. والطريف انابيب الماء، في البداية كنت ارى مضخة البيت الكهربائية تعمل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وتصورت ان هناك خزان مياه، تأخذ المضخة الماء منه الى الحنفيات. ولكن تبين بعد التحريات، ان هذه المضخة تسحب الماء من انابيب شبكة المياه الحكومية الى خزان الماء في البيت، وربما كنت على خطأ. لم اسمع هذا الخبر بالعربية، انما ذكره لي رئيس القافلة.

الاثنين مساء ايضا

مكة

ذهبت عصر اليوم الى جبل «حراء»، جبل النور. اول مهابط الوحي. سرت في الخامسة عصراً، وكنت فوق الجبل في تمام السابعة، وحينما عدت الى البيت كانت الساعة تشير الى التاسعة إلا ربعاً. جبل على درجة كبيرة من الصلادة والقسوة. يشبه الزقورة الطبيعية الى حد ما. لاقيت مشقة كبيرة في صعوده، لاسيما اثناء العودة حينما خيم الليل، ولم أكن ابصر موضع قدمي، والتوت قدمي بهذين النعلين عدة مرات، واصابتني جروح في عدة اماكن منها. حفروا فوق الجبل حفرة كبيرة، كالبركة تتجمع فيها مياه الامطار، لكنها كانت خالية، وقد أخذ مني العطش مأخذاً تركني اطلب الماء من امرأة تعود مع اطفالها، ومعها زق ماء صغير. شربت جرعتين، وكانت نعمة عظيمة. وبعد البركة بناء رباعي الاطواق فوق أعلى نقطة في الجبل. لكنه بلا اطواق. لم يبق منه سوى متر واحد فوق الارض. وفيه صدع على صخرة الجبل باتجاه القبلة، وفي اكثر من مكان. ربما كانت علامات انشقاق القمر. وعلى حد تعبير فرهاد ميرزا «انشقاق الجبل والصخور» بدل انشقاق القمر.

مررت في الطريق بمسيل مكة الذي ذكر فرهاد ميرزا تاريخ بنائه، وعلى

سفح جبل النور ضربت بعض العوائل خيامها، وكلابهم تخدمهم احسن خدمة عند العودة. كل الوديان المحيطة ممكنة الرصد من فوق الجبل. مكثت هناك الى ان جن الليل، وزالت حتى حمرة المغيب، وغدت مكة مائدة ملونة من الاضواء المتلألئة. زوار الجبل، ما عدا تلك المرأة واطفالها، رجلان سودانيان، واربعة شباب سوريون. هؤلاء فقط طوال صعودي والنزول.

الاهمال يقطر من كل نقطة هنا، فلا تعمير، ولا تشييد، ولا مياه شرب، ولا مد سلالم، او طرق، ولا أدلاء، ولا اضاءة. اول منازل الوحي في العالم الاسلامي، وملجأ الرسول وهذه حاله؟! كنت امسح الجبل والوديان بنظراتي، إذ ارخى الليل سدوله، ولم استطع رؤية الغار.

ما أجمل الجبال والصحراء في هذه البلاد. وهذه على الضد من تلك. تذكرت ﴿**والجبال أوتاداً**﴾ بتركيز شديد. في كل مهبط للوحي، من الطبيعي ان يتحرى الانسان موجبات الوحي.

الطرقات كانت رهيبة الخلوة عند العودة، اقصد الشوارع، والازقة، والمحلات في «حي المعابدة». غادر الحجازيون، ويغادر باقي الحجاج شيئاً فشيئاً، لكن اطراف الحرم لا تزال مزدحمة، والسوق ما برحت مزدانة مزدهرة. المدير المتقاعد الذي انكسرت نظارته في الطواف، حصل اخيراً على نظارة جديدة اليوم، بمئة وثلاثين توماناً. طبيب عيون واحد لكل مكة، وعويناتي واحد فقط. وكل هذا التأخير. ذكر الاسماء لكنني نسيتها. فهل هذا صحيح؟

كتبت صحف اليوم ان ١،٠٦٦،٥٥٥ مسلماً حجوا هذه السنة، وكنت قد اوردت قبل هذا رقماً آخر.

وذهبت لدائرة البريد. كنت اسجل العناوين على الظروف، اذ اجتمع حولي بضعة اشخاص، احدهم حاج من الجزائر، كان يريد ارسال تلغراف، واراد ان اكتب له باللاتينية، فكتبت، والآخر من سوريا، معه ستة طوابع، وستة ظروف،

يريدني ان الصقها له. قلت له: انك تستطيع ذلك، فقال: «ما اعرف».

نقاش ما بعد الغداء اليوم، دار حول التطبير وحرمته او جوازه. الاصفهاني الاقرع الظريف دافع عن الظاهرة بخجل، بغية ايذاء المتشرعين الذين ابدوا استنكارهم الشديد لهذه الممارسة الدموية، وساقوا ما ساقوا من آيات واحاديث عن حرمة إلحاق الضرر بالنفس. اياً كان، لم يتركونا ننام. قمت وذهبت الى حمام بالقرب من بيتنا، وحينما عدت وجدت الرفاق يقيمون امتعتهم ويراجعونها: الخوبة، الخبز اليابس، ماء الليمون، اللبن الرائب، النعناع المجفف، وخصوصاً النبات (بلورات السكر). وصاحب الدار يريد صناعة المستحيل، ومراقبة كل شيء وضبطه. باستثناء كيس كبير، ملؤه الخبز اليابس، من املاك لابس الجلود الهمداني، وكيسي لبن رائب ألقوا بها خلف جدار البيت، يبدو ان الحاج الهمداني اعطى خبزه اللواش[1] (ربما لزوجته في القرية) فطحنوه واعادوه دقيقاً، ليأتي به الى الحج في كيس يسع ١٥ كيلو، لم يأكل منه حتى الثلث. صلد، ومج، ومتعفن، ويالرائحته! ومع ذلك يتقطعون حسرات للتخلي عن هذا الزاد الاضافي. قضوا وقتاً طويلاً يتشاورون، ويفكرون، ويتدبرون القضية، الى ان رضوا اخيراً بمفارقة الاحباب.

الثلاثاء، ٢٨ نيسان

مكة

الرفاق يتحدثون عن الرحيل، قيل اننا سنغادر في الثانية بعد منتصف الليل، واذا انطلقنا مع الفجر، فاننا سعداء الحظ ايضاً. عاد رئيس القافلة يجلجل

---

(١) نوع من الخبز الايراني رقيق جداً.

ببطولاته، وشطارته، ودفعه الرشاوى ليحين دورنا بسرعة، و... الخ. مشيتي امس الى جبل حراء كانت حماقة، بكل معنى الكلمة، فقد شربت من الماء بما صرفني عن الطعام. كنت شديد الظمأ، وحينما عدت، تهالكت في اول مقهى، وشربت ابريقاً من الشاي، وقنينة من الماء، واكثرت من الماء عند العشاء ايضاً، ولا تزال شهيتي للطعام ذابلة، لا أي حراك.

حينما كنت احاول النوم بعد ظهر اليوم (الحر لا يدعك تغادر البيت الى وقت الغروب). تحدث الرفاق عن معجون «السمنقور»! وفوائده للتقوية على الجُماع، وهو معلق فوق باب احد الدكاكين، وقالوا انه معجون يستخرج من سمك، يقفز من وسط رمال الصحراء، فيأخذ الصيادون معهم بطانيات، حتى يمنعوه من العودة الى الرمال اذا قفز! (كذا) هذا ما تحدث به الحاج بائع الطحين في طهران. بائع الطحين الوحيد الذي مايزال يعمل بطريقة تقليدية، ولم يشتر طاحونة آلية لحد الآن. وهو يفخر بهذه المنقبة. اقرع هو الآخر، وهو من عرف بـ «مخ نداري» أي عديم المخ، على لسان العامل العربي في قافلتنا.

ثم رووا ان امرأة سحقت قبل امس تحت الاقدام اثناء الطواف، قفزت من مكاني، وتحريت عن الحادث... لم يكن فيهم من شاهد الحدث بنفسه. يبدو ان الحكاية مثل السمنقور.

ذكر فرهاد ميرزا في رحلته ان مترجمه في تفليس كان «فتح علي آخوند زاده»[1]، بآرائه وافكاره العجيبة الغريبة، في (زمن لا يفهمه)، وابجديته المقترحة، و... الخ. رآه مرتين عند الذهاب، وعند الاياب، وقد اطلع بلاشك على سائر ادعاءاته... الاشتراكية، الديمقراطية... وما الى ذلك، ولكن كأنه لا يرى شيئاً، ولا

---

(١) احد اوائل المثقفين المتغربين في ايران.

يسمع. بقي ذلك الرجل القاجاري المتعامي، المتفاضل. والقانع بالفرس والعلف، والبغلة، والاستقبالات، والمشايعات.

ثم اني بدأت اتبرم بكتابة هذه المذكرات. انطفأت حيوية السفر وغرابته، وعدم الاكل يغذي هذا الخمول، ليس امامي سوى قراءة رحلة فرهاد ميرزا الى النهاية، واجتراح مقارنة تلو مقارنة، وكيل السباب واللعنات على كل ما فوق البسيطة من جهالات.

الاربعاء، ٢٩ نيسان

مكة

ها قد استاءت الصحة تارة اخرى، خرجت بصعوبة من الدار، واشتريت «آنتروفيوفورم». منذ ليلة المشي، وتسلق الجبال، وتحمل العطش الشديد، والحال غير الحال. وعصير البرتقال اللبناني يصيبني بالغثيان من كثرة ما شربته. حينما خرجت لشراء الدواء، عرجت على سوق الحراج في مكة؛ راديوات، ساعات، سجاد، دراجات هوائية، مكائن خياطة، دراجات نارية، بنادق، كاميرات، عباءات، بسط، وخناجر، و... الخ. بضائع كانت تباع وتشترى هناك، وفتاة جميلة مع والدتها ـ ربما كانتا من سوريا ـ تمشيان في السوق، وقفتا للتساوم مع بائع جوال على سجادة حرير، عليها زخارف «بته جقية»[1]. لم يتفقوا على السعر، لكن الناس وقفوا يتفرجون على السجادة، وعرقلوا المرور في السوق.

ثم ان المدينة آيلة الى الخلوة تدريجياً، وصاحب بيتنا توجه اليوم الى عمله

---

(١) نوع من الزخرفة التقليدية في ايران، كثيرة الاستعمال في السجاد والاقمشة القديمة، قوامها اوراق اشجار معقوفة الرأس كالصنارة.

في الدائرة، وما عاد يتفقد مبردته مرة واحدة كل ساعة، لكن ابنه حل محله، طبعاً من دون اوامر ونواهي، ومن دون مراقبة لحاجيات المنزل، جاء يبيع ألعابه، وكأن حرارة البيع والشراء الموسمي انتقلت اليه هو الآخر. لعب قديمة منذ طفولته، جاء يبيعها، ولعله اشتراها من السوق، ورفاق بيتنا يساومونه، ويعاملونه، ويلعبون بألعابه. عرائس، وقاطرات، وشاحنات، ورشاشات، وارجوحات، وطائرات... وكلها يابانية.

امس طاف خالنا بارجله. امسك اثنان تحت ابطيه، وطوفاه اواخر الليل، حينما خف الزحام. يحاول الاشياء المستحيلة، بمعنويات عالية جداً، ولم ينقنق اليوم على مائدة الفطور، خلافاً لعادته. وهو الآن نائم رغداً.

سوق مكة اسعد اسواق العالم حظاً، متخم بالحركة، وقصير الامد. سوق عكاظ يتكرر. زيارة تعقبها تجارة والعكس صحيح ايضاً. المسافة بين الصفا والمروة كانت سوقاً في الاساس، والسعي بينهما كان سعياً للمساومات الى حد ما، من دكان الى آخر. والآن وقد شيدوا المسعى، وفصلوه عن السوق، جعلوا له خمس أو ست بوابات كبيرة، تنفتح على السوق الموازي كل بوابة تنفتح على سوق خاص، فاذا تعبت انعطفت لتشتري شيئاً، تحتاجة او لا تحتاجه. اعظم قضايا اللاهوت والناسوت إذا تحولت مرتكزات لعواطف الناس الايمانية، فلا بد لها ان تأخذ معيشتهم ومعاملاتهم ايضاً بنظر الاعتبار. بعض الدكاكين باعت كل ما فيها، وطفق اصحابها يغسلونها، ويكنسونها، ربما استعداداً للسنةالقادمة. او لحجاج العمرة، اولئك الذين يحجون في غير موسم الحج. مررت بمحل للتسجيلات والاشرطة الصوتية، عنده اسطوانات «الرحمن»، و «ياسين»، و «الحجرات»، بجانب «ام كلثوم»، و «عبد الوهاب»، و «جيلي»، و الجاز الامريكي. اسطوانة القرآن بخمسة وعشرين ريالاً سعودياً. والنوع الثاني بعشرة ريالات الى خمسة عشر لم اشتر شيئاً، فلن يكون الشراء إلا استجابة لهياج التبضع. أو للعودة

بذكريات من هذه السفرة. أو لا تكفي هذه السطور ذكرى لرحلة الحج؟

ثم ان الضجيج مهيمن هنا على كل شيء. ابواق السيارات التي تسمعها هنا خلال نصف ساعة، لا تسمعها في شوارع طهران طوال ثماني ساعات، وصراخ الكسبة والزبائن، ومساومات السوق، ومن حسن حظنا ان سكننا في مكة بعيد عن الشارع، ومع ذلك فالاخوة رفاق السفر لم يتركوا صوتاً تصدره العاب ابن صاحب البيت، لم يستخرجوه من صمته. يفعلون ذلك الآن. احدهم اشترى قاطرة مدرعة، وخالنا لا يزال نائماً. الافضل للمجيء الى مكة، ان يكون الانسان اصمّ مثله.

يوم الاربعاء نفسه
ولا نزال في مكة

قصدت بيت الله عصر اليوم، كزيارة اخيرة. «زيارة»؟ كلا، كوداع. «وداع»؟ مع الله؟ ام مع بيته؟ حينما لا تستخدم الكلمات في محلها لن تكون النتيجة احسن من هذا. اياً كان، الخاجوات راحوا يكنسون، خاجوات زنوج، يرتدون البياض، باحزمة خضراء على الخصور. وساءلتني نفسي؛ لماذا لم يجعلوا الرواق الجديد دائرياً؟ فالصف الاول للمصلين القريبين من البيت مربع، أما الصفوف من بعد حجر اسماعيل، فدائرية. ثم ألم يكن سور حجر اسماعيل مقوساً لهذا الغرض؟ لا يسمحون لاحد بالوقوف لصلاة الجماعة داخل الحجر، والطائفون عليهم المرور من خلفه لا في داخله، والستار الجديد ليس افضل من سابقه، اسود بلون الباذنجان، غامق جداً. وخطوطه غير سوية، واضح ان السعوديين بحاجة الى زمن غير قصير، حتى يكونوا اساتذة في معامل نسيجهم. الرجل الباكستاني الذي وقف للوعظ في مسجد المدينة، وتكلم بما يشبه «نزعة التغريب»، جلس تحت الرواق هنا، في طرف حجر اسماعيل يكتب شيئاً،

يسجل ملاحظات ربما، والباكستانيون يقصدونه، لعلهم يطرحون عليه بعض مسائل دينية، وهو كباقي الرؤساء شديد العكوف على مشاغله ويستغرق رفعه لرأسه، كي ينظر في مسألتهم مدة من الزمن. طريقته هذه حالت دون ان اقصده للدردشة والتحاور. ولم اكن ادري بأي لغة سأحاوره، وهل كنت ادري ذلك مع غيره؟

على سُلَّم بئر زمزم، وقف الشرطة يقلبون أوعية الماء فيسكبونها. اوعية باعة الماء طبعاً، يخزنون الماء ليبيعوه على الحجاج. وسباب وشتائم بالعربية، لم افهمها، بسبب المتاجرة داخل المسجد الحرام على اغلب الظن. وهذه فزعة كانت للسيد المسيح ايضاً عند الهيكل، ولكن لا فائدة من كل هذا. الزيارة والتجارة توأمان قديمان. هذه المظاهر لا تستر أي شيء، ثم ما هو مبررها؟

وصنابير مياه زمزم كانت مزدحمة كالسابق. عجوز وقفت بجانب السلم، وابنها ينزل، ويأتيها باكواز الماء (الاكواز ذات الجرعة الواحدة، من وقف وزارة الحج والاوقاف). يريقها على رأسها، وكتفيها، وجسمها، وهي ترتدي الاحرام، وتضرب على صدرها، ورأسها مرفوع الى السماء بالدعاء، الى ان يعود ابنها بكوز آخر. ليتني كنت مكانها. لم يكن لها اسنان، ومع انها كانت تدعو بصوت واطئ، وبلغة لم اسمعها ولم افهمها، لكنني سمعتها تدعو للانسانية كلها.

تابعت المسير، وصادفت عيوناً وحواجب هندية جميلة على وجه فتاة في ١٧ ـ ١٨ من عمرها ترتدي احراما كأنه الساري ثم أليس الاحرام نوعاً من أنواع الساري؟

ضابط يشد مسدساً! اخذ يطوف عدة نساء. بناته واهله ربما. وما اكثر الحوامل الطائفات، الطواف والسعي الآن اقل زحاماً، والحوامل اقل عرضة للخطر. عددت أربعاً منهن. رجل اعرج بعصا تحت ابطه جلس على رمال الحرم الباردة. جرف الرمال الساخنة الى ان ظهرت الرمال الباردة، ثم جلس. ظننته أولا

ممن قطعت ارجلهم بالسرقة، لكنني علمت بعد أن جلس انه اعرج بالولادة. باطن قدمه مشوهة، مجعدة. قدم سليمة، والاخرى سقيمة وراثياً. ومرة اخرى، نساء يجب ان يتأخرن خلف الرجال عند الصلاة، ولكن حينما كنا جالسين للتشهد، لمحت امرأة ترتدي السواد، وتقود طفلاً وراءها، تعبر اكتاف الرجال نحو الحجر، لتروي غليلها من استلامه. الحرم كان غاصاً بالناس، والصفوف متراصة مضغوطة، لكن المرأة كأنها تتجاوز موانع حجرية وسط الصحراء، لاهيبة للبيت، ولا احترام لصفوف الرجال المصلين، بدا لي انها هي صاحبة البيت، ولا ادري لماذا تذكرت ذلك الداعي القبادياني.

اخي الاكبر، الذي جاء الى هنا من طوق الخلافة البغدادية، يتحرى اثراً للفاطميين والاسماعيليين كي يزرع في بقعة داخل ذلك الطوق بذرة انتفاضة وثورة، ويضعضع الامر على تلك الخلافة في خراسان، على اقل تقدير. ثم تذكرت اخي الآخر، وكان شقيقاً لي من أبي وامي، والذي لم اره اكثر مما رأيت الاخ الاكبر. جاء هو الآخر الى هذه الديار، لاحياء بقايا التشيع داخل اطار الهيمنة الوهابية، ولم يعد لك منه سوى ذكرى قديمة.

وماذا فعلت انت ايها الاخ الاصغر؟ من اجل العثور على بقايا ثقافتك داخل طوق ارامكو؟ ولكي ترى هذه الكعبة صخرة تصمد لأعتى السيول والتيارات؟ وما الحاجة اساساً لكل هذا الرياء؟ ألم تر ان تلك المرأة هي صاحبة البيت؟ وعلى فكرة مالذي كان يحدوها حتى راحت تجرجر انوثتها بلا تردد بين صفوف الرجال المتراصة، وهم جالسون للصلاة؟! ووجدت أن مجرد تلبية حاجة يكنها فؤاد هذه الملهوفة (شكاية من ضرّة، او رجاء سعادة ابن، او طلب شفاء مريض... الخ، مسوغ كاف لأن تبقى الكعبة قرونا متمادية جداراً ندياً تستند اليه الجباه المتعبة، لكل البشرية المغتربة في عوالم الفقر والجور والفوضى.

اشتريت خمسة اقلام «باركر» في طريق العودة «صوغات». الواحد بخمسة وعشرين تومانا. من دكان رجل في شارع غزة، كفيف وابكم، لكنه يسمع، ويتعامل مع الزبائن بطلاقة وكفاءة قد يحسد عليها.

الخميس ٣٠ نيسان ١٩٦٤

جدة

اللعنة على هؤلاء المطوفين وشركاتهم السخيفة. للعودة الى جدة نهضنا من الساعة العاشرة ليلة البارحة، نحزم امتعتنا ونعدها، وننتظر، ولم ننطلق إلا في الثانية إلا ربعاً بعد منتصف الليل، والطريق مسدود كل خطوتين بسبب تراخيص العبور، وما الى ذلك.

يتعاملون مع الحجاج كالمجرمين المساجين. لم يكن الحال هكذا عند المجيء، اما عند العودة فكأن الحجاج لصوص محترفون، يحاولون الهرب. توقفنا مرة لشرب الشاي في الطريق، ولم نصل جدة إلا في الرابعة والنصف فجراً. والطريق كله لا يتجاوز ١٢ فرسخاً. والآن وسط الساحة أمام المطار، فرشنا بطانياتنا على الارض كآلاف الحجاج، وجلسنا بقرب امتعتنا، ننتظر دورنا في الاقلاع، وانا اتصبب عرقاً، رغم ان الشمس لم تشرق بعد، فيالله حينما تشرق!! مع ان انزال الامتعة من السيارة ليس بريئاً من اجهادي وتعرقي. شدة الزحام لم تترك مكاناً لاحد، حتى في مدينة الحجاج. الكل يتعجلون العودة، فالذين استطاعوا الخروج من مكة الى جدة سارعوا الى ذلك بلا تأخير وهم ينتظرون دورهم الآن.

القسم الاكبر من قافلتنا انطلقوا في باص قبلنا وبقينا اقل من عشرة اشخاص حملنا باص آخر، شاركنا فيه السوريون. وقعت انا ومحدث في آخر الباص بجوار اثنين من السوريين. احدهم بائع كتب في دمشق، والثاني حداد من نفس المدينة. والسلام عليكم، وعليكم السلام، وسؤال الاحوال، وتبادل العناوين. بائع

الكتب يتكلم عربية فصحى، لم اسمعها من قبل، إلا من مدير المكتبة في المدينة، وصاحبه الحداد يزعم انه يعرف الفرنسية، لكنه لا يعرفها. اسمعني: تته يته، احبطتني، وعدت الى العربية. يقول: ان امام المسجد الحرام قرأ في صلاة العشاء البارحة سورة ﴿والسماء ذات البروج﴾ وراح يفسرها لنا ويحكي لنا انا ومحدث عما فيها من تنبؤات، ثم روى لنا رفيقه الحداد قصصاً واخباراً عن عظمة وجلال قبر زينب في دمشق، ودعانا الى زيارة المرقد بسيارته الخاصة، اذا سافرنا الى دمشق، ... الخ. الطريف انهم يستعملون حرف« ژ» بدل الجيم.

حينما نزلنا من الباص صباحاً، اشتريت من بائع حليب في وسط الساحة مقابل المطار، ابريقين من الماء بريال واحد للوضوء، الذي كان بانتظارنا، ثم اشتريت منه ثلاثة اقداح حليب، شربنا منها جرعات، الى ان يحضر فطور قافلتنا. كان حليباً مجففاً، اضافوا له ماء، وملأوه بالسكر. القدح باثني عشر قرشاً.

في مجلة «البلدان» السورية او اللبنانية (لا اتذكر، فقد تركتها جميعاً في مكة وعدت) طالعتني مقالة منقولة عن صحيفة عربية اخرى حول هذا العلم (!) الذي يسمونه استشراقاً، وانها الزائدة الدودية للاستعمار، وهما حصانان لعربة واحدة، وما الى ذلك. و «البلاد» نشرت في عددها الصادر بتاريخ السابع عشر من ذي الحجة، قصة مترجمة عن الفارسية، من نمط قصص حميد مستعاني، باسماء «لادن»، و «سوسن» وعلاقات حب وآهات وترهات.

البارحة كان خبزنا على مائدة العشاء قطعاً من الجلود لا تقضم، معداً من طحين الذرة الامريكية التي شاهدت بعضها في سوق مكة. حمراء ذهبية. تشققت بعض حباتها، وند عنها النشأ. والعجيب فحمهم الذي ربما كان من خشب ام غيلان. صلد مقاوم يعمّر طويلاً. تذكرت الاتراك ووجدت ان مكانهم خال هنا، مع ان شرّاب النارجيلة العرب خلفاؤهم الشرعيون بلا منازع. وها هو حلاق جوال يبحث عمن يريد العودة الى وطنه مهذباً مشذباً.

التاسعة صباحا الخميس ايضا

جدة

غيرت مكاني مرتين منذ الصباح والى الآن هروباً من الشمس، ونقبع حالياً تحت مظلة وسط الحديقة مقابل المطار. فرشنا البطانيات، وتهالكت كل مجموعة في مكان وعلى «مظلة» نامت قطة تحت ظلال الاشجار، انثى تدلت اثداؤها ربما هربت من صغارها الرضع.

توجهت بعد الفطور الى السوق، لأصرّف آخر نقودي، من اجل تبضع طفيف من سوق جدة ثم جولة في المدينة او الى الميناء. رأيت امرأة سوداء شابة جميلة، على كل واحد من خديها اخدودان افقيان، تأكل خبزاً وحليباً، خلطتهما كالثريد. قصدت السوق بالتاكسي، تمشيت مدة في «سوق البدو»، وكانت بعض دكاكينه مفتوحة، لكن السوق اقطاع لباعة المخضرات والقشطة الآن، كنت ابحث عن سوار لطفل داريوش فلم اجد، ومررت في الطريق بدكان فيه عدد من الرجال جلسوا القرفصاء، مولين ظهورهم صاحب المحل، حتى يحجمهم. كتب على لوح دكانه «سالم بن محمد باسيف. طبيب حجام. نمرة واحد». وقفت اتفرج. الزبائن سود، لا دماء فيهم، ولكن على ظهورهم محاجم رقيقة وطويلة. اكثر من محجمة على متن كل واحد.يقتلعها صاحب الدكان بالترتيب، ويجرح بالموسى المكان المنتفخ، ويعيد المحجمة الى مكانها. المحجمة كأنها رأس نارجيلة. لكنه طويل وبقطر الاستكان. مصنوع من التنك رأسها مغطى بغطاء هرمي الشكل. وقاعدتها المفتوحة تلصق بمتون الزبائن. وعلى عنقها انبوب ضيق مائل يمتص منه الحجام الهواء، ثم يضع على رأس الانبوب شيئاً، كمصاصة الاطفال، لكي لا يعود الهواء الى المحجمة. تفرجت مدة من الوقت، الى ان انتابت الحجام الشكوك. اردت سؤاله عن اسماء ادواته، فظن اني

مفتش صحي. كنا قد ارتدينا ثيابنا العادية، حينما خرجنا من مكة، ثم لما اطمأن باله راح يشرح لي ما تيسر من قضايا الحجامة. كأس الحجامة يسميه «حجاماً» والموسى «مبرزاً». موسه بعرض سنتمتر واحد، و له مقبض، ولا يطوى، ورأسه دائري حاد. سألت عن سعره، فقال: خمسة ريالات. لكنه كان بريال واحد، فحينما مشيت وحدي، خاطبه عربي يركب دراجة هوائية، شاهد فضولي، وأسئلتي(كنت تريد خداع هذا الحاج باربعة ريالات...؟!).

قصدت باعة الاقمشة، وهم يفتحون دكاكينهم تواً. احدهم شاب ملتح طيب اللسان، دعاني للدخول فدخلت، كان يمنياً زيدياً، وقال عن نفسه (حسيني). اشتريت قماشاً بواحد وعشرين ريالاً لقميصين، واردت الانصراف، فدعاني لشرب الشاي، وجلسنا نتحاور. انجليزيته أسوأ من عربيتي، وخضنا في السياسة. قال: ان عشرين الف مقاتل مصري في اليمن الآن، لمد يد العون للسلال والجمهورية، وكان في اليمن قبل هذا اربعون الف مقاتل مصري، الامر الذي كلف أمريكا خسائر باهضة. يقول: ان امريكا تنفق يومياً ٢٥٠ الف دولار لمواجهة هذه القضية. كان يبالغ، ويندد بصراع الاخوان، ويعتقد ان السلال عميل لعبد الناصر، والبدر عميل للسعوديين. يشفق على البدر، لأنه من ذرية الرسول. دخل دكانه بعض الزبائن، فودعته وانصرفت.

يبدو انهم يعملون بجهد حثيث لتحديث جدة. حتى الاحياء القديمة يتم تحديثها، وربطها بالشوارع العامة مباشرة. المواد الانشائية القديمة، من أحجار تشبه تلك المستعملة في بوشهر. رمال مضغوطة، استحالت احجاراً كلسية الاطراف. مثل تلك التي يأتون بها من «بهمني» في بوشهر. والحدائق، والطرق العريضة ذات الجانبين، والساحات المشجرة في كل مكان. ستكون ميناءً عصرياً بعد اربع سنوات او خمس. حينما كنت اتجول في سوق البدو، لم يكن ثمة اثر للبداوة. الباعة المتجولون انصرفوا، والدكاكين فتحت ابوابها. متخمة بالبضائع

الاوربية، والامريكية، واليابانية، كأي سوق في مكان آخر من عالمنا الشرقي. القليل جداً من الباعة واصحاب الدكاكين يرتدون الغترة والعقال.

عدت الى المطار بـ«الاوتوبيس»، من سوق «البدو» الى المطار باربعة قروش. ركب معي معلمون، وكسبة، واطفال مدارس، ونساء ذهبن للتبضع، او عدن منه. وشاهدت من الباص لاكثر من مرة، نساء امريكيات يتجولن ويتسوقن كما لو كن في بلادهن.

الحادية عشرة صباحا، يوم الخميس ايضا

جدة

عدنا تواً من نزهة على ساحل البحر، ويالها من نزهة! ذهبت مع خالي وشقيقتي، واردت الانفراد، فاحتج خالي (ما هذا... تذهب لتتنزه، وتتركنا!!) جئنا بالتاكسي اولاً الى ساحل وسخ، مليء بالفضلات والقاذورات، المرمية في الماء، بريالين ونصف الريال.

رأيت المكان غير مناسب، استأجرت تاكسياً آخر، ليأخذنا الى مكان يمكن فيه السباحة، اتفقنا على عشرة ريالات، اخذنا الى رصيف الميناء، وتوقف مرتين في حراسة الجمارك والتفتيش، واوضح للشرطة ان هؤلاء حجاج يريدون التنزه، ثم توقف بالقرب من سفينة سويدية كبيرة. القيت بنفسي في الماء، كان نظيفاً عميقاً اخضر كالبلور، لا يفهم معنى هذا الماء إلا الذي جاءه من الصحراء. غسلت جسمي، ووقفت على صخرة غاطسة في الماء بقرب الرصيف، ابحث لي عن موطئ قدم، مستسلماً لشفاه الاسماك الناعمة، التي راحت تلعق قدمي. احسست حرقة في باطن قدمي، قلت لابد انها شوكة مرجانية، والقيت بنفسي مرة اخرى في الماء، سابحاً الى خلف السفينة، ثم عدت ادراجي، واعدت الكرة سابحاً على ظهري هذه المرة، لكن حرقة القدم تضاعفت، عدت الى الساحل

لارى ما جرى. نعم... جرحت قدمي، تحت الابهام، باطن القدم اليسرى، جرحته زجاجة، جرحاً ليس سطحياً، فالدم يجري، ويلوّن الماء. خرجت من البحر بكعب القدم، فتح سائق التاكسي باب سيارته، وسأل (هل اعطيك زيت سيارات تضعه على جرحك؟) لففت قدمي بمنديل، وارتديت ثيابي، وشقيقتي تحاضر عن النجاسة والطهارة. طلبت من السائق ان يأخذنا الى صيدلية، فقال: ان في الجمرك مستشفى، قلت له: ان هذا افضل، وذهبنا. علامة الهلال الاحمر السعودي على باب غرفة صغيرة، يبدو انها المركز الصحي في الجمرك. فوجدت رجلاً مستعدا للخدمة، غسل القدم بالكحول، ثم بالتنتوريد، ثم رشها بمسحوق السولفاميد، ثم ضمدها بكل دقة. اهديته علبة سجائر (اشنو) وتبادلنا الاسماء والعناوين، وخرجت، وقدمي الآن تؤلمني، والله اعلم متى سنقلع، اقلعت الآن طائرة الرحلة رقم ٢٣، ونقلع في الرحلة رقم ٣٠. سيكون الوقت عندها ليلاً، او منتصف الليل، وما اتعسني! إذ انهكت نفسي كل هذا الانهاك. لا يمكن ان اتمشى، كما لا يمكن التفسح طول الوقت بالتاكسي، فهل يمكن القعود في هذا الشارع العام الى المساء...؟!

الثانية بعد ظهر نفس اليوم

جدة

الساعات الاخيرة هذه اسوأ الساعات، خصوصاً وان قدمي تؤلمني بشدة، ولم يأت الدور لحد الآن إلا للرحلة رقم ٢٨، ولم يعلنوا عن الرحلة رقم ٢٧ أصلاً، لا ادري لماذا؟ مكبرات الصوت اطراف المطار، واطراف مدينة الحجاج، تذيع البيانات والتعليمات باستمرار، وما اشد الزحام في مطار جدة هذه الايام! مكبرات الصوت لا تنطق بغير الفارسية، ومعنى ذلك ان الرحلات اليوم مخصصة للحجاج الايرانيين. لم اسمع منذ الصباح الى الآن سوى اعلانين بالعربية، او

بانجليزية غير سوية، ثم كيف ستجتاز كل هذه الامتعة بالجمرك؟ ترتعد فرائصي حينما افكر بالامر.

حينما كنت مضطجعاً على البطانية وتحت ظلال «المظلة» غير الوارفة. مر رجل عربي، طوّق عنق طباخ نفطي «بريمس» بالحبل، وراح يهزه، ويمشي به كالكوز، أو القربة. ربما امكن تفسير المنظر بأن الصناعة الغربية تستهلك بأمر البداوة وتوجيهها. على جانبي كرسي مكسور وضعوه على كوم من قناني الكولا الفارغة، وبجواره رف من الخبز الابيض، يابس وبائت. مخلفات الضيافات والاماسي في احد مطاعم المطار.

لم افهم بالتالي هل تباع المشروبات الكحولية هنا ام لا؟ لا اثر طبعاً لقنانيها الفارغة، وصاحب المكان عنده دكان صغير مليء بالمعلبات والسردين، و Juice، والمشروبات الغازية، والبيض المسلوق، كأنه اراد اخذ ريالاً من كل حاج، لقاء جلوسهم هنا، لكن رؤساء القوافل صاروا شطاراً فلم يدفعوا. وغداؤنا خبز، وجبن، وبطيخ. آخر مصاريف الرئيس وآخر وجبة جماعية، وابسطها.

الى هنا، لم اكتب هذه الترهات إلا لنسيان الوجع. حينما اضع قدمي على الارض واريد الوقوف عليها، تسارع الدماء الى العروق، ويداهمني الم لا يطاق، كأنه جرح احدثه سيف. لم اكن رقيقاً كما انا الآن، ولحسن الحظ معي حذاء صيفي، ربطته بالقماش الى قدمي.

الرابعة والنصف عصر نفس اليوم

لانزال نتسكع في جدة. خفت حرارة الجو، وهبت نسائم باردة، ملأت البالون المقلّم الذي يحمل علامة المطار، ونشرته في الهواء.ضاعت فردة جورابي صباح اليوم، عند الرصيف على ساحل البحر. اشتريت جورباً جديداً، ولبسته. يعلنون الآن لتوهم عن الاستعداد للرحلة ٢٨. تفضلوا اصعدوا الطائرة.

ومسافرو الرحلة ٢٩ يسلمون امتعتهم للجمرك، ليس ثمة تشدد في الجمرك، لكن فيه حمالة ونقلاً، وما اكثر الحمالين هنا!

اردت تسجيل درجة حرارة الايام والمدن، لكن ذلك لم يتسن لحد الآن. استعنت بالذاكرة: الحرارة في جدة الآن بين ٣٧ و ٣٩ درجة، والرطوبة بين ٨٠ و ٩٠، اما في المدينة فاقل بقليل، وفي مكة، لا اتذكر. لماذا لم اسجل ذلك في وقته؟ جاءت الآن جماعة جديدة من الحجاج الايرانيين، نزلوا لتوهم من الباص، ويريدون الجلوس بقربنا. وتعال انظر اللهفة على مكان افضل، وارق، وانعم، ويتيح اسناد الظهر الى شيء، و... الخ. وفي أي مضيف؟! فيهم امرأة ذات جمال مصطنع، لا يليق الشادر برأسها، ولا يقر له قرار عليه. تجامل الجيران بلسانها، وتتودد اليهم، و... الخ. وتمددت عائلة اخرى على بطانية بجوارنا بعد الظهر. وابنتهم التي فاتها القطار تقرأ القرآن، وتراقبني. كنت طوال هذه السفرة اراقب الآخرين، واتفحصهم، وصرت الآن موضوعاً للمراقبة، وقعيد الفراش، وجع قدمي لم يسكت بعد.

السادسة والربع عصراً

سلمنا امتعتنا للجمرك وانتظرنا، والانتظار يعني الشعور بالبطالة، والعبث. الشعور بعدم وجود مبرر لوجودك، لا رغبة لي حتى في الكتابة، لأدع كل شيء.

التاسعة مساء من نفس اليوم

خلف باب المطار

لنا ثلاثة ارباع الساعة، يتزاحم فيها مئة وعشرون مسافراً، خلف باب المطار المغلق، ويتشاجرون، ايهم يكون اقرب الى الباب، وتدخلت الشرطة، وموظفو المطار، وعلا السباب، والفضائح. خصوصاً وان جماعة من نحو اربعين غريباً

وقعوا في شراكنا، من اهالي نطنز [1] وتلك المناطق. وجلست ناحية، اراقب اشعة المصابيح الساطعة في سماء جدة الحامية. خيوط غليظة من الضياء الاصفر، شدت رؤوسها الى زجاج المصابيح الساطعة البنفسجي، وطرفها الآخر يتجول في عنان السماء. ورفاق سفرنا يشبهون ثيابهم، ولا يبدون إلا كما هم عليه؛ متلهفين، لم يروا شيئاً في حياتهم، متشددين مع بعضهم، ويستحقون كل ما حل بهم.

العاشرة والربع مساء

وها نحن امام الطائرة، والشجار، والفضائح مرة اخرى. الموظفون يرتبون الحجاج في طابور منتظم، ولكن بمجرد ان يبتعدوا خطوتين يتراكم الناس على بعضهم، كقطيع الغنم، ويالها من حكاية، وصعود الطائرة فيه من التأخير ما يمكن كتابة بعض السطور.

الحادية عشرة مساءً

في طائرة B.U.P

نحن الآن في طائرة ذات مجموعة مراوح، واربع محركات. قالوا اننا سنعود بطائرة جت. انا وبضعة افراد صعدنا الطائرة بعد كل الناس، لذلك لم نجد مكاناً للجلوس. جاؤوا بنا الى غرفة صغيرة، خلف غرفة قيادة الطائرة، مخصصة لاستراحة المضيفين. طاولة في الوسط، وكنبتان طويلتان على الجانبين، دخلناها بصعوبة. المشكلة ان اصوات المحركات تدك الآذان دكاً، لا يمكن النوم، ولا يمكن الجلوس بلا عمل، فما كان مني إلاّ ان لذت بهذه الاوراق مرة اخرى، لا

---

(١) مدينة وسط ايران.

ادري ماذا كان سيجري علي لولا صحبة هذه الاوراق؟ مدة الرحلة تستغرق ثلاث ساعات وخمساً وثلاثين دقيقة. هذا ما اعلنوه. الطائرة تهتز بشكل غير طبيعي. البراغي والصامولات متحلحلة، احكمت اثنين منها بالسكين الذي في جيبي لئلا تمزق ثيابي. رئيسة المضيفين انجليزية في الاربعين، تساعدها اثنتان ارمنيتان لبنانيتان، وهناك ايضا الشاب اللبناني الطويل، الذي كان معنا في رحلة المجيء والذي عاتب زميلته على التبكير في توزيع الماء على المسافرين. اظنه مسؤولاً عن مهمة في هذه الشركة اللبنانية التي تعمل في موسم الحج لصالح الخطوط الجوية الايرانية. شاب حسن الوجه، يتأمّر على الآخرين بسهولة. استخدم احد المسافرين لسقاية الحجاج بالماء، وسخّر الثاني لتوزيع الخبز، والثالث لبث الاعلانات من سماعة الطائرة. اعلنوا منع التدخين، وربط احزمة الأمان، وكم من الوقت سنقضيه في الطريق، و... ما الى ذلك. يلم بالفارسية الماماً بسيطاً. والعشاء قطعة جبن هولندي، حامت الشكوك ايضاً حول جواز مضغها وابتلاعها، وموزة، واجاصة، وقرصان صغيران من الخبز الابيض، وبيضة، واربع بسكويتات. لم اعلم ماذا جرى في صالة الطائرة، اما هنا فالكل تنظر الى الكل باعين متسائلة؛ هل يأكلون الجبنة ام لا؟ لم اكن اشتهي الاكل، فاكتفيت بالموزة والاجاصة، ثم عدت الى هذا الدفتر، لأرى هل لدي شيء جدير بالقراءة؟

أراني جئت الى هذه السفرة فضولاً قبل أي شيء. ادس انفي في كل شيء كعادتي، لأرى ما هناك، وليس املاً في شيء. وهذا الدفتر حصيلة رحلتي هذه. مهما يكن، فهي تجربة، او حدث بسيط جداً، على كل حال، وكل واحدة من هذه التجارب، والاحداث البسيطة الخالية من «الاحداث» اساس لنوع من اليقظة والوعي، رغم سذاجتها. وان لم تكن اساس يقظة، فلا اقل من انها اساس شك وارتياب. وهكذا تتحطم درجات سلّم اليقين تحت اقدام التجارب. ثم ماهي حصيلة العمر ياترى؟ انها الشك في صحة، واصالة، وحقيقة البديهيات الاولية

المنتجة لليقين، او الخيال، او الحاضة على العمل، وخسرانها واحدة، واحدة، وتبديل كل واحدة منها علامة استفهام.

كنت اتصور يوماً ان عيني جديرة بان يرصدها العالم باسره، اما اليوم، ولست سوى جزء ضئيل في العالم، لن انتمي لكل العالم إلا اذا ملأت عيني من كل اصقاع الدنيا، ولكن قرأت بعد ذلك، ربما في «عدن العربية» بقلم Paul Nizan ان (الانسان ليس مجرد عينين، واذا لم تستطع في السفر تغيير موقعك التاريخي كما صنعت مع موقعك الجغرافي، فلم تتكلف إلا العبث). وهكذا تنبّهت الى ان الانسان مجموعة حيوية وثقافية متماسكة، بكفاءات معينة، وعلاقات محدودة. والانسان على كل حال ليس مجرد مرآة، انما هو مرآة تعكس اشياء معينة، حتى ذلك الحاج الهمداني الذي لايزال يرتدي الجلد. ثم ان المرآة بلا لسان، وانت تريد ان يكون لك لسانك فقط، أوليس هذا هو الذي يحجب عين الرأس عن عين الفؤاد؟ وحينما اراجع حساباتي، ارى انني بعين الفؤاد هذه، لا اعرف حتى نفسي، ولا البيئة التي الفتها في طهران، وشميران، وپاچنار.[١]

فأية صورة اذن تلك التي قدمتها في هذا الدفتر؟ ثم ألم يكن الاجدى ان اصنع مثلما صنع ملايين البشر. الذين زاروا الكعبة طيلة الف وثلاثمئة ونيف من السنين، وكان لهم ما يقولونه، لكنهم لم ينبسوا ببنت شفة، واخذوا ثمار تجاربهم الى القبور ممسكين؟ او نقلوها بضعة ايام لاخوانهم، وآبائهم، وامهاتهم، واقربائهم بكل تواضع، ومن دون أي تبجحات. ثم لاشيء بعد ذلك...؟

أليس من الافضل اساساً ان نزهد في كل التجارب، وكأنها نواة في قلب ثمرة؟ بدل ان نأكل الثمرة ونزرع النواة؟ خصوصاً في صحراء كهذا الدفتر،

---

(١) مناطق سكنها الكاتب في العاصمة طهران.

لايحمل سوى كلام على عواهنه؟ وواضح انني بهذا الدفتر اجبت نفياً عن هذا السؤال الودي، والسبب هو ان الحداثويين سيشمخون بانوفهم، وينفضون الغبار عن اكمامهم: (سافر الى الحج؟! وهل كانت البلدان قحطاً عليه؟!) ناسين انها ثقافة، وتراث يدعو مليون انسان سنوياً، ليمارسوا شعائر واحدة، لذلك لابد من الذهاب الى هناك، والحضور مباشرة، والمشاهدة عن كثب، لمعرفة الفوارق التي طرأت (والتي لم تطرأ) منذ زمن ناصر خسرو والى اليوم.

قد يعتبر ما سأقوله اعترافاً، او اعتراضاً، او زندقة، او أي شيء آخر، لكنني كنت ابحث في هذه الرحلة عن اخي، وكل اخوتي الآخرين، اكثر من بحثي عن الله، فالله موجود في كل مكان لمن يؤمن به.

الاحد، ٣ أيار ١٩٦٤

تجريش[١]

يبدو اننا هبطنا في مطار طهران في الثالثة بعد منتصف الليل، وكنت في الخامسة في البيت. متعباً منهكاً لا يفارقني السعال. لم اخرج من البيت الى الآن، بل حتى لم استحم، خوفاً من جرح القدم، او الاصابة بالزكام. والجو لايزال بارداً، تفوح منه رائحة الشتاء. وانا اما نائم، او استقبل الضيوف. وسيمين تقول: (تحرقت رجلاك بشدة).

(١) محلة في شمال طهران.

المحتويات